

مُذَكِّرات

فوزي

القاوقجي

١٩١٤ - ١٩٣٢



الجزء الأول

بنایة مکړزل - شارع بشارة الخوري
سلفون ۲۹۱۴۱۱ - ص ب ۱۱۲۴۸۹ - بیروت / لبنان
رق: مقدسبرین

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى
آذار (مارس) ١٩٧٥

فهرست

٧	تمهيد
	الفصل الاول
١١	(نشأتي)
	الفصل الثاني
٢١	(أحداث الحرب العالمية الاولى)
	الفصل الثالث
٥٩	(في دمشق ١٩١٨ - ١٩٢٠)
	الفصل الرابع
٧٣	(الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ - ١٩٢٧)
	الفصل الخامس
١١٩	(اقامتي في نجد ١٩٢٨ - ١٩٣٢)
١٤٥	ملاحق

تمهيد

طلب اليّ كثير من اخواني ، بنعيد الثورة السورية ، ان انشر مذكراتي ، وكان الحافهم في هذا الطلب يزداد مع ازدياد الحوادث . وكنت ارفض دوما طلبهم ، اعتقادا مني بأن اعمالنا لما تنته بعد ، ونشر شيء من المذكرات عن الثورات الماضية يكشف عن عورات واسرار طالما صرف العدو جهودا جبارة واموالا كثيرة لمعرفة ، لذلك كنت أجدني مضطرا للاحتفاظ بها لنفسي لتكون لي ، بما فيها من اختبارات ، نبراسا استضيء بنوره في عمالي المقبلة .

غير اني بعد عودتي من الثورة الفلسطينية (١) ، الحّ عليّ اخواني بوجوب نشر هذه المذكرات ، وأخذت ادارات الصحف والمجلات العربية والغربية في الوقت نفسه تطلب مني نشرها كذلك . حتى اذا الحفوا في الطلب مرة ثانية اخذت أستعرض حوادثي التي غامرت فيها خلال الحرب العامة وحوادث الثورة السورية وثورة فلسطين ١٩٣٦ الاخيرة فوجدت نفسي امام وقائع يحتاج في تدوينها الى مجلدات .

وعنت لي الفكرة بتدوين اهم الحوادث شأننا ، والتي كان لها اعظم اثر في مجرى تاريخنا الحديث . فعزمت عندئذ على اخراج هذه المذكرات بعنوان « مغامراتي » .

افضيت الى احد اخواني بما عزمت عليه ، فوعد بأن يقوم هو بنفسه على تدوين ما امليه عليه وحددنا موعدا الساعة الرابعة بعد ظهر يوم السبت ٢٣-١-١٩٣٧ في داري ب كراة بغداد .

١ - عن أحداث هذه الثورة راجع كتاب : « فلسطين في مذكرات القاطنين » (الجزء الثاني من المذكرات) .

وفي الساعة التي حددت للشروع في تدوين هذه المغامرات كنت تجدني في سيارة بين مفوضين من الشرطة مخفورا بسيارتين مزودتين بالرشاشات تنهب بي الطريق نحو كركوك - الى المنفى - حيث وصلتها مع عاصفة هوجاء من الثلوج لم تعهد كركوك مثلها منذ عشرات السنين . وكأني ومغامراتي على موعد مع هذه العاصفة السماوية في كركوك .

وصلت كركوك في الرابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٣٧ . وكان مراسلي حميد سلمان قد سبقني اليها يحمل حوائجي . كما ان صديقي المجاهد بهاء الدين طباع قد لحق بي في اليوم التالي ليكون الى جانبي .

ان السكون والهدوء اللذين أصبحت أسيراً لهما في غرفتي ، واللذين لم ألفهما عمري اخذا يثران من عصبيتي ويملآن نفسي سأمًا . فبماذا يمكنني ان اتغلب على تلك البطالة وهذا السأم ؟ «مغامراتي» . اذا في هذا المنفى خير فرصة انتهزها لتدوين مغامراتي . على اني لا اقصد من تدوينها وتسجيلها التفاخر . كلا، فقد قام كثير من المجاهدين الاحياء منهم والشهداء بمثلها ، وبأعظم منها . بل قصدت تسجيل صحائف من التضحية والمجد التي قام بها قسم من سوادها في تاريخها الحاضر ، ولأثبت ان في سواد هذه الامة من الحيوية ما يكفي لاتيان المعجزات ودفع كل الاخطار الممكن نزولها فيها ، اذا وجد من يعرف كيف يستثمر ويستخدم هذه الكنوز الثمينة . يقرؤها اي (المغامرات) شباب الامة ويتخذون وأجيالنا المقبلة من حوادثها قدوة يقتدون بها في التضحية التي تتطلبها البلاد لنيل حريتها واستقلالها . ولكن ليعلموا انه لا يوجد ثمة ما يحول دون تضحياتهم في سبيل هذا الوطن مهما بلغت قوات الاعداء من عظمة ومنعة . كما انه لا يوجد شيء يدعى بالمستحيل عندما يراد القيام بواجب مقدس .

واذا كنت لم اذكر خلال (مغامراتي) المعارك التي جرت في سائر ميادين الثورات ، ولم اذكر اسماء الابطال المجاهدين الآخرين ، فما سبب ذلك الا عدم اتصالي المباشر بتلك الميادين التي خاضوها وبالابطال المجاهدين فيها .

واختتم مقدمتي هذه بكلمة أوجهها الى كل شاب يريد المغامرة لاكتساب شرف خدمة البلاد ، انير بها طريقه ولعل فيها الذكرى . يجب على المرء المغامر ان يتجرد من انانيته ، وان يكون رجب الصدر لدرجة يتحمل معه ما يعترض سبيله من انواع الاذى ، وما قد توصم به وطنيته وشرفه من انواع التهم والافتراءات والا يصدّه عن سبيله ما قد يلاقيه من العثرات والصعاب والا توهمه سعة تشكيلات عدوه السرية ، ولا عظمة ترتيباته العسكرية ، وان يجعل الكتمان والعزم والصبر رائده .

ان المغامرة سهلة ، والصعوبة هي في تمهيد سبلها ، واتقان خططها . والامة الضعيفة التي لا يمكنها ان تعيش بدون توحيد اجزائها ، يجب ان تتوقع النكبات المتتالية والدسائس في كل حين . وليس يدفع عن الامة امثال هذه المخاطر الا استعدادها لها . ولا يكون الاستعداد بتشكيل الاحزاب على النمط الذي سارت عليه الامة في سابق عهدها ، او بتنظيم المناهج دون ما تنفيذ ، او بإقامة المظاهرات والتفاخر بالوطنية والتبجح الفارغ ، بل بإعداد العدة فعلا ، وتنظيم الرجال ذوي الكفاءة سرا . فالعرب لم يسبق لهم ان استعدوا لدرء مصيبة كان تحقق لديهم وقوعها ولكنهم تعودوا القيام بالاستعدادات بعد وقوع الكارثة . وكم كلفها ذلك من الضحايا في الانفس والأموال ، وكم كانت النتائج سيئة !

على من يريد الفوز في مغامرة يقدم عليها ، أن يستعد لها بحكمة وإتقان ، ويقدم بعزم وجنون ويدراً بصبر وتعقل .

اني واثق كل الوثوق بأن هذه المغامرات لا بد ان تخلق روحا قوية في نفوس الكثير من شبابنا الذين يتعطشون الى حب المغامرة وخدمة البلاد عن هذه الطريقة وابتعادهم عن اتباع طرق الدبلوماسية والمظاهرات والاجتماعات غير المجدية (١) .

الفصل الاول

نشاتي

فتحت عينيّ في هذه الدنيا ، فاذا بي في المدارس العثمانية . وكنت لا اشعر بما يجري خارج المدرسة . فقد كنا فيها خليطاً من التلامذة، عرباً وتركاً وارناؤوطاً واكرادا وشراكسة ، وغيرهم من العناصر التي كانت تتألف منها الامبراطورية العثمانية . لم يكن المعلمون من اصحاب الكفاءات في اختصاصهم . وكنت كلما فكرت في نفسي اشعر بأن حياتي عبث . اما العرب والعروبة فلم يكونوا ليمروا بخاطري ، ولم يكن هناك رجل او حزب او جماعة تلقي في نفوس الشبيبة شيئاً من دروس الوطنية . وكان الخليفة في نظرنا خليفة للعربي كما هو للتركي وللكردي والارناؤوطي والشركسي ، كل على انفراد . فكان الخليفة وحده رمزا للجامعة .

وظللت انتقل من صف الى صف حتى دخل علينا يوما احد الضباط مضطرباً، شرع يخطب فينا قائلاً : «ان جيش الحرية (!) دخل استنبول ، وأعلنت الحرية والعدالة والمساواة والاخوة في الدولة» . وكنت انا ، أضحك في سري ، وأتساءل قائلاً : ما هو جيش الحرية ؟ وماذا يحدث اذا دخل استنبول ؟ وما معنى الحرية؟ وهل كانت مفقودة فوجدناها ؟؟ . ظل الضابط يحدثنا بمثل هذه الاخبار ، ونحن نستمع اليه كأننا نستمع الى درس في آداب اللغة العربية يلقيه معلم صيني .

وتدرجت في صفوف المدرسة حتى وصلت المدرسة الحربية . ولكنني كنت اشعر في نفسي دائماً شعور من ينقصه شيء يتحرّاه .

وكان تلامذة كل قطر من أقطار الامبراطورية يجتمعون في المدرسة سوية ، ولم يكن بين هذه المجموعات اية صلة قومية تجمعهم سوى الجامعة العثمانية ، كأنما كانت الاقطار مستقلة بعضها عن بعض .

وأخذنا نسمع بعد حين ان احزابا تأسست في الخارج ، من اتحاد وائتلاف وغيرهما . غير اني في اواخر عهدي في المدرسة الحربية بدأت اشعر بأن الترك شرعوا ينضوون تحت لواء رابطة جديدة غير الرابطة العثمانية التي نعرفها . ولم اكن افقه معنى لما يتحدثون به . كما اني اخذت اسمع بوجود تشكيلات وأحزاب عربية . وان جمعيات سرية تعمل في الخفاء لضم شتات العرب وتوحيد جهودهم والمطالبة بحقوقهم . ولكننا كنا نفكر في ان لا بد من ان تتصل بنا هذه الجمعيات يوما ما .

وحدث يوما شجار في المدرسة بين مجموعة تركية وأخرى عربية ، وسمعت قائلا يقول بحماس وجدّ : (انا تركي) فأجابه آخر على الفور بحماس وفخر : (وانا عربي) وانتصر التلامذة العرب لزميلهم . وكان هذه الحكمة الاولى التي انطلقت في سماء «المدرسة الحربية» قضت على الصلة التي تجمعننا بالدولة العثمانية . فأصبحت كلمة «عرب» الآن جامعتنا . ومنذ وقوع ذلك الحادث بدأنا نشعر بأن لنا قومية عربية مستقلة ، وراءها أمة وتاريخ ومجد تالد .

واشتدت مع الايام حزبية الاتراك وانتسابهم الى طوران كما اشتدت غيرتنا على عربيتنا بالنسبة عينها . وكان الواجب يقضي علينا بأن نقب عن جد ننتسب اليه ونفخر به ، حتى اذا قال الاتراك : «نحن طورانيون» قلنا عندئذ «نحن قحطانيون» .

واخذت الاخبار تتسرب الينا عن وجود شخصيات عربية في مجلس المبعوثان تدافع عن حقوق العرب ، وعن وجود احزاب وجماعات تسعى لانهاض العرب بشتى الوسائل ، فأخذنا نعمل بقدر ما تسمح لنا به ظروف المدرسة للاتصال بهذه الشخصيات والجماعات للاستنارة بأرائها . وأخذنا نتساءل بدورنا : هل للعرب حقوق ؟ وما هي حقوقهم ؟ ومن هم أولئك الاشخاص ؟ وما هي غاياتهم من تأليف احزابهم ؟

ودارت الايام دورتها وتخرجت عام ١٩١٢ ضابطا في الجيش العثماني ، وكل ما كنت أحمله في نفسي من الشعور هو انني عربي ، واننا نعيش ضمن كيان عثماني سادته الترك .

منذ تلك الساعة صممت على وقف نفسي ومواهي على عضد اي شخص او جماعة عربية تعمل في سبيل سؤدد العرب ، وامتلكني شعور فياض جعل المغامرة والمجازفة والعمل في سبيل أمتي مثلي العليا في الحياة .



تخرجت في المدرسة الحربية في سنة ١٩١٢ ، وكنت منتسبا فيها الى صنف الخيالة . ومما حدا بي الى اختيار هذا الصنف من صفوف الجندية صفات البطولة التي يمتاز بها الفرسان ، وما في الفروسية عينها من سرعة حركة ومخاطرة ولذة . وكان تعيين الضباط في الفيالق يجري في ذلك الحين بطريق الاقتراع . وقد اقترعت بدوري فكانت الموصل نصيبي ، كما كانت نصيب المرحوم أحمد مختار الطرابلسي ، صديق ورفيق عزيز علي باشا ، الذي استشهد فيما بعد في حروب بلده طرابلس الغرب ضد الطغيان .

وكان الطريق المألوف حينئذ من الاستانة الى الموصل طريق حلب - ديسر الزور . غير أنني بالاتفاق مع صديقي أحمد مختار فضلنا سلوك طريق آخر يخترق سهول الاناضول وحزونها ، ويتيح لنا ان ندرس في خلال سفرنا احوال سكان الاناضول واخلاقهم وعاداتهم ، فنقارنها فيما بعد بأخلاق العرب وعاداتهم .

أبحرنا من الاستانة الى صمسون على احدى البواخر ، وسرنا من صمسون الى ديار بكر على عربة يجرها زوج هزيل من الخيل . فقطعنا المسافة في واحد وأربعين يوما . ومن ديار بكر ركبنا ما يسمى بـ (الكلك) منحدرين في نهر دجلة . والكلك هو عبارة عن مجموعة من جلود الماعز ، تنفخ بالهواء ، ثم تلقى فوق الماء ، ترصف عليها أعواد ، تبني فوقها حجرة صغيرة يأوي المسافر اليها عند الحاجة . ولقد تم لنا قطع المسافة بين ديار بكر والموصل في اثني عشر يوما .

كان لنا من جبال الاناضول وسهوله وقراه ودساكره ومدنه ، دروس كشفت لنا عن حقيقته ، واتضح لنا ان الاناضول بعمرائه وبأخلاق اهله وعاداتهم دون البلاد العربية . واخذ شعورنا يتدرج كلما قطعنا منطقة من مناطق البلاد من شك الى يقين .

كانت مناظر الاناضول ومنازله تمر بنا على نسق واحد ، حتى اذا ركبنا الكلك ثانية ، وانطلق بنا في مجرى دجلة منحدرنا نحو الجنوب ، وجدنا أنفسنا في عالم جديد ، ولقد كان عرب القبائل القاطنة على ضفتي النهر يقدمون الينا ما نحتاج اليه ، ويجودون بشمرات اراضيهم . وكثيرا ما كانوا ينشدوننا مختلف اناشيدهم وقصيدهم البدوي الحربي منه والقومي ، مما اثار حماسنا . فهذه لغتنا تسمع لهجاتها المختلفة ، وهذا الشعور المشترك ، وهذه العادات العربية تتجلى في كل مظهر من مظاهر بني قومننا .

اطلت علينا (الموصل) ، تلك المدينة التي اقترح المرحوم الشيخ رشيد رضا ان تكون مركزا للخلافة الاسلامية لتاخمتها حدود البلدان الاسلامية المجاورة كتركية

وايران وسورية . وما كدنا نصل المدينة حتى ذهبنا توا الى الثكنة العسكرية ، حيث كتيبتي الخيالة ، فتسلمت فصيلي ، وشرعت في اعمالها .

كانت كتيبة الخيالة هذه شبيهة بالامبراطورية العثمانية ؛ ففيها خليط من العناصر ، غير انه لم تكن قد سرت اية فكرة سياسية او قومية الى رؤساء ضباطها او جنودها بعد . وكان الضباط الاحداث على شيء من العلوم والمعارف العسكرية ، بخلاف باقي الضباط الممثلين لطبقتهم الرفيعة ، اذ كان هؤلاء قليلي الخبرة ، بعيدين عن العلم ، مجردين عن كل ما تتطلبه قيادة الوحدات من فن ومعرفة بالقوانين والتدريب العسكري .

وكان في الوحدات نوع من التسابق بين الضباط الحديثين انفسهم للبروز والظهور . وقد اصبحت بعد وقت قصير معلما للكتيبة كافة ، ومحاضرا لضباط الفيلق ولقواده ، مما هيا لي التعرف الى كثير من اخواني الضباط العرب .

واخذت الفكرة تنمو رويدا رويدا وتختمر في رؤوس الضباط ، ولكن على غير نظام او اساس . وبدانا نسمع اشياء عن (المنتدى الادبي) في الاستانة . كما اخذت اخبار نوابنا العرب في مجلس النواب العثماني تصل الينا ، ومن ضمنها ما كانوا يجاهرون به من وجوب منح العرب حقوقا تتناسب وخطورة شأنهم .

ونشبت حرب طرابلس الغرب في العام عينه ، واقدمت ايطاليا في ذلك القطر العربي العزيز على اشنع الاعمال الهمجية وافظعها ، ولم تكن اعمال الطليان البربرية تلك لتثير اي حماس في نفوس العرب سوى ما كنا نقرؤه في الصحف . ووقعت الحرب البلقانية على الاثر فانكشف الستار عن الامبراطورية العثمانية ، فاذا بها عظاما نخرة . ولم تثر هذه الحرب ايضا اي حماس في نفوس الضباط وغسیر الضباط كما كان ينتظر .

واخذت تجول فكرة مخيفة في نفوسنا : هل يقضى على شعوب الامبراطورية العثمانية اذا انهار هذا البناء الهرم ؟ وهل لدى العرب اذا ما انهار البناء من القوة والمنعة ما يصد طمع المستعمر الاوروبي عن الجزيرة ؟

وكان يخيل اليّ ان خطر الانهيار انما يقع معظمه على العرب ، لانهم عزل من اية تشكيلات تكون دعائم الكيان العربي . اما الترك فان ما كان لديهم من تشكيلات واسعة ومن سوار الامبراطورية العثمانية ومؤسساتها ، وما كانت تظهره جمعية (الاتحاد والترقي) من النشاط في اعمالها ، كان يحملنا على الاعتقاد بأن ما يصيبهم من الانهيار اقل بكثير مما يصيب العرب . حتى ان كثيرا من ضباط الترك المنتسبين اليها راحوا يشمخون بأنوفهم على العرب . وتمادى هذا الغرور حتى

اخذوا يصرحون بضرورة تبديل اسماء الخلفاء العرب المعلقة على جدران المساجد بأسماء الخلفاء الترك ، والقضاء على احرار العرب وعلى الفكرة العربية وجعل البلاد العربية مستعمرات تخضع بقوة السلاح لسلطان الترك ونفوذهم . وتجلت فكرة تترك الامة العربية ايضا ، فأخذنا نشعر من طرف خفي بتنكيلات وبأعمال تدل على انها تدابير تمهيدية لتنفيذ ما نسمعه على السنة الاتحاديين . فيزداد بحثنا ليلا ونهارا عن تشكيلات عربية ننتمي اليها ونضع مواهبنا وحياتنا قيد تصرفها .

وساقني الحظ يوما الى التعرف الى اخ عربي مخلص هو السيد سعيد الحاج ثابت احد شباب الموصل . فأخذ يث في نفوسنا أفكارا جديدة ، كما اخذ يمنينا بقرب حلول وقت العمل ، ويعدنا بإشراكنا في هذا الشرف ، موصيا ايانا بالهدوء والسكينة . وكثر اتصالي بالضباط العرب ، وفوجئت ليلة بصدیق من الضباط ينفرد بي ، ويسألني اذا كنت مخلصا حقا لبلادي ان اتبعه من غير سؤال . شد الضابط على عيني منديلا وقادني الى دار لم اكن اعرفها . حتى اذا وصلناها حل الرباط فاذا بي امام جماعة مقنعة بألبسة سوداء لا يظهر منها سوى عيونها ، وقد احدثوا بمائدة عليها نسخة من القرآن الكريم وسيف ومسدس . وطلب اليّ احدهم ان اقسم يمين الاخلاص لجمعية تعمل في سبيل تحرير العرب ، ففعلت . ثم اغمض الضابط عيني ثانية وعاد بي الى منزلي .

بت ليلى وانا انتظر تكليفا من الجمعية أقدم على ادائه ، وجاءني اخي الضابط بعد حين يخبرني بأن الحزب قرر ايفادي بمهمة الى ابن سعود في الجزيرة ، فأعربت له عن استعدادي للقيام بالمهمة من فوري . وبقيت طيلة الليل ساهرا أتخيل كيفية مقابلتي لابن سعود وكيف سيسرع الى حشد جيوشه ، فأكون في مقدمتها ، وتقاتل الترك ، وتطردهم من بلادنا ، وتؤلف فيها سيادة عربية ونعلم جمعية الاتحاد والترقي درسا لن تنساه ، وتتابع الأيام ، ولكني لم اجد لصديقي اثرأ ، ولم أسمع بعد كلمة تكليف من الجمعية . فبدأت الشكوك تساورني ، ظانا انهم ربما لم يجدوا في الكفاية والمؤهلات للقيام بمثل هذه المهمة العظيمة . غير اني مع الأيام ايقنت أن ثقتهم بي لا تزال هي هي . فانقلبت الشكوك التي خامرتني في كفاءتي الى الشكوك في كفاياتهم هم انفسهم ، واتضح لي ان تشكيلات حزبنا لا تشبه تشكيلات حزب الاتحاد والترقي التركي الذي كان ينظم وينفذ . بينما كنا نحن نحسن وضع الخطط ، ونتكلم ولا نعمل . وسألت نفسي ، هل نحن اقل كفاية من الترك ؟ ام ان الترك اشجع منا ؟ ام نحن نظريون فقط والترك عمليون ؟ مع العلم بأن الذكاء العربي يفوق الذكاء التركي .

واجابتنى نفسي : هذا ما ستكشفه لك الايام .



كنت أسكن في الموصل دارا على ضفاف دجلة ، وكان لي جارة عربية جميلة الصورة فصيحة اللسان من قبيلة (البقارة) المستوطنة فيها . وكان يسكن في المحلة عينها فريق من الضباط الترك . فكان كل منهم يحاول جذب قلب المرأة اليه ، فأخذت أفكر في طريقة اتمكن بها من السيطرة على شعورها . ولم أجد الا ان امتلك قلبها بضرب من ضروب الفروسية التي يتعشقها العرب رجالا ونساء . وظللت اتحين الفرص لانال الشهرة التي تنيلني الحظوة لديها .

دعاني قائد الفيلق اسعد بك يوما اليه وقال لي : ان الحكومة قد ارسلت كتيبتين من الفرسان وقوات اخرى الى قبائل شمر لتحصيل ضريبة (الودي) . وان القبائل المذكورة لم تدعن وهي تعيش في اراضي عشيرة (الجبور) فسادا . لذلك اطلب منك ان تتوجه مع خمسة وعشرين فارسا الى قبائل الجبور للتظاهر بالمحافظة عليهم ، الى ان يتم جمع الودي من القبائل المذكورة . وشدد عليّ الوصية بوجوب اجتناب كل ما من شأنه ان يؤدي الى فتنة او اصطدام بقبائل شمر .

اعدت العدة وخرجت بصحبة الخمسة والعشرين فارسا الى اراضي الجبور، حيث اجتمعت بشيخ العشيرة ، واوضحت له اهتمام الحكومة به وبعشيرته ، فسخر الشيخ ورجاله مني بادى ذي بدء ، لحدائثة سني ولضالة القوة التي ترافقني . فأنارني استهزائه بي ، سألت الشيخ تزويدي بقائمة الاشياء التي سلبتها قبائل شمر لاعيدها اليهم ، فازدادت سخرية القوم بي . ولكن احد شيوخهم قدم لي على سبيل المجاملة قائمة بالمنهوبات .

ولجت على الفور مضارب شمر التي كنت اجهل منازلها . وصادفت بعض رعاة شمر ، فأخبرتهم بأنني انا الضابط الموكل اليه دعوتهم الى قرية تل عفر لتأدية الضريبة . وما لبث خبر مهمتي ان انتشر بين مضارب شمر . وأخذت استقصي منازل افخاذ العشيرة التي تحتفظ بمنهوبات قبيلة الجبور فعرفت بعد بحث بمكانها . وسرت اليها ليلا واوعزت الى من معي بالانتشار حول المضارب على ابعاد متفاوتة . واتجهت بصحبة ثلاثة فرسان نحو مضارب (الشيخ محمد المطلق) وفاجأته بظهوري على باب خيمته في منتصف الليل . وبادرته بقولي : ان جموع قوة (تل عفر) قد جاءت اليك وطوقتك ، وقد ارسلني القائد اليك لمقابلته على الفور ، وليس لديّ من الوقت اكثر من خمس دقائق حيث تتحرك القوة جميعها نحوكم ، فتقبض على القبيلة بأجمعها .

أوجس شيخ القبيلة منا خيفة ، فرغب اليّ ان اسأل القائد امهاله وقتا قصيرا لاعداد نفسه لمواجهة . فأجبتة بأنه يتعذر عليّ ذلك . . وبعد اخذ ورد ركب وركب معه ثمانية فرسان من عبيده وسرنا حتى اذا ابتعدنا عن مضارب القبيلة

واحاط بنا فرساننا امرت هؤلاء باستلام اسلحة الشيخ وعبيده وبشد وثاقهم . وفاتحت الشيخ بأمر المنهوبات ووجوب اعادتها الى الجبور . ولقد أقسمت له بأنني قاتله وعبيده اذا لم يعد المنهوبات خلال اربع وعشرين ساعة . فأذنت له بارسال احد عبيده لجليها . ولم تمض الا ربع والعشرين ساعة حتى كانت منهوبات الجبور بكاملها بين ايدينا . واطلقت سبيل الشيخ وعبيده للحال . غير انه التفت اليّ وقال : ان هذا اول مال أدفعه للحكومة . ثم أقسم لي بأنه لن يدع هذه الاهانة تمر من غير ان ينتقم لها ، فأجبتة : افعل ما بدا لك . وذهب مغاضبا .

وانتشر الخبر بين القبائل . ولقد ذهب وفد من الجبور ومن سواهم الى الموصل يشكرون السلطة ما قمت به من اعادة مسلوبات الجبور ، ويطلبون ابقائي في منطقتهم للمحافظة عليهم وعلى اموالهم من عبث العابثين . وأخذت تنهال عليّ بعد ذلك طلبات بقية القبائل من الحديد والبرادير والبقر وسواهم لمساعدتهم على اعادة منهوباتهم . فصرت أغير من قبيلة على قبيلة استرجع ما لديها من منهوبات الآخرين ، بالحيلة طورا ، وبالعنف تارة ، حتى تمكنت من اعادة معظم المنهوبات الى أربابها ، وكان بعضها يعود عهده الى سنين .

وانتشر اسمي في الموصل ، وفيما جاورها ، وأصبحت لي شهرة عظيمة . كل ذلك تم لي خلافا للأوامر والتعليمات التي اصدرها اليّ قائد الفيلق . وكنت قد جاوزت المدة التي حددها لي ، وخشي القائد معها من مفامراتي ، وما قد ينتج عنها من اضطراب في الامن ، فغضب عليّ طالبا عودتي اليه بسرعة . وصلت الموصل ، فألغيت القائد غاضبا . وبالرغم من تقديره اعمالني أثبتني على مفامرتي . ويممت منزلي فوجدت الاخبار قد سبقتني اليه . وكان اهل محلي ينتظرون اويتي بلهف شديد . وكانت جارتني العربية في مقدمة المعجبين ، وقد شعرت من ثنائها عليّ انني نلت الخطوة في نفسها .



ولم تمض على عودتي ايام معدودات حتى اتاني مندوب الحزب وهو يقول بأن الاخوان يودون الاجتماع بي لأمر خطير . فاتفقنا على أن يكون الاجتماع بهم في (حمام العليل) وهي قرية على ساعتين للراكب من الموصل ، بها عيون كبريتية شديدة الحرارة ، يؤمها اهالي الموصل وما يجاورها للاستشفاء .

ولكي اتمكن من الاجتماع باخواني طلبت اجازة من آمر الكتيبة فرفض طلبي، فقررت حينئذ أن اجيز نفسي . حتى اذا حان الوقت تنكرت بزيّ بدويّ، وتجنبنا للأعين تنكبت عن الطريق العام واتخذت لنفسني طريقا من الوديان المحاذية .

وبينا انا اجدّ السير لقيت ركبا يسرون في اتجاهي وقد تعجبوا من قيافتي

البدوية ومن جوادي وما عليه من التجهيزات الاميرية . فذكرت لهم انني ضابط من حامية الموصل ، وان وجهتي حمام العليل . فذكروا لي انهم مواطنون حكوميون وان وجهتهم قرية (لزاقة) على ثلثي المسافة بين الموصل وحمام العليل . دعاني الركب الى تمضية ليلتي في صحبته في قرية (لزاقة) ، فلم يسعني عندئذ الا التصريح بانني على موعد مع بعض اخواني لا يمكنني اخلافه . فرضوا بأن اذهب الى مواعيدي على ان اعود اليهم .

وصلت حمام العليل في الوقت المعين وعقد الاخوان اجتماعهم الذي يؤسفني ان اقول انه لم يسفر عن شيء . وعدت وحدي الى قرية (لزاقة) ، فوجدت فيها من تعرفت اليهم في انتظاري . ولقد اتاحت لي هذه الفرصة التعرف بصديق نادر هو سعيد افندي علي صاحب قرية لزاقة الذي له عليّ ايدار في اثناء مقامي في الموصل ، على اثر حادث سياسي وقع لي وسيأتي نبأه بعد حين .

وعدنا الى الموصل في الصباح الباكر . وكان موعد سفر البريد الى الاستانة فكتبت كتابا الى والدي ، وآخر الى سيدة اعرافها . وشاءت الصدق ان اضع كتاب والدي في غلاف السيدة ، وكتاب السيدة في غلاف والدي . واذا بي بعد ايام اتسلم كتابا من والدي يقول لي فيه انه لم يكن ليظن ان ابنه سيء السيرة يقضي اوقاته في مغازلة النساء . وكان مما جاء في كتابه انه لا يمكن ان يربي هذه الاخلاق التي اتصف بها الى نسبي ، وانا الحسن ابا والعمرى اما . ولقد كان لكتابه ذلك ابلغ اثر في نفسي .

ولكن كتاب والدي ، بالرغم مما سببه لي من ألم نفسي وحزن عميق ، قد افادني فائدة كبرى ، اذ عرفني بنسبي الذي كنت اجهله ولم اكن لاعلق يوما ما أهمية على حسب او نسب بل كنت أجلّ العمل العظيم الذي يقوم به اي شخص مهما كان نسبه .

وجاءني صديقي المرحوم سعيد افندي بعد ايام ، فأخبرته بما وقع لي مع والدي فتأثر، ولكنه سرّاً لما جدّ من معلومات عن نسب عائلتي. وزارني في اليوم التالي بصحبة نقيب اشراف الموصل للتعرف اليّ فذكر لي اننا من اشرف العائلات نسباً، واننا من اصل مغربي يتصل نسبنا بقبائل بني عروس ، وإمامها سيدي عبد السلام بن مشيتس المدفون في جبال الريف، والذي غدا قبره مزارا لقبائل المغرب جميعها.

ولمناسبة ذكر كتاب والدي اشير الى كتاب بعثت اليّ به والدي وانا جريح في المستشفى ، وهي التي كانت تبث فيّ حب المكارم وتشجعني وتثير من حماسي. وهي تذكر لي في ذلك الكتاب حماس الشبان الذاهبين الى جبهات الحرب المختلفة، وان والدي بالرغم من كبر سنه قد ذهب الى جبهة ارضروم ، وتتمنى عليّ القيام

بعمل عظيم في ساحة المجد . فبعثت اليها جوابا أخبرتها فيه انني جريح فسي
المستشفى ، وانني سألتحق بالجبهة بعد ابلالي ، فإما ان أجرح ثانية او يقضى
عليّ حبا برضاها .

وكان والدي رحمه الله يفرس في نفسي على الدوام حب بلادي ويرغب اليّ
ان اكون عند مشيئة والدتي مضحيا مغامرا ولكن في سبيل العروبة ولنفعه العرب
وحدهم .



الفصل الثاني

احداث الحرب العالمية الاولى

كانت الحرب البلقانية التي اعلنت بعد اشهر من تخرجي ضابطا ، قد انتهت بسرعة غير منتظرة . وكشفت الستار الذي كان يتوارى وراءه هيكل الامبراطورية العثمانية الهرم ، واضحت استنبول على الأثر مسرحا للفوضى وللدسائس ولتطاحن الاحزاب . غير ان حزب الاتحاد والترقي كان يسير حينئذ الى الزعامة . وتمكن بعد حين من القبض على ناصية الدولة . واخذ رجال الحزب يعملون من جديد لتجديد حياة الدولة مبتدئين بالجيش ، ومستعينين على تحقيق ذلك ببعثات اجنبية . ولم تكد تصل النهضة الى درجة ملموسة حتى اعلنت الحرب العامة واصبح مستقبل الامبراطورية العثمانية كلها تحت رحمة هذه الحرب .

واشتد نشاط الاحزاب السياسية العربية في مختلف الانحاء ، واتصل فريق من رجالها بي من جديد ، واخذوا يعلنون ان الفرصة قد اضحت سائحة لانتفاذ البلاد العربية من العاقبة الوخيمة التي تسير اليها الامبراطورية العثمانية ، وانهم يرغبون في ان لا يشترك العرب في هذه الحرب التي لن تكون في مصلحتهم . ولقد طلب اليّ اخواني ان اقوم بالدعاية المقتضية بين القبائل لبث روح الثورة فيهم . فنزلت عند رغبتهم ، نظرا لما كنت اشعر به من قوة الاتحاديين وغلطتهم وتظاهروهم بالفكرة الطورانية التي اصبحت ظاهرة ملموسة في كل مجتمع من مجتمعاتهم العامة والخاصة .

واخذ منهاج الاتحاديين الخفي ينكشف بإرسالهم الولاة والقواد العسكريين الترك القساة الى الولايات العربية ، مزودين بالصلاحيات للقضاء التام على احرار العرب وعلى الفكرة العربية الآخذة في الانتشار .

وكان من حسن الصدف ، تحقيقا لرغبة اخواني في خروجي الى القبائل

والاتصال برجالها ، ان طرقت بابي يوما عجوز بدوية رغبت مني في السعي لانتقاذ زوجها شيخ قبيلة الدليم من السجن . وكنت لا أعرف من قضية زوجها شيئا ، فوعدها بالسعي الى انتقاذه ، حتى اذا تعذر عليّ ذلك أخرجته من السجن بنفسني فاطمأنت لوعودي .

واتجهت صوب صديقي سعيد افندي ، وكان حينئذ مدعيا عاما في محكمة الاستئناف ، ثم على اثر اعلان النفي العام عين مدعيا عاما في ديوان الحرب العرفي، فرجوته مساعدتي على انتقاذ الرجل . فأمهلني سعيد افندي ريثما يطلع بنفسه على اصابة السجين . وجاءني بعد قليل قائلا ان صاحبك محكوم عليه بالاعدام لانه قام ضد الدولة العلية وقتل جنودا وضابطا ولا يمكنني عمل اي شيء لانتقاذه وان اوراقه قدمت الى الباب العالي للموافقة عليها .

فأسفت لمصير الرجل واخذت افكر فيما سيكون عليه موقفي من المرأة البدوية . وخرجت من تفكيري الى وجوب مقابلة سليمان نظيف بك والي الموصل . رجوته ان يسمح لي بمحادثته ومصارحته في بعض أمور جالت في خاطري تعريزا للامبراطورية العثمانية . فقلت له : مولاي ! ان الجيش الانكليزي زحف بقوة فولاذه وماله على العراق . وقد سبق للدولة ان سحبت القوة الموجودة فيه للدفاع عن ارضروم فنحن هنا ضعفاء قوة ومالا . ومع ذلك كله تقدمون اليوم على اعدام شيوخ العرب الذين هم ورجالهم القوة الوحيدة الباقية التي يعتمد عليها في هذه الجزيرة . فاذا اسأتم الى شيوخ العرب كان ذلك فرصة سانحة للانكليز لاستمالتهم اليهم ، وعندئذ تتهمون العرب بخيانة الدولة في اخرج مواقفها مع ان الامر خلاف ذلك . فبهت الوالي من صراحتي والتفت اليّ قائلا : وما الذي تعنيه ؟ فقلت لقد حكمتكم بالاعدام على الشيخ نرجس العقود شيخ مشايخ قبائل الدليم . وهو ينتظر تنفيذ حكم الاعدام فيه . ولقد جئتمكم الآن راجيا من سعادتكم التوسط لانتقاذ هذا الشيخ ، وبذلك تجعلونه وعشيرته طوع بنانكم ، وتوجهونهم الى اعمال تسدون بها الفراغ الذي أحدثه الجيش ، ولن تلبث سائر العشائر ان تقتدي بهم . اطرق الوالي قليلا ، ثم رفع رأسه قائلا : اني أشكر لك هذه الصراحة ، وأقدر لك شعورك ، واني فاعل ما تقوله الآن .

وبشرت العجوز التي كانت تنتظرني . ولم تمض ساعات حتى وردت برقية من الاستانة بالعفو ، فأسرعت الى السجن حيث اخرجت الشيخ بنفسني . وبذلك أضحى الشيخ مدينا لي بحياته ، كما أمسيت فيما بعد مدينا له ، فوفاني ديننا بدين بانتقاذه حياتي في ابان الثورة السورية سنة ١٩٢٠ كما سأبينه في فصل لاحق.

اشرت على الشيخ نرجس العقود ان يقوم بزيارة الوالي ويشكر له انتقاذه

حياته ، ويسأله مرافقتي له الى قبيلته لاعادة نفوذه اليه . وسنحت لي بذلك الفرصة التي كنت اتحيثها للاتصال برجال القبائل .

كانت الحكومة العثمانية في ذلك الحين قد دخلت الحرب التي اخذ لهابها يلتهم الارض من جهاتها الاربع . كما ان الوهن والضعف كانا ظاهرين في الجبهة العراقية على اثر تقدم الانجليز الى البصرة واحتلالها في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ بسهولة وبدون مقاومة .

انتقل خبر دعاوتي بين قبائل شمر لسلطات الموصل . وكان صديقي سعيد افندي مدعيا عاما ، فما كادت التقارير تصل اليه عن اعمالي حتى اسرع الى اخباري لاتخاذ الحيطة واجتناب الوقوع في ايدي المحكمة العرفية .

وعزمت على الرحيل الى بغداد لمواجهة سليمان قطيف بك الذي كان قد عين واليا عليها . فقطعت الجزيرة فارسا ، حتى اذا وصلت بغداد زرت الوالي وابنت له انني قمت بما يجب من الدعاية بين القبائل لاستمالتهم الى جانب الحكومة ، ولاسيما قبائل الدليم . فشكرني على عملي .

وتقدم الانكليز بعد سقوط البصرة نحو القرنة فاستولوا عليها في ٨ - ٩ كانون الاول ١٩١٤ بعد معركة دامية اسروا فيها القائد صبحي بك ومن كان في معيته بعد حصارهم لها . وعين سليمان عسكري بك لقيادة جيش العراق (كانون الثاني ١٩١٥) ، المؤلف من فوجين وعدد لا بأس به من الضباط المدربين وبعض الوحدات الاخرى . وكنت بعد اسبوع في الصف الاول من الجبهة اقود فصيلا من فرسان الكتيبة في الضفة الغربية من شط العرب . وشرع سليمان عسكري بك في جمع فلول الجيش وتنظيمها ليؤسس منها ، ومما جاء به من القوى ، خطأ دفاعيا جديدا في منطقة الروطة ، وهو قنال يقع شمالي شرقي القرنة . وما كاد يتم سليمان عسكري بك استعداداته وتحكماته حتى قام الانكليز بهجوم عام على الموقع في ٢٠-١-١٩١٥ ودارت ثمة معركة حامية مني الطرفان فيها بخسائر فادحة واسفرت عن ارتداد القوى الانكليزية وفشلها . ولقد جرح سليمان عسكري بك كما جرحنا انا ونقلنا معا الى مستشفى بغداد .

واتصل بي اثناء اقامتي في المستشفى بعض اخواني ، وحدثوني بشيء مما عزم الترك على القيام به للقضاء على احرار العرب على اثر ورود تقارير من اخوانهم العرب في استنبول .

كانت صحتي قد تحسنت قليلا ، فأعزمت الى مراسلي شهاب الدليبي بإعداد جوادي (سوف) ، وكنت احبه كثيرا . وكان شهاب هذا احد افراد قبيلة الدليم

وكان ذكي الفؤاد شجاعا مغامرا يفيض شعورا بالعربية . وقد لازمني حتى نهاية الحرب .

عزمت على الخروج من المستشفى . وكان بعض الاخوان قد عادني سائلا عن وسيلة لا يصل بعض الرسائل الهامة والخطط ذات الشأن الى اخواننا في سورية، فأجبتهم بأنني على استعداد للقيام بهذه المهمة . وقد ذكروا لي ان قسما من الرسائل في الموصل بينما سلموني ما لديهم من رسائل بغداد .

وكان عليّ ان اقنع رئيس اطباء المستشفى بوجوب التحاقني بكتيبي فأذن لي وخرجت من المستشفى . ولكني بدلا من الالتحاق بكتيبي توجهت بصحبة مراسلي شهاب الى الموصل ونحن فارسان . وتسلفت فيها ، حيث اتصلت بالاخوان الذين يجب الاجتماع بهم ومنهم السيد ثابت عبد النور . وتركت الموصل صوب حلب عن طريق رأس العين .

ولقد قطعت المسافة اليها بما يقارب العشرين يوما . فلما وصلت محطة بغداد في حلب في اوائل تموز ١٩١٥ وجدت صديقي الضابط (فرج عمارة) محافظا فيها .

كانت الافكار وقتئذ مضطربة ، والقلق مستحوذا على جميع المفكرين في البلاد، وجمال باشا آخذا وقتئذ بجمع الضباط العرب وسوقهم ، تبعا لخطة مرسومة ، من سورية الى الجبهات النائية في الاناضول وجناق قلعة وغيرهما . وبذا اضحت سورية خالية من الرجال الذين يؤمل منهم خير ، واخذ جمال باشا في الوقت نفسه في حشر الضباط غير العرب في سورية . وقد حصر اهتمامه بالقضاء على الشبيبة العربية وعلى زعماء البلاد الذين كانوا يحملون الفكرة العربية ، وينشرونها بين طبقات الشعب ، فاعتقل احرارهم وحشرهم في سجون (عاليه) في لبنان .

واطلعت صديقي الضابط على خبر ما أحمله من رسائل الى اخواننا فسي سورية ، فصرح لي بأن لجمال باشا جيشا من الجواسيس لا يدعون صغيرة ولا كبيرة الا أحصوها وأوصلوها اليه . وكان صديقي فرج عمارة احد شباب الكرد، الذين يماثل شعورهم شعور العرب بالنسبة الى موقف الاتحاديين . فكان يلح عليّ ، مظهرا قلقه ، بوجوب تمزيق الرسائل التي أحملها ، ولا سيما بعد اطلاعه على عناوين الاشخاص المرسله اليهم . فذكر لي بأن معظم اصحابها معتقلون فسي سجون عاليه ، وان مجيئي من العراق الى سورية على هذه الصورة ، ووجود الرسائل معي كافيين للقضاء عليّ . ولم يلبث ان مزق الرسائل . ولكنني أصررت على الاتصال بأصحابها ، والتحدث اليهم شفويا . واخذت في البحث عن وسيلة

للاتصال بهم . وتمكنت بواسطة احد الاطباء العرب النافذي الكلمة من دخول دار النقاة في صوفر لبراء جرحي .

نزلت صوفر المصيف اللبناني ، بعد تعب أصابني في سفرة قمت بها فارسا من بغداد الى الموصل الى رأس العين فحلب ، ولقد وجدتني بعد وصولي صوفر كأنني نزيل رياض الخلد . اخذت أتجول في هذه القرية الجميلة وما حولها . وما كنت لاجد وقتئذ أثرا فيها للحياة ، اللهم الا أولئك الجنود الترك وضباطهم الذين احتلوا مبانيها الارستقراطية الفخمة ، والتي لعبت ايديهم فيها بعد حين ، فحطمت نوافذها وأبوابها ، وجعلت منها وقودا .

وعبثا حاولت الاتصال برجالنا المعتقلين في عاليه . ولكنني علمت ان فيها شريف بك الحجار احد الضباط العرب على رأس سرية من الخيالة . فأردت ان اتخذ من وجوده في عاليه وسيلة لتحقيق رغبتي . تعرفت الى احد الجنود العرب ، فأفضيت اليه بما في نفسي ، فتطوع للخدمة . ولقد ارسلته بصحبة مراسلي الى شريف بك برسالة متواعدة معه على الاجتماع عند قمة واقعة على منتصف الطريق ما بين صوفر وعاليه ليوافيني بجواب الضابط . وعبثا انتظرتهما في الوقت والمكان المعينين . وانقضى النهار دون ان اقع له على اثر . وجئت الموعد في اليوم التالي فاذا بي ارى الجندي ومراسلي قادمين . فسألت الجندي عما تم له ، فأجابني بأن شريف بك مزق الكتاب ، وطرده ، ثم استحصل على اجازة من أمره ، وتوجه الى بيروت . فأيقنت ان الضابط خشي مغبة عملي ، فأثر الابتعاد عني .



أبت الاقدار الا ان تنشئ علاقة غرام بيني وبين احسدى سيدات بيروت المسيحية ، وكانت أصيبت بحمى التيفوئيد فنزلت صوفر لتمضية دور النقاة في قصرها الجميل الفخم المشرف على وادي حمانا الخلاب . وشاعت اخبار علاقتي بهذه الفتاة ، ولاسيما بين الضباط الترك في معسكر جمال باشا ، الذي اتخذ فندق صوفر الكبير مقرا له . وكان جمال قد جاء الى مقره في صوفر للاشراف على محاكمة احرار العرب الموقوفين في سجون عاليه وبعد أن صمم على القضاء عليهم .

وكان ضباط مقر جمال باشا يعدون انفسهم فوق القانون وفوق الجيش ؛ وكنت تعرفت على هؤلاء الضباط ، ولم نلبث ان توسعت شقة الخلاف بيننا ، وأخذوا يكيدون لي المكائد . وبلغني ذات يوم ان جمال باشا بعث انذارا الى الوحدات الموجودة في لبنان للتأهب لصد فرقة من العدو ، انزلت في ميناء جونيه .

وحفزتني الرغبة في المغامرة والاشتراك في هذه الحملة الى مقابلة جمال باشا ،

ورجوته تعييني في احدى الوحدات للاشتراك في الدفاع عن جونه . وكنت آمل أن أعين ضابطا في سرية الخيالة التي يرأسها الضابط العربي شريف بك الأنف الذكر ، وكانت هذه السرية السرية الوحيدة في عاليه ، وكنت آمل من وراء ذلك أن اتصل باخواني الموقفين فيها . ضحك جمال باشا عند سماعه كلامي ، والتفت بدوره اليّ قائلا : انني أشكرك ايها الشاب ، على ان الذي سمعته عن الانذار انما كان على سبيل الافتراض لمناورة اردت تمرين الجيش عليها . ولكن سوف ارسلك الى ميدان اوسع حيث تظهر فيه مواهبك وقدرتك . ولقد عينتك في الفرقة الخيالة الثالثة في بئر السبع .

جاءني احد ضباط المقر ، الذي وصل الفتور بيني وبينه الى اقصى حدود ، وابتدرني بقوله : ان امر الباشا قد صدر ، والاوراق قد اعدت لسفرك الليلة الى بئر السبع مقر وظيفتك الجديدة . قلت : وكيف يتسنى لي السفر وليس هناك قطار ؟ قال اجل سوف يمر قطار الحطب في الساعة الرابعة بعد الظهر في طريقه الى الشام . وعشنا حاولت ارجاء سفري الى يوم آخر ، وفي قطار غير قطار الحطب ، فأبى عليّ ذلك .

ركبت القطار مرغما . وكانت صديقتي قد لحقت بي الى المحطة لوداعي ، مقسمة لي على انها لاحقة بي في القطار التالي . وانطلق القطار مسرعا نحو دمشق . واخذت الوسائس تساورني ، وبت أخشى على صديقتي من كيد هؤلاء الضباط . وكان من حسن حظي ان لحقت بي في اول قطار الى دمشق ، اتجهنا بعدها معا الى قرية سبستيا القرية الاثرية الواقعة على مقربة من نابلس غربا . وكان نزولي في بيت كان مخصصا لاحد علماء الآثار المنقبين في المدينة .

وبقينا في سبستيا زهاء شهرين ، وكنت في خلالهما غير مكترث بما قد ينتج عن تخلفي من مسئوليات . وسافرنا بعد حين الى القدس ، حيث نزلنا في فندق فاست . وكان الضباط الالمان ينزلون هذا الفندق ، فاختلطت والسيدة بهم كأني احدهم ، لا يعترض سبيلي معترض من رجال الجيش التركي ، ولكن المقام لم يطل بنا ، اذ انكشف امرنا بعد حين ، واوقفت ، ثم اخرجت من القدس الى بئر السبع . وقد تمكنت من اقناع صديقتي بالسفر الى يافا حيث يقيم بعض أقاربها لتنتظر اخباري . وكان هذا آخر عهدي بها .

وصلت في اوائل شهر مايس ١٩١٦ بئر السبع . وكان قد انقضى على هجوم غزة الثاني ما يقارب الخمسة عشر يوما . وكانت فرقة الخيالة التي عينت فيها مرابطة في بئر السبع . كانت بئر السبع منتهى خط الدفاع التركي الممتد من غزة الى بئر السبع شرقا . وكانت الفرقة تترصد في ذلك الوقت حركات خيالة الانكليز من جهة ، وتراقب اعمال القبائل من جهة ثانية . حيث تؤمن جناح الترك الايسر .

ومدينة بئر السبع هوة محاطة من سائر جهاتها — ما عدا شماليتها — بكثبان رمل وصحاري قاحلة غير مسكونة خلا بعض الاماكن التي فيها تكثر الآبار الشحيحة المياه ، والتي ترددها القبائل لسقي مواشيها . وهي معرضة دوما لسف الرمال التي تحجب احيانا سماء القرية ، فتغطي المعسكرات ، حيث تصبح شبيهة بالتلال الرملية المتنقلة التي تكونها الرياح الهوجاء .

وكانت الفرقة الخيالة بقيادة اسعد بك الالباني اخي عزة باشا المشهور . وما كدت اصل المعسكر حتى قدمت للقائد اوراقى فبهت لتأخري طوال هذه المدة عن الالتحاق بمركز فرقته من غير عذر . وبعد محاوراة قصيرة طلب مني ان اصدقته حقيقة ما وقع لي فقصصت عليه قصتي حرفيا منذ نزولي صوفر حتى وصولي اليه ، فبادرني بنصائحه القيّمة ، ثم أخبرني بأنه عينني في مقر الفرقة ، وطلب مني ان ابذل ما بوسعي لاداء واجبي بنشاط واخلص لتلافى ما فرط مني .



كان نشاط الكشف في وحدات الخيالة الانكليزية والتركية قد بلغ أقصى حدوده . وكان ضباط الخيالة يتباهون بأعمالهم المضنية الخطرة عند عودتهم من الكشف ، ويفخرون بها زملاءهم القابعين .

كنت دائما ميالا الى الاشتراك في اعمال الكشف هذه ، لافاخر بدوري زملائي . فاستأذنت يوما قائد الفرقة للخروج الى الكشف فأذن لي . وتقدمت بفصيل من الخيالة للاستكشاف للمرة الاولى . وكنت أجهل حينئذ الاراضي وطريقة الاستكشاف والقتال ايضا . فوقع في كمين أعده لنا العدو ونجوت منه بأعجوبة .

ولكنني عدت أحمل بعض القتلى والجرحى من رجالنا . ولم البث طويلا حتى قمت باستكشافات عدة بعد ذلك ، واتقنت طرق القتال والاستكشاف . وقد اتضح لي بعد الدرس ان أفضل طريقة للاستكشاف هي البيات قبيل الفجر . ولذا كان عليّ أن اتعرف الى الاراضي جيدا ، لكي يتيسر قطع المسافة الى مكمني ليلا . وتمكنت في احدى محاولاتي من مباغطة مفرزة كشف للعدو ، فاجأناها بنيران شديدة على مسافة قريبة من جهة ، وبهجوم عنيف على ظهور الخيل من الجهة الاخرى ، فسقط من رجاله عدد كبير من القتلى اما من حاول الفرار راكبا ، فقد قطعنا عليه طريقه وأسرناه ، ورجعت بعد ذلك الى معسكر بئر السبع مستصحبا من الاسرى ضابطا واثنين عشر فارسا وسبعة جرحى .

وكانت هذه الحادثة اعظم توفيق فازت به مفارز استكشافنا . وقد نلت على

مغامرتي فيها الوسام الحربي العثماني . وبرعت بعد ذلك في اعمال الكشف ، حتى ذاعت شهرتي . وكان من عادة القيادة اذا تطلب الموقف استكشافا خطرا ، او قياما بعمل هام ، ان تدعو الضباط الى التطوع . وكنت اشعر بدافع غريزي يدفعني الى القيام بكل مغامرة خطيرة ؛ اذ كنت لا ارى الذ من العودة من مغامرة كهذه موفقا غانما . وكان النجاح حليفي في كل مغامرة قمت بها . فحزت بذلك على ثقة القائد اسعد بك ، وثقة بقية الضباط ، ووضحت خسائر جنودنا فسي مغامراتي جد قليلة ، كما اني لم اصب بأي جرح في خلال مغامراتي .

وقد مهدت لي الشهرة التي اكتسبتها سبيل الاتصال بالقائد الالماني فون كريس باشا ، الذي اصبح فيما بعد يعتمد عليّ في الاستكشافات البعيدة ، التي تتطلب براعة وجراحة ، وغدوت موضع تقديره . وعين يوما القائد الالماني فون لايزر لتنظيم خطوط المنازل بين بئر السبع والحفير وقلعة النخيل . فرغب الى القائد اسعد بك - بناء على توصية يحملها من فون كريس - ان يعينني مرافقا له ، وتم ذلك . وقد قدمت للقائد الالماني هذا خدمات جلى ، وحزت ثقته التامة . ووضحت بعد مدة قليلة اتقن الالمانية ، التي كنت تلقنت مبادئها وقواعدها في المدرسة الحربية في استنبول . وكان فون لايزر يشجعني كثيرا على اتقانها . وكان اختلاطي به، وبرفاقه الضباط الالمان، اكبر مساعد لي على اتقانها في مدة وجيزة .

بقيت طوال المدة التي قضيتها في جبهة بئر السبع منعزلا عن العالم العربي، جاهلا احوال اخواني العرب ، حتى امسيت لا ادري مقر اي اخ من اخواني العاملين . ولقد وجدتنى بانتقالي الى معيئة فون لايزر متمتعا بحرية ونفوذ عظيمين . فكانت الفرصة سانحة للاتصال باخواني الضباط العرب . فصرت ابحت عنهم ، واسعى في نقلهم الى الوحدات التي اوضحت تحت امرتنا .

وفوجئنا يوما ، وكان قد تم لي نقل فريق كبير منهم الى فرقتنا ، بزيارة جمال باشا لنا في الحفير ، وكان الباشا آتئذ قادما من دمشق على اثر تنفيذه حكم اعدام الحياة بالقافلة الثانية من الشهداء العرب (٦ ايار ١٩١٦) فطلب تفتيش الوحدات ، فأعددنا له كل شيء . تقدم جمال باشا يصحبه فون لايزر ، وانا في صحبته ، الى التفتيش . فأخذ يستعرض الوحدات وحدة وحدة . ويسأل فون لايزر عن بعض التفاصيل . وكان جمال باشا لا يحسن الالمانية ، كما ان فون لايزر لم يكن يحسن التركية ولا الافرنسية، التي يتقنها جمال باشا، فكنت أقوم بالترجمة بينهما . والتفت فون لايزر الى جمال باشا يرجوه الاعتماد عليّ في كل ما اقله له . فانتبه هذا لهذه الملاحظة ، وشكر فون لايزر ، كما شكرني على ثقة القائد الالماني بي . وشرع جمال باشا يسألني عن بعض التفاصيل فكنت اسردها له بصراحة واسهب اثارا دهشته . ثم شرع في سؤالي عن اسماء بعض الضباط الذين مروا من امامه في اثناء العرض ، وعن موطنهم . فكنت كلما مر ضابط عربي

وعرفته به ازداد استغرابا وريبة . فالتفت اليّ والشرر يكاد يتطاير من عينيه سائلا : وانت من اي بلد انت ؟ فقلت له من طرابلس الشام . فهز رأسه ، وقال بالحرف الواحد :

«طرابلس شاملي لر جديق وطن يروز درلر» . اي ان الطرابلسيين جد وطنيين واذكياء (لا توجد في النص التركي هذه الكلمة «اذكياء») وانك لا شك قد لقنت هؤلاء الضباط العرب ، الذين لا أدري كيف تجمعوا في هذه البقعة ، كل ما يجب عليك تلقينهم . فأجبتهم فورا : نعم اني قد لقنتهم كل ما يحتاجون اليه للقيام بواجبهم حق القيام .

ولم أكد اتم جوابي ، حتى أسرع جمال باشا الى مغادرة ميدان العرض ، طالبا مني ان اتبعه . فاتجهنا نحو احدى خيام الصحة الالمانية ، وتبعنا فون لايزر على الاثر دهشا . ولم يكد يستقر بنا المقام في الخيمة ، حتى بادرنسي جمال بالسؤال الآتي (فقط كولكرينه كوكورد صيد دركولجك برو جوق عائله لردر اردر ويلمي ؟) اي ان الطرابلسيين وطيون ولكن بينهم من العائلات ما يجب ان يصب على شرشهم ماء الكبريت اليس كذلك ؟ فأجبتهم : ان مولاي الباشا أدري مني بهذا . على اني ، وان كنت طرابلسيا ، فاني لا اعرف طرابلس جيدا ، لانني خرجت منها منذ طفولتي للدراسة في استنبول ، ولاداء الواجب كضابط .

ثم سألني (شامده ايبه جكنك لريم حقتده نه درسك ؟) اي ما قولك فيمن علقتهم على اعداء المشانق في الشام ؟ فأجبتهم : «لقد عهد بمقدرات البلاد السورية اليكم ، ولا شك في انكم قد قمتم بما أوحاه اليكم ضميركم» . فبدت آثار الغضب في وجه الباشا ، واتفق ان فون لايزر تدخل في الامر ، وسألني عن الموضوع الهام الذي حمل الباشا على مغادرة ميدان العرض قبل انجاز العرض ، ويأتي بي الى هذه الخيمة . فقلت له ان الباشا يباحثني في سياسة سورية . فضرب فون لايزر المنضدة بقبضة يده قائلا (صعقا ورعدا مرة اخرى) اي مناسبة ، ربّاه ، بين تفتيش الوحدات وبين سياسة سورية ؟ وشعر جمال باشا من حركات فون لايزر ان هذا لن يدعه يتمادي معي في بحث السياسة بمثل هذه الحرية ، فعجل في قوله : «انني عملت عملية جراحية في قلب سورية فإما ان يؤدي قلبها عمله كما احب ، وإما ان تقف دقاته الى الابد . وان الاعمال التي قمت بها في صحراء سيناء ستخلد لي ذكرا على مر السنين . وان الماء الذي استنبطته في تلك الصحراء لو استنبط في عهد موسى لما ضل قومه فيها» .

واختتم جمال باشا كلامه بقوله : انه ينوي نقلي الى مقره . فتدخل فون لايزر مرة ثانية ، وبحدة ، سائلا عن موضوع حديثنا ، فاخبرته بأن البحث لا يزال

جاريا حول سياسة سورية العامة . فنهض فون لايزر غاضبا تاركا الخيمة من غير ان يهتم بجمال باشا .

واخذ الشك والقلق يساورني على اثر زيارة جمال باشا هذه . وكان جمال قد غادر سورية مسرعا على اثر تنفيذه حكم اعدام الحياة بأحرار العرب مخافة سوء يلحق به وهو في الشام . فضلا عن ذلك فقد كان يرغب في استطلاع درجة شعور الضباط العرب وعلاقتهم بتلك الحوادث ، وإثارة الحماس واليقظة في نفوس الضباط الترك الذين قد يتأثرون بدعايات الضباط العرب بينهم . وكان وجود ضباط من العرب متجمعين في وحدات يرأسها قائد الماني ، مثيرا لحفيظة جمال باشا وشكوكه . فليس بمستغرب اذن أن يعمد جمال الى اصدار الاوامر لتبديد شمل هؤلاء الضباط ، والتنكيل بمن يشتبه به منهم بشتى الوسائل . وما لبث جمال ان غادرنا الى جبهة اخرى للتفتيش .

وزارني في هذه الاثناء الاخ الدكتور احمد قدري ، وكان عضوا اذ ذاك في جمعية العربية الفتاة . فاخلى بي ، وأسرّ اليّ بأنه يحمل اليّ شيئا من الديناميت ، وهو يطلب مني تخبئته ، ويوصيني بحفظه حتى يوم استعماله . ضحكت في سري وفي علي من هذا التكليف ، لانني كنت حينئذ املك صناديق من الديناميت . اما متى يجب استعمال الديناميت ؟ واين ؟ فقد كان مجهولا لدى اعضاء الجمعية ، والذي أتذكره الآن ان الدكتور احمد قدري هو الذي اخبرني بنشوب الثورة العربية في الحجاز بقيادة الشريف حسين . وكنت طربت لهذا الخبر وقلت في نفسي : لقد اشرق الآن فجر سعادة الامة العربية . وسألت الدكتور عن كيفية الانضمام الى الثورة ، فأوصاني بالصبر ، واعداء إياي بإرسال التعليمات والتفاصيل كافة .

غير اني كنت كلما مرت الايام ، وازداد تماسي بأعضاء الاحزاب ، ضعف املهم فيهم وفي نجاح مقاصدهم ، واخذت الشكوك تساورني في قدرة هؤلاء واخلاصهم للعمل ؛ لانني كنت اعتقد بفساد الاساليب التي درجت عليها الاحزاب الى ذلك الحين . والعمل يتطلب الاقدام والتضحية . وكان اغتيال جمال باشا كافيا لوضع حد للفظائع التي قام بها الترك ضد احرار العرب ولفتح المجال امام المخلصين . واني اعتقد بأن جمعياتنا لو عهدت الى اي رجل من اعضائها ، ولاسيما من كان منهم في صف الضباط ، بالقيام بمهمة الاغتيال هذه ، لما تأخر اكثرهم ، ولاقدموا على هذا العمل بحرارة وفخر .



كنت علمت من اخواني اعضاء الاحزاب ان الامير فيصل اتصل ، لما كان في

دمشق ، ببعض الضباط العرب وقادتهم وان هؤلاء أعربوا له عن استعدادهم للقيام بثورة عربية ، رجحوا اعلانها في سورية نفسها . وكان مما قالوه له انهم لا يحتاجون الى شيء من المال او السلاح ، حتى ولا الى رجال سوى شخصية الامير فيصل . وقد سر الامير فيصل لسماعه قولهم وارصد مبلغا كبيرا من المال لهذه الغاية ، وقرر التوجه على الاثر الى الحجاز لاطلاع والده الشريف حسين على ما وقع له في سورية ، لتوحيد المساعي ، وتقرير ما يجب عمله . ومن المؤسف ان احدا من هؤلاء الضباط لم يلتحق بالثورة العربية عند نشوبها الا من اخذ منهم من الاسر فيما بعد ، او من ترك صفوف الجيش العثماني ليلتحق بالانكليز . وقد ادى التحاق هؤلاء بالعدو الى استحقار الترك للضباط العرب ، وسحب الثقة والسلطة من ايديهم ووضعهم تحت المراقبة . مما ادى الى النفور وفقدان الثقة بين العنصرين طيلة ايام الحرب العامة .

اما الثورة هذه التي طربنا لخبر نشوبها فلم تكن اخبارها تشجعني على الانضمام لها لاسباب عدة . فقد علمت مع الاسف ان الاسطول الانكليزي هو الذي اسقط ثغر جدة بقبائله . كما ان قلعة الطائف قد سقطت ايضا بمدافع انكليزية ارسلت الى الامير عبد الله . وان جنودا انكليزية وفرنسية قد انزلت في ثغور جدة ورابع وينبع والوجه وغيرها من سواحل الحجاز ، وان الاسطول الانكليزي هو الذي يحمي هذه السواحل . كما ان ثغر بور سودان كان القاعدة التي تمد الجيش الشريف بالذخائر والاسلحة ، وان هناك بعض ضباط من الانكليز والفرنسيين يقودون بعض الفصائل الفنية ، وان الطائرات الانكليزية هي التي تستطلع مواقع الترك في المدينة وفي سواها من مدن الحجاز ، وان ضباطا آخرين من الانكليز يقومون بمهمة المستشارين العسكريين فيقدمون الاموال الطائلة ويبدون آرائهم في الخطط وفي توجيه القتال حسبما تتطلبه مصلحة الجيش الانكليزي المحارب في فلسطين ، لا حسبما تتطلبه مصلحة العرب . فكانوا يحولون دون تحقيق هذه الاغراض ، ويقدمون للعرب من الاسلحة والعتاد ما لا يكاد يكفي لمعركة موضعية واحدة . فكانت دفة الجيش العربي وقيادته بأيديهم . فكنا كأننا نجابه جيشا انكليزيا من المستعمرات لا يختلف عن وحدات الجيوش الانكليزية من اوسترالية وكندية ونيوزيلاندية وغيرها .

وصرت أسائل نفسي واقارن بين انتصار الترك وانتصار الانكليز في هذه الحرب . وكان فيما قلته : لنفرض ان الترك انتصروا على أعدائهم الا يقضون على الاشراف في الاراضي المقدسة ويؤسسون لانفسهم فيها ادارة جديدة ، مما يخرج هذه الاماكن نهائيا من ايدي العرب ؟ الا يكون انتقامهم من العرب قطيعا ؟ .

وصرت من الجهة الثانية أحلل انتصار الانكليز على الترك ، وهل يكون في استطاع الجيش العربي في هذه الحالة الحيلولة دون مطامع الانكليز في العراق

وفلسطين ودون مطامع الافرنسيين في سورية ؟ وهل تغضب بريطانيا حليفتها الكبرى فرنسا من اجل هذه الشرذمة العربية ؟ وهل يحسن بنا في مثل هذه الظروف ان نستسلم لوعود وعهود اضطرت بريطانيا الى قطعها للشريف حسين تحت ظروف خاصة ؟ وهي المعروفة بمكرها وخداعها وعدم مراعاتها اي عهد لا يلائم مصلحتها .

ولقد تحقق فيما بعد كل ما ذهبنا اليه في شكوكنا ومخاوفنا . ففي الوقت الذي كانت بريطانيا تعاهد فيه الشريف حسين على تحقيق الامبراطورية العربية، كانت تعاهد الصهيونيين على انشاء وطن قومي لهم في فلسطين ، وتبرم مع الافرنسيين في الوقت عينه اتفاقية سايكس بيكو التي تخصها فيها بسورية . هذه المخاوف والاعتبارات جعلتني أرجح البقاء في صفوف الترك ، وأعتقد انه أهون شرا . وبالرغم من كرهه العظيم للاتراك كنت أبغض وأمقت الحركة الشريفية الانكليزية . وظللت على ذلك حتى سقوط دمشق .

وكنت أعتقد بأنه لو أتيح للترك النصر لكان من السهل على العرب استرجاع شيء من حقوقهم ، ولديهم ضباطهم وجنودهم المسلحون . كما ان فيهم رجالهم المفكرون الذين يمكن معها تأمين غايتهم هذه التي اعتبر تحقيقها من الترك أسهل مع ما لدينا من الوسائل من تحقيقها من أعدائنا الانكليز والفرنسيين ، ونحن عزّل لا نملك شيئاً من السلاح .

وبرغم الضعف الملموس في كفاية الجيوش التركية في الميادين كافة ، كانت ثقتنا بالنصر عظيمة ، وذلك لاعتقادنا بقوة جيوش المانيا الحليفة : فكانت المعارك التي جرت في أواخر عام ١٩١٦ وأوائل عام ١٩١٧ لا تزال تدل دلالة واضحة على قدرة الجيوش الالمانية في الدفاع والهجوم . كما ان مخترعات المانيا الحربية كان لها تأثير عظيم في صلابة معتقدنا بالظفر . ولم يكن لحوادث سقوط بغداد وانكسارات القفقاس ، والانكسارات المتتالية اي وزن في نظرننا ؛ اذ كانت الآمال تتطور تبعا لحركات الجيش الالمني وحده .



تلقى فون لايزر امرا بالسفر الى الاستانة بغية تأليف قوة مختلفة ، وسوقها الى جبهة بئر السبع بقيادته . ففرحت بهذا اعتقادا مني بأنني سوف أرافقه في سفرته . ولكن سروري لم يطل اذ فاجاني امر من القيادة العليا في بئر السبع بالسفر الى بئر السبع للمحاكمة . ولم اكن أعلم موضوع المحاكمة ، ولا سببها . ولكن تأثير حديث جمال باشا الاخير معي كان لا يزال له فعله في نفسي . وما كاد فون لايزر يطلع على الامر حتى غضب ، واعتبر هذا التدبير اهانة له ؛ لانه كان يثق بي كل الثقة وكان قد عهد اليّ بمعظم اعماله ، فكنت فيها لا اكل ولا امل .

وانجز فون لايزر اعماله واستعداداته للسفر وركبنا القطار معا في اليوم المقرر لمحاكمتي . كان القطار الذي ركبناه مؤلفا من شاحنة احتلتناها ، على حين انها كانت معدة لركوب اربعين جنديا . وكان وراءها شاحنات مدثرات بقنابل ذات عيار ضخّم . سار بنا القطار مسرعا تبعا لامر فون لايزر ولما بلغنا قبيل الظهر منتصف الطريق كان القطار يمر بنا في منعطفات خطيرة لا تزال قيد التصليح ، وكان العمال لم ينجزوا بعد املاء بعض جوانبها بالتراب ، وكانوا قد تركوا على الخط بعض المركبات الصغيرة (الديكومتيل) بعد ان رفعوا الاعلام الحمر على مسافات بعيدة عن مكان التصليح . واذا بالسائق يجد نفسه بفتة امام شارة الخطر . ولم يكن لديه من الوقت ما يكفي لاتقاء الكارثة . وكان فون لايزر آنئذ واقفا يتطلع الى الانق للاشراف على مناظر بئر السبع . فننادني ، وما كدت اصل اليه ، حتى رايته يلقي بنفسه الى خارج المركبة . كان القطار لا يزال في سرعته ولمجرد رؤيتي فون لايزر يلقي نفسه من القطار ، وقبل ان افكر في الموضوع ، قفزت في الهواء . وسمعت على الاثر دويا عظيما ، فخلت ان حادثا سيقع ، وان القنابل التي في القطار ستنفجر ، وتجعلنا هباء منثورا . وكان ارتفاع سطح التسوية عن قاعدتها تسعة امتار . وما كدت اصل الارض حتى كانت القاطرة وشاحنتنا منقلبتي الى الجهة المقابلة لجهة سقوطنا ، وسمعنا ثمة انفجارا ثانيا ، وتعالى الدخان . ومن حسن حظنا ان شاحنتي القنابل ظلتا مستويتين على الخط .

لزمّت مكاني برهة ملصقا جسّمي ووجهي بالتراب خوفا من انفجار يقع . حتى اذا تأكدت من السلامة ، قمت اتفقد فون لايزر فوجدته يشكو الما في فخذة . ولم يكن الانفجار الذي سمعناه الا صوت انقلاب القاطرة . اما مراسلي شهاب وسائر الضباط الالمان ومراسليهم فكانوا في داخل المركبة المنقلبة وقد اصيبوا بجروح ورضوض غير خطيرة . وبعد ساعات من الحادث وصلت ترزينة في طريقها الى مكان العمل فلما شاهد رجالها ما حل بنا ، سجلوا الحادثة ونقلونا عليها الى بئر السبع . اما السائق وموظف القطار وكانا في القاطرة فقد قتلا لساعتهما .

وصلنا بئر السبع فذهبت توا الى قائد الموقع ، واخبرته بما حدث لنا في الطريق ، فأوعز اليّ بمواجهته في اليوم التالي . حتى اذا جئته سألته عن اسباب محاكمتي فأجابني بأن الامر جد بسيط . فعدت الى فون لايزر واخبرته بما قاله لي قائد الموقع ، فاطمأن ، ثم طلب مني ان الحق به في القدس في اليوم التالي لاضطراره الى السفر اليها بقطار الليل للمعالجة . وجئت المحكمة في اليوم التالي واذا بدعوى مقامة عليّ اتهم فيها بعدم حمايتي للقانون العثماني من تعدي احد الضباط الالمان ، واخذت قيد الحفظ فأوقفت الى انعقاد جلسة المحاكمة .

فتحقق لديّ عندئذ سوء نية الترك نحوي وصممت على الفرار مهما كلفني الامر .

ومرّ بيئر السبع في اليوم التالي قطار يحمل أخشابا وبعض اللوازم العسكرية في طريقه الى القدس ، فانسلت الى داخله ، وأخفيت نفسي بين الأخشاب . حتى اذا وصل القطار القدس غادرته وذهبت لساعتي الى المستشفى الألماني ، حيث عدت فون لايزر ، وأخبرته بما حدث لي . فغضب غضبا شديدا ، وأخذ يطيبّ خاطري . واني لا ازال أذكر قوله لي (ان أمة تعامل خيرة ضباطها بمثل هذه المعاملة السيئة ليست جديرة بالحياة) . ثم سألتني ان لا أبرح المستشفى الا في صحبته بعد ابلاله ، حيث نذهب معا الى استنبول لعرض امري على انور وطلعت . وايقن فون لايزر ، كما ايقنت انا نفسي ، ان ثمة مؤامرة خبيثة قد دبرها جمال باشا للقضاء عليّ .

شفي فون لايزر بعد ايام ، فخرجنا من المستشفى ، وسافرنا الى استنبول مع فريق من الضباط الالمان ، وكنت معهم كواحد منهم . اجتزنا جبال طوروس وكان الفصل شتاء ، ولم يكن نفق طوروس قد انجز بعد . حتى اذا وصلنا اسطنبول نزلنا في فندق طوقتليان . ومن غريب الصدف اننا لما دخلنا على انور باشا وجدنا جمال باشا عنده ، فبهتنا لهذه الصدفة ، لعلمنا ان جمالا كان لا يزال في سورية . ولم يخف جمال باشا تعجبه لوجودي هنا ، فالتفت اليّ قائلا : وائت هنا ؟ فاضطربت لسؤاله ، ولكنني تجلدت ، وأجبته : نعم ، وقد امرني فون لايزر بمرافقته لمساعدته في التشكيلات الجديدة . ولم يلبث فون لايزر ان انفجر مخاطبا انور باشا بالالمانية التي يجيد التكلم بها كأحد ابنائها ، وشاكيا له اعمال جمال باشا . وكان جمال باشا في اثناء ذلك لا يستطيع اخفاء اضطرابه ، وقد سألتني ان اقبله في الساعة العاشرة من صباح الغد في نزل بينا بالاس حيث كان مقره .

يمّمت شطر الفندق بصحبة فون لايزر ، وكان على موعد مع جمال باشا . وقد اثار دهشتي ما لقيته من جمال باشا من حسن الوفادة ، خلافا للمأمول ، وأخذ يبيّن لنا التشكيلات الجديدة وما يقصد منها . ثم طلب من فون لايزر ان يقدم اليه تقريراً عن احتياجاتنا ، وعما يراه من الاستعدادات الضرورية . غير اني لم اكن لانخدع بمظهر جمال باشا في مقابلتنا تلك ، فأفضيت الى فون لايزر بما يخامر نفسي من الشكوك ، وما يحتمل ان يكنه جمال باشا لكلينا من نوايا سيئة ، ربما قضى على التشكيلات الجديدة بسببها .

اخذنا في الاستعداد ، وتعقيب ما نحتاج اليه في تشكيلاتنا الجديدة من الدوائر المختلفة المليئة بالفوضى والمنهمكة في تأمين احتياجات الجهات المختلفة .

وكانت نتيجة مساعدتنا عدم تأمين حاجياتنا فضلا عن حاجيات الجبهات الأخرى .

كانت وزارة الحربية اشبه شيء بسوق حراج لثركة عظيمة ، كل يتسابق الى الحصول على ما يحتاج اليه منها ، ويلتمس من يعينه على امره . وكانت جبهة جناق قلعة في تلك الايام اهم الجبهات شأنا واكثرها خطرا ، لان موقف الجيش التركي كان يزداد فيها حرجا يوما بعد يوم ، وكان القتال قد بلغ الغاية ، وكانت قوافل الجرحى من الضباط والجند تعادل قوافل النجيدات الذاهبة اليها .

وتمكننا بعد جهود جبارة من اكمال معظم احتياجاتنا ، وسافرنا الى حمص مركز تجمع وحداتنا . وبينما كنا نقوم بتنظيم اعمالنا ، اذا بخطورة الموقف في جبهة غزة - بئر السبع تنجلي لنا عن حاجتنا الماسة الى النجيدات والمعونات . واخذ جمال باشا الذي عاد الى مقره في القدس يمحطنا ببرقيات طالبها سرعة انجاز الاعمال لنتمكن من الوصول الى الجبهة في الوقت المحدد .

وكان فون لايزر قد عهد اليّ - على عادته - بمعظم اعمال الحملة وخص نفسه بالمخابرات واكمال النواقص ، وترك لي امر الاشراف على التدريب والادارة . وكانت سيطرتي وانا ضابط عربي برتبة ملازم اول على قادة من الترك بينهم من هو برتبة مقدم وعقيد غير محتملة لديهم ، لذلك كنت ألحّ على فون لايزر بإعفائي من بعض الشؤون التي لها علاقة مباشرة بهؤلاء الضباط ، فلم يحفل برغبتني .

وفوجئنا صباح يوم ببرقية جمال باشا الى فون لايزر يطلب منه فيها ارسالي الى محكمة دمشق العسكرية . وشعرت بالؤامرة المحاكاة ضدي ، ولفت نظري فون لايزر الى مخاوفي وخطورة المؤامرة . وبعد مخابرات برقية عقيمة مع جمال باشا ، عزم فون لايزر على السفر بنفسه الى القدس لحل المسألة . وأرسل على الاثر برقية الى جمال باشا ينبئه فيها بأن غيابي يسبب توقفا في أعمال الحملة برمتها ، لذلك سيتوجه هو بنفسه اليه للاستيضاح والتفاهم .

دخل فون لايزر على جمال باشا في مقره في الطور ، دون استئذان ، وهو يجرنني بيده . فبادر فون لايزر بالسؤال عن اسباب المحاكمة . فأجابه جمال باشا بأن قواد الوحدات غير مرتاحين الى وجودي بصحبة فون لايزر في ادارة الحملة، وهم يتهمونني بأخطر التهم ، وانه حسما للشكوك اراد ان يحيلني الى المحاكمة . فقال فون لايزر لجمال باشا ان الوقت لا يتسع لسماع أمثال هذه التهم ، وانه هو المسئول عن اعمالنا وتصرفاتي . لذلك هو يرجو الغاء امر محاكمتي لنتمكن من متابعة اعمالنا . فأصرّ جمال باشا على المحاكمة ، ولم يسع فون لايزر الا ان التفت اليّ قائلا : انا ذاهب الآن الى استنبول لحل قضيتك مع انور باشا نفسه، ولوضع

حد لأمثال هذه المحاولات الشاذة ، وخرج مغلقا الباب وراءه بشدة ، وتركني وجها لوجه مع جمال باشا .

التفت جمال باشا اليّ والبرر يكاد يتطاير من عينيه وقال : كان يجب عليك ان تحمي القانون العثماني ! فأجبته بأنني لم أقصر قط في حمايته . ثم اشار اليّ بأن انتظر تعليماته من جوبان ذكي بك . وجاءني جوبان ذكي بك بعد خروجي من لدنه قائلا : ان الباشا يأمرك بالسفر الى دمشق برفقة احد الضباط . وكان جوبان ذكي بك مدير شعبة المعاملات الذاتية وأشد أعداء الضباط العرب . يُمّت دمشق برفقة الضابط ، فسار بي الى أمر الموقع أشرف بك الذي كان صنّعة جمال باشا وأمينه الخاص . فناوله الضابط كتابا لم يكد يتم أشرف بك قراءته حتى التفت اليّ قائلا : موقوف . وأمر من اخذ مني سيفي ، واطبق عليّ في سجن الضباط .

وطلبت في اليوم التالي الى المحكمة العسكرية ، فوجدت نفسي امام تهمة فظيعة خلاصتها انني متصل بالفرنسيين في ارواد . ولم اكن اعرف شيئا عن ارواد . هل هي جزيرة ام مدينة ام امرأة . دافعت عن نفسي ما امكنتي الدفاع لدفع التهمة ، ودامت محاكمتي عشر ليال لان جلساتها لم تكن تعقد الا ليلا على صورة سرية .

وقبل ان تلفظ المحكمة حكمها اذا بقائد الموقع يطلبني اليه ويقول لي : لقد انتهى الامر ، وقد عينت في فرقتك السابقة في بئر السبع ، وعليك ان تسافر اليها بقطار صباح اليوم التالي . وتأكد لي ان نجاتي من السجن ومن المحاكمة كانت بتأثير فون لايزر الذي مضى عليه حتى اليوم خمسة عشر يوما في استنبول . وكان مسعاه هذا المعجزة الوحيدة لانقاذي من برائن جمال باشا .

اخرجت من السجن في صباح اليوم التالي ، وارفقت بأحد رجال الانضباط الى محطة القدم للسفر منها الى جبهة بئر السبع . واتخذت مكانا في احدى عربات القطار المتجه الى القدس ، وكنت ساعتئذ لا احمل درهما في جيبتي ولا شيئا من حاجياتي . وعنت لي وانا في القطار فكرة الاتصال بزواج الدكتور (يان) الضابط البيطري الالماني لاستطلع منها خبر فون لايزر ، ولأسألها اعطائي بعض الحوائج . تريت في مكاني من القطار ، حتى اذا تحرك ، انتصبت واقفا ، ثم انسلت منه الى مركبة ثانية ، ومنها الى بابها ، فنزلت منه قبل ان تشتد سرعة القطار . وتواريت عن الانظار بين المركبات المنتشرة على الخطوط في المحطة . ثم قفرت الى عربة صادفتها فأقلتني الى بيت السيدة الالمانية . وسألتها عما اذا كانت تعلم شيئا عن فون لايزر ؟ فأجابتنني بأنه لا يزال في الآستانة ، وان زوجها تلقى منه كتابا ينبئه فيه بأنه عائد الى سورية قريبا ، ولن يسافر الى المانيا .

وأخبرتني السيدة بأنها عازمة على السفر الى القدس للحاق بزوجها الدكتور . وأخبرتها بأنني انا ايضا عازم على السفر اليها . ثم اتفقنا على السفر سوية . وكانت السيدة لا تعلم من امري شيئا وسألتني الخروج في صحبتها للنزهة . ولم أر بدا من اجابة سؤالها ، فركبنا عربة ، واتخذ مراسلها مكانه بقرب السائق . فكان وجوده معنا خير ستار أتواري وراءه عن انظار المارة . وانطلقت الحيلة على كل من رآنا ، فكانوا يظنون ان الضابط الجالس بقرب السيدة الماني . وكان البعض يؤدي التحية لي . ومن سوء الصدف ان مر بنا رئيس اركان الجيش في دمشق آنئذ ، سعيد سعدي بك وكاد يؤدي التحية للضابط الالماني الذي داخل العربة . وكانت دهشته عظيمة حينما اتضح له ان ذلك الضابط لم يكن سواي . وهو الذي ارسل خبرا للقيادة بسفري الى بئر السبع . وشعرت بأن مصيبة ستحل بي من جديد ، فرجوت السيدة ان نذهب معا الى نادي الضباط الالمان ، فوافقت على ذلك ، وأمضينا فيه وقتا غير قصير . واعددنا في الصباح ما نحتاج اليه من لسوازم السفر ، واتجهنا نحو المحطة في آخر لحظة من ميعاد سفر القطار . وصلنا القدس حيث أمضيت ليلتي . ثم تابعت سفري في اليوم التالي الى مقر فرقتي في بئر السبع . وتقدمت ثانية الى قائد فرقتي اسعد بك ، وقد فرح بقدومي كثيرا ، وأعادني الى مركزي في الفرقة .

كانت حالة الجبهة عند قدومي سيئة للغاية . الجنود لا يكادون يملأون خنادقها ، والاحتياط مفقود والارزاق والتجهيزات في نقص ، والمعنويات في منتهى الضعف . على حين ان الحالة في الجبهة الانكليزية كانت على نقىض ذلك .

وأخذ النشاط الحربي يزداد يوما فيوما ، حتى كان لا يمر يوم من دون حوادث . وتبين لنا من الاخبار التي تلقيناها من مختلف المصادر ، أن الهجوم الانكليزي المنتظر بات قريبا . وكان القائد العام في الجبهة الانكليزية قد استبدل بالجنرال اللنبي . وذلك على اثر فشل القائد الاول في معركة غزة الثانية . وكانت اخبار نشاط الجنرال اللنبي واستعداده ، والمعدات والتجندات التي اخذت ترد اليه استعدادا للمعركة المقبلة قد عمّت جبهتنا ، وبتنا نعتقد بأنها ستكون الواقعة الحاسمة .

اصبحنا ذات يوم ، فاذا بنا نرى ما يقارب الفرقتين من خيالة العدو تملأ سهول منطقة بئر السبع الجنوبية وحزونها . واخذت مفارز الانكليز تستطلع جبهتنا المحكمة . وكانت مدافعنا الوسيلة الوحيدة التي نملكها لابعاد العدو عنا . ولكن الانكليز بالرغم منها تمكنوا من التقدم الى مسافات قريبة منا . وما كادت مدفعيتنا تصب نيران مدافعها على المفارز المتقدمة حتى شاهدنا عددا كبيرا من العدو يتساقط أمامنا . فظننا لاول وهلة ان هذه الشرذمة لم تكن سوى دورية صغيرة من العدو سقطت أمامنا . فالتفت القائد اسعد بك الى الضباط الذين كانوا بقربه طالبا منهم

متطوعا لاستكشاف مفرزة الكشف الانكليزية هذه . فتردد الضباط ، ولكنني تقدمت من بينهم نحو اسعد بك ، فطلب مني اصطحاب عدد من الجنود لتأدية هذه المهمة . وقال اننا سنكون جد يقظين لحمايتك بمدفعيتنا .

اخذت جنديين فقط ، وانطلقنا على خط معوج نحو القمة التي سقط قتلى العدو فوقها . وما كدنا نتسلق القمة حتى انتصب جنديان من الخيالة الاسترالية وصوبا بندقيتهما علينا . فلم اجد بدا من رفع يديّ اشارة الاستسلام وصحت بأعلى صوتي : «عرب ، عرب» فاطمان الجنديان وظنا انني ضابط عربي فر من الجيش التركي ملتحقا بهم . وكان مثل هذا الحادث مألوفاً مع الاسف في ذلك الحين .

ولما بلغت القمة دهشت لرؤيتي كتيبة كاملة قد توارت وراء خيولها . وانطلق الجنديان امامنا يبشران ضباطهم بالغنيمة . غير اني لم أمهلها ورفيقي ، فادرنا اعنة خيولنا وانطلقنا منصبين من اعلى القمة الى اسفلها . وكان رجال مدفعيتنا قد ظنوا اننا استسلمنا للعدو ، فآخذوا باطلاق مدافعهم على القمة التي كنت ورفيقي فيها ، لتودي بعدونا وبنا على السواء . وكان هذا القذف من حسن حظنا لانه صدّ عنا حيناً نيران العدو . وابتعدت عن الخطر بانسلالي في الوديان بصحبة رفيقيّ . واخذت نيران عدونا تنصب بغزارة وسرعة وبارتباك ، وظللنا في غارتنا هذه حتى وصلنا استحكاماتنا التي تبعد عن القمة التي يحتلها العدو زهاء ثلاثة كيلومترات .

وصلنا قمة الترسد التي تجمهر فيها ضباط الفرقة مع القائد اسعد بك . وما كدت أصل اليهم حتى علا الهتاف من كل صوب . ثم اخذت احدهم بما رايت ، وحددت لهم أماكن العدو ، فسددت نيران مدفعيتنا على كمائن العدو التي عينتها ، فأصابت الاهداف ومني العدو بخسارة عظيمة . وشاهدنا على الاثر فلوله منهزمة في الوديان . وظلت بعض كتائبه في مراكز ترصدها ، حتى اذا جن الليل انسحبت الى معسكراتها .

كان الانكليز قد أتموا حشد قواتهم بقيادة الجنرال اللنبي . وكانت هذه القوات تفوق قواتنا بعددها وعددها كما أسلفت . وكانت قد أتمت استعداداتها على ضوء اختبارات الهجومين السابقين على خط غزة - بشر السبع . ولم تمض ايام على استطلاعهم الاخير الذي قاموا به ، حتى بدأ هجومهم المنتظر ، الذي انخدعت قيادتنا بهدفه الحقيقي ، اذ كانت تصرّ على ان الهجوم يكون على مدينة غزة كما حدث في الهجومين السابقين ، وانه لن يجري امام بشر السبع سوى تظاهرة عسكرية فقط . وقد تظاهر الجنرال اللنبي بحشد قواته الكثيفة امام غزة ، وظهر الاسطول الانكليزي في الوقت عينه في بحر غزة ، فانخدعت قيادتنا بذلك ،

واذا بالانكليز يقومون في صباح ٣١ تشرين الاول ١٩١٧ بهجومهم العنيف على
تحكيمات بئر السبع بشدة لم يسبق لها مثيل ، وما أن انتصف النهار حتى سقطت
خنادقنا جميعها وهي ملاءى بجثث الشهداء ، واضطرت فرقنا الى الانسحاب على
الامر الى التلال الواقعة شمالي بئر السبع . واخذت الخيالة الانكليزية المجهزة
بالمدفعية الخفيفة تحيط بالتلال ، وتهاجمها ، وأوشكت خيالة العدو ان تحول دون
اتصال مقر قيادتنا في تلول خشم اليتير بقواتنا المحتلة للتلال الشمالية . فكان لا
بد للقيادة من ارسال من يعتمد عليه في هذه اللحظة لايصال الاوامر الى هذه القوى
المحاطة بالعدو . وكان النظام قد اختل ، فلم ار بدا من ان اتقدم لانقاذ الموقف .
طلبت من اسعد بك ان يأذن لي بالتقدم لانقاذ الموقف ، فأبدى خوفه على مصريي .
وانطلقت وحدي . وكانت ثمة مسابقة طريفة بيني وبين خيالة العدو ، التي بذلت
ما بوسعها للقبض عليّ ، غير اني وصلت الوحدة ، ولكن تحت وابسل من قنابل
العدو ورشاشاته . وتمكنت من ابلاغ الاوامر الى قائدها، وطلبت منه ارسال مفارز
من رجاله لاحتلال القمم الواقعة وراءه تأمينا لانسحابه . وعدت الى مقر فرقتي
الذي اخذ في التنقل والانسحاب شيئا فشيئا . وكانت الخيالة الانكليزية من
ورائي تطاردني ، وكانت بعض طلقات من مسدساتهم تقع بالقرب مني ، وامتلكني
الخوف على فرسي من ان يصيبها ما يعيقها عن متابعة انطلاقها ، فيقضى بذلك
عليّ القضاء المبرم . وكان فريق من خيالة العدو تباريني في غارتي ، وتفوق
اخيرا في هذه الحادثة الدم العربي الذي يجري في عروق فرسي العربية على الخيل
الاوسترالية الضخمة . وصادفت مجرى سيل عريض عميق في اثناء غارتي ،
ولم يكن في مقدوري اتقاء الخطر بضبط فرسي السرعة فضغطت عليها صارخا بها
لكي تقفز المجرى بسلامة ، ففعلت ، ولكنها وقعت على الطرف الآخر من المجرى،
ووقعت من فوقها ، فنهضت حتى اذا فحصدت فرسي وجدها بدون حراك . وقد
يكون موتها قد نشأ عن عطل في احد اعضائها الرئيسية او انفجار في احد
شرايينها . تركت الفرس مكانها ، واسرعت الخطى متسللا في منعطفات الوادي ،
حيث تواريت بعد حين عن انظار العدو المطارد . وسمعت بعد حين طلقات ، فتأكد
عندي ان خيالة العدو وصلت حيث وقعت فرسي ، حتى اذا وجدوها في حالة
نزع قضا عليها بطلق ناري فأردوها . ولم يقدم احد من اللاحقين بي على عبور
ذلك المجرى الخطر . وبقيت مختبئا في احد الوديان حتى غروب الشمس ، حيث
اتجهت باحثا عن مقر الفرقة الجديد الذي كنت أجهله ، وظللت في بحثي هذا حتى
قبيل الفجر ، وما دلني عليه الا اصوات بعض الجنود المتصاعدة . فتقدمت نحوهم
وتلقاني أسعد بك بفرح زائد . كان المقر قد تاه في اثناء انسحابه من تلول خشم
اليتير . فاقترحت على القائد اسعد بك ان نظل في اماكننا حتى انبثاق الفجر ،
حيث نتجه الى هدفنا على بصيرة . وظللنا في مكاننا حتى الصباح ، حيث تداركت
فرسا آخر ، وتابعنا بعد ذلك القتال والانسحاب .

سادت الجبهة التركية فوضى لا حد لها ، على اثر المعارك العنيفة التي نشبت

فيما بعد على طول الجبهة . ووقعت في بعض الاماكن ملاحم بالحراب ومجازر بشرية لا توصف ، فقد الجيش التركي فيها نظامه ، واضاع وسائل نقله الضعيفة ، ومعظم معداته وعتاده ، ولاسيما عتاد المدافع ، فتضاءلت قوته ، وبرغم كل ما اصابه استطاعت شراذمه التي نجت من القتل او الاسر ان تقاوم بشدة واستبسال ، ثم تراجعت بعد صراع دام زهاء اسبوعين . ثم انشأت جبهة تركية جديدة . وبذلك طويت صفحة ثانية من اروع صفحات الحرب في جبهة فلسطين . وانتهت المعارك الدامية التي نشبت للاستيلاء على خط بئر السبع - غزة ، ومعارك التراجع في مرتفعات جبل ابي حذف وجبال خشم اليتير التي كان الجنرال اللنبي يرمي من ورائها الى تطويل جبهة بئر السبع - غزة والقضاء على الجيش التركي فيها ، كيما تفتح امامه ابواب دمشق وحلب . وكان انهيار جبهة غزة انهيارا لركن عظيم من صرح الامبراطورية العثمانية . وقد اصبح لهذه الجبهة الحيوية اهمية كبرى في نظر ساسة بريطانيا .

على ان الجنرال اللنبي الذي تمكن من قهر الجيش التركي ، قد فشل في الدور الثاني من هجومه الذي رمى من ورائه الى الاستيلاء على جبال ابي حذف الخالية ، والتدفق منها الى ما وراء الجيش التركي للقضاء عليه القضاء المبرم . ويرجع الفضل في فشله هذا الى التضحيات الكبرى التي قامت بها فرقة خيالتنا ، والى وحدات المشاة التي الحقت بها ، وقد تمكن الجيش التركي من الافلات بأجزاء كبيرة من ايدي القوى الانكليزية التي منيت بخسائر فادحة .

كان تراجع الجيش التركي على طول الخط ، وكانت مقاومته في انفساء انسحابه ضئيلة في بعض الاماكن ، ودامية عنيفة في اماكن اخرى . وكان يرمي من وراء تراجعه الى الاستقرار في خط تكون منطقة القدس من ضمنه ، بينما كان الانكليز يحاولون ابعاد الترك الى شمالي القدس . ولذا كانت منطقة القدس شمالا وجنوبا مدار معارك دامية جدا . واستمرت المعارك التي كونت ذبول الهجوم على خط غزة - بئر السبع زهاء شهرين متتابعين .

وصلنا القدس والانكليز في اثرنا . وكانت قيادتنا العامة قد أعدت فيلقا كاملا للدفاع عن بيت المقدس ، كما ان الانكليز حشدوا قوات عظيمة للاستيلاء عليها قبل حلول السنة الميلادية الجديدة . وتلفت فرقنا امرا بالاحتفاظ بجبهة رام الله ، كما ان فرقا اخرى كانت على محاذاتنا غربا . وما عتمت ان وصلت طلائع الجيش الانكليزي ، واشتد النشاط في القتال المتحرك في اطراف القدس ، ولاسيما حول قرية النبي صموئيل ، التي كان موقعها الممتاز بمثابة مفتاح لجبهة القدس . وانتقلت هذه القرية من يد الى اخرى عدة مرات في خلال ايام قلائل ، ثم استقرت في ايدي الانكليز .

ووصلتنا أوامر القيادة بانقاذها من يد الانكليز مهما كلفنا الامر من تضحيات، بعد ان خصصت لها وحدات كثيرة من الافواج الالمانية التي كانت تحت امره الكولونيل فرانكتبرغ . وكان على فرقتنا ان تسند هجوم الالمان عليها . ولذا عينت ضابطا للارتباط بين القوى الالمانية المهاجمة وبين فرقتنا . وطلب الكولونيل فرانكتبرغ اليّ ان اعمل ما بوسعي لحمل اكبر عدد من البطاريات التركية المجاورة لنا على الاشتراك في هذا الهجوم المنتظر ، والذي عينت الساعة الخامسة مساء موعدا له . وسألت الكولونيل السماح لي بالاشتراك في هذا الهجوم ، عسى ان افيده وذلك باستلامي السرية الالمانية المرتبطة بفرقتنا والاشتراك مع جناح قوتنا الايسر .

وبدا هجومنا بقصف مؤثر . وما ان اتمت مدفيعتنا تمهيداتها حتى اندفعت المشاة بقوة تحت وابل من نيران العدو نحو الخط الانكليزي . وبعد قتال قصير دخلنا القرية ، وطردها الانكليز من اطرافها - ولكننا وقد اقبل المساء - لم نتمكن من اخراجهم منها بالرة ، فظل قسم من القرية في ايدينا والقسم الآخر في ايدي العدو . وكانت مواقع الخصمين متقاربة جدا ، بحيث لا يحجز بينهما سوى خرائب القرية مما اضطرنا الى عدم استعمال الاسلاك الشائكة .

وقدم الكولونيل فرانكتبرغ على الاثر تقريراً بنتيجة المعركة مقترحاً فيه على القيادة الانسحاب تحت جنح الليل ، قبل ان يتم للانكليز اكمال نجداتهم ، فيتعذر علينا حينئذ الانسحاب . غير انه تبين لي ان التقدم نحو الخط الانكليزي من ناحيتنا والاستيلاء عليه من الامور الممكنة . وارادت ان اجرب حظي هذه المرة بمغامرة ، قد ترفع شأنني او تقضي عليّ . فانسللت من الخط ووجهتي مقرر الكولونيل فرانكتبرغ . وبسطة له فكرتي في كيفية انقاذ الموقف . فلم يبال برأيي بادىء ذي بدء . وبعد الحاج اقتنع به ووافق عليه . فسألته ان يضم الى السرية الالمانية الاولى سرية اخرى ، ثم عقدت جلسة بحضور امار السرايا والضباط ، وشرحت فيها طريقة المباغطة المنوية وتفصيلها ، وحددت لهم الساعة الواحدة بعد منتصف ليل ٦ كانون الاول ١٩١٧ موعدا للشروع في العمل .

ثم اوعزت الى الجنود تخفيف احمالهم والاكتفاء بالعتاد والقنابل اليدوية . حتى اذا حان الموعد ، اوقظوا من نومهم وقدم لهم الشاي الممزوج بالروم . ثم امرتهم بالتقدم بحذر شديد صوب منازل الانكليز تبعا للخطة المرسومة . كان السكون مخيما والهدوء شاملا . ولما صرنا على بعد عدة امتار من العدو قذفنا قنابلنا اليدوية فمزق دويها السكون حتى اذا فرغ ما لدينا منها انقضضنا كالصواعق على الخطوط الانكليزية وارتفعت اصوات الالمان من كل جانب (هواره) وصحت بدوري للمرة الاولى (هواره) . واخذت الحراب تفعل فعلها في المجزرة . وما هي الا دقائق حتى انهزم من ظل حيا من الانكليز تاركا هذه الناحية من الجبهة

الواقعة على جناح العدو الايمن ، واخذت بعد ذلك بنادقنا ورشاشاتنا الخفيفة تصلي العدو النار الحامية . فلم يكن منه الا ان تراجع على طول الخط مخليا لنا قرية النبي صموئيل التي تقدم اليها جنود الكولونيل فرانكتبرغ على الاثر فاحتلوها .

وهكذا نجحت في تنفيذ خطة المغامرة ، التي انقذت موقف الجنود الالمان من الخطر فيما لو ظلوا في القرية حتى الصباح . ونلت على هذه المغامرة وسام الصليب الحديدي الاول . وتلت ذلك عدة معارك في اليوم التالي كانت في منتهى الشدة ، وذلك على ابواب القدس وفي جبهتنا . واسفرت هذه المعارك عن استرداد الانكليز قرية النبي صموئيل للمرة الاخيرة في ٧ كانون الاول ١٩١٧ ، واستيلائهم على بيت المقدس في ٨ كانون الاول ١٩١٧ . دخل الجنرال النبي المدينة ، فكان نصره اعظم نصر احرزه الحلفاء في ذلك العام ، كما ان سقوط بيت المقدس كان اعظم حادث سياسي وقع خلاله .

تلت سقوط بيت المقدس معارك دامية متتابة ، انسحب الجيش التركي في خلالها شمالا حتى استقرت جبهته في خط السلط - نابلس - طول كرم البحر المتوسط . وكانت المعارك السابقة قد انهكت قوى الفريقين ، حتى اصبحا في حاجة ماسة الى الراحة والاستجمام ، وإعادة التنظيم والاستعداد للامعمال العسكرية المقبلة . وشرعت المعدات والنجندات ترددهما ، كما انها شرعا في تحصين مواقعهما ، وحفر الخنادق ، ووضع الاسلاك الشائكة ، وغير ذلك مما يتطلبه الموقف .



كانت البلاد العربية التي لا تزال تحت سيطرة الترك تعاني اشد حالات البؤس والشقاء . وعلاوة على ما قام به جمال باشا من ارهاق وعسف وتقتيل وتشريد ، كانت المجاعة المدبرة قد استحكمت حلقاتها في طبقات الامة العربية كافة . وكان اثر ذلك ظاهرا في لبنان ودمشق وأطراف الموصل اكثر منه في الاقطار الاخرى . ولقد ادت قسوة رجال الادارة والامن بالاهلين الى اختفاء معظم الرجال في المدن والقرى والصحاري . ولعبت الرشوة دورها المخيف ، حتى اصبحت اموال الناس عرضة للنهب ، ولم يعد احد يأمن على ما لديه من مال او متاع . ولم تلبث ايدي الطفاة ان امتدت الى هذه الاموال والامتعة .

وكان الموت يحل في كل بقعة من البلاد بشتى الوسائل ، حتى اصبحت هذه البلاد العربية الزاهرة مقابر للأحياء ، لا صوت يرتفع فيها ولا حركة . ولم يعد الناس يهتمون بأخبار الحرب او بنتائجها ، بل كان هم كل فرد منهم ان يحصل على قوت ساعته ، فضلا عن يومه . ولم يعد في استطاعة احد معرفة مستودعات

الاعاشة والارزاق التي تجيء اليها محصولات البلاد . ولم تكن الجبهة احسن حالا مما ورائها . بل كان الجوع مخيما عليها بكاملها . فكان النقص في الملابس والالوانم والعتاد شاملا ، مما أدى الى تكاثر حوادث الفرار من الجيش . ولم يعد لدى الترك من القوة الاحتياطية ما يكفي لسد ثغرات الجبهة ، فضلا عما يحتاجون اليه وراءها . ومع هذا كله فقد ظلت الآمال معقودة على قوة الجيش الألماني . وانتعشت هذه الآمال بانهيار روسيا ، وبفشل هجمات الحلفاء العظمى على ألمانيا .

وكنّا على اثر انكسار روسيا على يقين من انتصار ألمانيا . كما اننا املنا بورود نجدات قوية لجبهاتنا في فلسطين والعراق يتحسن على اثرها موقفنا وتمكننا من استرداد ما فقدناه من الاراضي . ولكننا لم نكد نسمع بسقوط روسيا في الحرب حتى اخذت الجيوش تتسابق على نهب القفقاس ومناجم البترول في باكو ، مهملين بذلك امر الجبهات المهددة بالسقوط . ولم يكتف المسؤولون بعدم ارسال النجدات فحسب بل اخذوا في سحب قوات من الجبهتين العراقية والفلسطينية بصفة التوغل في القفقاس ، مما زاد الموقف حرجا وخطورة حتى سقطت الدولة العثمانية .

عينت منطقة بروفين الواقعة جنوبي غربي مدينة نابلس مقرا لفرقتنا . وبدأت الاستعدادات واكمال النواقص في المعدات والجنود ، ولكن ببطء شديد . وظل النقص ملازمنا في القوى الاحتياطية والعتاد والاعاشة والتجهيزات حتى نهاية الحرب العامة .

وبدئنا بانشاء الحصون في هذا الخط الجديد ، وبتعبئة الرشاشات والمدافع فيه . وبدأت اعمال الاستطلاع من جديد . وكانت حركات الانكليز ازاء منطقتنا غامضة للغاية . وبالرغم من وسائل الاستخبارات التي لدينا ، والنشاط الذي ابداه الطيارون الالمان في اعمال الكشف لم تتمكن القيادة العامة من معرفة ما يقوم به العدو من استعدادات في هذه الجبهة . واخذ القائد ليمان فون ساندرس يلح على فرقتنا في وجوب ازالة الغموض . فتقدمت كمادتي اليه متطوعا لازالة ذلك الغموض ، وانتخبْتُ بضعة نفر من الجنود وسرنا ليلا نحو خط الانكليز الامامي حيث باغت مخافهم بغية تنبيههم الى هذه الناحية وتضليلهم عن النقطة البعيدة التي اخترتها للانسلال وراء خطهم . فنجحت فكرتي وتمكنت من الكمون على قمة مكسوة بالشجيرات والادغال . وظللت قابعا في مكمني حتى منتصف الليل حيث اترصد العدو بمنظار كنت استصحبته . فتثبتت من مراكز العدو ومن قواه وكيفية توزيعها . ثم قررت التوغل في الليلة التالية في منطقة العدو عينها . ولما خيم الظلام تقدمت نحو القوى الانكليزية متخللا صفوفها في وديان كنت كشفتها نهارا . حتى اذا أصبح الصباح كنت متوسطا تلك القوى وقد صرفت نهاري بطوله في سفح تسترّت بأدغاله مترصدا العدو ومراقبا ما يجريه حولي من اعمال التحصين وفتح

الطرق وتثبيت مدفعيته الثقيلة والخفيفة ، وغير ذلك مما كانت القيادة العامة تجهله وتتوق لمعرفة .

ولما أُرخي الليل سدوله انسللت قافلا الى المقر ، بعد ان قطع القائد الامل من عودتي اليه ، واعتقد ان الانكليز قد اسروني لطيشي وتهوري في اعمالسي الاستكشافية التي استغرقت ثلاث ليالٍ ونهارين . وبعث القائد من فوره تقريراً بأعمال كسفي الى القيادة العامة ، التي شكّت في صدق ما احتواه التقرير من حقائق لم يتمكن من الاطلاع عليها حتى أشهر طياري الالمان في خلال استكشافاتهم .

ولم يلبث ليتمان فون ساندرس ، بعد اطلاعه على تلك المعلومات ، ان جاء بنفسه ليستفسر عنها مني ، فحدثته بما رأيت . ولما شعرت بالشك يخامره ، طلبت منه ان يرفقني بمن يعتمد عليه من الضباط الالمان ليشاهد بأمر عينه ما كنت رأيت واستكشفت . فقبل بمقترحي وأوعز الي ضابط الماني بهرافتي . فرجوت ليتمان فون ساندرس ان يضع الضابط تحت امري ، وأن يوصيه بأن لا يعترضني في محاولاتي . وشاء الضابط استصحاب نفر من الجنود الالمان وعبثا حاولت اقناعه بجنديين من جنودنا الترك مخافة ان تفضح كثرة الجنود أعمالنا ، فأبى الضابط الا استصحاب بعض جنوده ، واكتفيت انا بجنديين من فرقتي لمرافقتي . سرنا جميعنا على النمط الذي سبق لي ان سرت عليه في اثناء محاولتي الاولى ، انما بتغيير طرق المباغطة والانسلال . ولما أسفر الصبح كنا نشرف على معسكرات الانكليز . فخال الضابط اننا هالكون ، ورفض المغامرة مكتفياً بما رأى . اخذت أشرح له ما جاء في تقريرتي ، وأشير بيدي الى ما يقع عليه نظرنا من تحصينات العدو ومراكز مدافعه . فأخذ يدون ملاحظاته ويرسم بعض المخططات . وأردنا العودة ، وعينت الطريق التي اخذت اتباعها ، وأوضحته له ان الواجب يقضي علينا بالعودة منها قبل منتصف الليل حيث يكون العدو في طمأنينته . وبالرغم من التعليمات التي يحملها الضابط من وجوب اطاعتي في كل ما اقله وأصنعه رفض الانقياد الى مقترحاتي ، مفضلاً السير بعد منتصف الليل . ولكننا لم نتمكن من قطع المسافة الا بعد انبثاق الفجر ، وتنبهت المخافر لوجودنا في منطقتها ، فقذفتنا بنيران حامية . وما كدنا نبتعد قليلاً حتى بزغت الشمس ، وأصبحنا معرضين لنيران العدو من كل جانب فاضطرونا حينئذ الى الدفاع عن انفسنا . كما ان فرقتنا وفرقة المشاة المجاورة لنا استيقظتا على اصوات نيران البنادق . واخذتا بدورهما بتعزيز الخطوط الامامية بينما كنا نحن نتابع انسحابنا نحو مقر فرقتنا . ولم تلبث تلك المناوشة البسيطة ان تحولت الى معركة كبرى . وكان احتدام المعركة وتقدم وحدات من فرقتنا الى الامام سبباً في انقاذنا من ذاك المأزق . ولم نتمكن من الوصول الى مقر فرقتنا حتى آخر النهار ، حيث وجدنا ليتمان فون ساندرس في انتظارنا . وسألني عن اسباب هذه المعركة غير المتوقعة فأخبرته بما حدث . ولم يسع ليتمان فون ساندرس الا لوم الضابط الالمانسي على مخالفته

اوامري . ثم سأله عما شاهده فأكد له كل ما جاء في تقريرى فاستعظم ليمن فون ساندرس مغامرتي ، وشكرني واعدا اياي بوسام النسر الاحمر . واخذ اخواني الضباط على الاثر يعتقدون بحصانتي من الموت .

ومن غرائب الصدف ان احد الضباط الانكليز قام في احد الايام باستطلاع مماثل لاستطلاعي ، وتمكن من التغلغل بين صفوفنا مستصحا ما يقارب الاربعين جنديا وضابطا مدفعيا . وكنوا في احد الوديان القريبة من مقرنا . وشاءت الصدف ان اقترح على القائد اسعد بك في اليوم عينه ان يقوم بجولة تفتيشية في خطوطنا ونقاطنا الامامية . فلما وافق على مقترحي سرنا مع عشرة اشخاص ، اربعة منهم مسلحون . واطلنا في الساعة العاشرة على احد الوديان ، فشاهدنا فريقا من الانكليز جلوسا كأنهم في معسكراتهم وهم يأكلون البرتقال . فدهشنا ودهشنا لهذه المصادفة . ولم البث ان تقدمت الى القائد اسعد بك راغبا منه ومن بقية الضباط سرعة الانتشار آمرا الجنود الاربعة المسلحين بالحقاق بي وانطلقنا غائرين . وتقدمت من الانكليز وانا اصيح بهم طالبا التسليم . وكنت لا ازال بعيدا عنهم ، فاذا بي اراهم ينتصبون على اقدامهم ، فيفرغون ما في بنادقهم من العتاد، ويرمون بها الى الارض رافعين ايديهم اشارة الى التسليم . ولما وصلت اليهم امرتهم بالابتعاد حالا عن بنادقهم ، ثم اوعزت اليهم بتسليق القمة وانا من وراءهم حتى اذا وصلوها دهشوا لقلة عدد رجالنا العزل . وكان اسعد بك في اثناء غارتي على هؤلاء قد استنفر مركزا من مراكزنا القريبة ، واذا بفصائل منا بعد حين تتقدم نحونا مسرعة فأحاطت بالاسرى وقادتهم الى المقر . واخذ المدفعي الاسير يصيح ويشتم اخوانه لوقوعه معهم في هذا الشرك وعلى تلك الصورة . وكان لهذا الفوز تأثير عميق في نفوس رجال فرقنا والفرق الاخرى المجاورة .

ونظرا الى وعورة الارض انتقلت فرقنا بعد ايام الى جهة اخرى عينت في منطقة غور بيسان لتقوم على حفظ الارتباط بين الجيشين السابع النازل في منطقة نابلس والرابع النازل في منطقة السلط . وكانت منطقتنا الجديدة منخفضة عن سطح البحر بما يقارب المائتي متر ، وهي مليئة بالادغال والاحراج المهجورة التي تكثر فيها الحشرات السامة وتكاد حرارتها لا تطاق . كان على الضفة الغربية من الغور قمة تدعى بالمصلبة ، وهي مشرفة على الجبهتين في آن واحد . وكان كل فريق من المتحاربين يرغب في احتلالها . فكانت القمة تنتقل من يد الى اخرى واستقرت اخيرا في يد الانكليز . وقررت قيادتنا الاستيلاء عليها ، وخصصت لهذه المحاولة وحدات كبيرة ومن جملتها فرقنا .

بدا تعرضنا في صباح ١١ نيسان ١٩١٨ بمفاجأة ، ولكنه لم يلبث ان فشل بتأثير نيران مدفعية العدو الهائلة ورشاشاته . واخذت النجندات الاحتياطية تتوارد على الجبهتين ، واحتدم القتال . وكانت أقصى نقطة وصلتها جنودنا السفسح

الشمالي من القمة ولكن القمة نفسها وسفحها الجنوبي ظلا بيد الانكليز . فأرسل
الينا أمر المقدمة يخبرنا باحتلال رجاله لها . وللتحقق من صحة الخبر طلبت من
القائد أن يسمح لي بالاستطلاع بنفسي .

تقدمت نحو الخط الامامي فوجدت اننا لا نزال بعيدين عن القمة . وكان أمر
القوات وراء خطنا الامامي ، فرجعت اليه وبينت له حقيقة الوضع . وكان
استغرابي شديدا حينما قال لي ان الجنود الذين يحتلون القمة هم جنودنا وان
العدو في السفح الجنوبي منها . ودفعني حب الاستطلاع الى التحقق من الامر ،
فتقدمت ولم يكن بين جنودنا في الخط الامامي من يظن ان القمة بيد قواتنا ، بل
كانوا مجمعين على انها بيد العدو . فطلبت حالا من الخط الامامي متطوعين لاحتلال
القمة التي ملئت بأجسام شهدائنا . فتطوع عدد وافر من الجنود .

او عزت الى هؤلاء المتطوعين بوضع الحراب في بنادقهم وبعد ما لديهم من
القنابل اليدوية ففعلوا . وشرعنا بالزحف على بطوننا بحذر شديد . وكان الاتفاق
قد تم بيننا على ان نزحف الى ان يقذفنا العدو بناره فنقفه حينئذ بقنابلنا ثم
نتقدم اليه بحرابنا . وتقدمت في الطليعة الى ان حاذينا خنادق العدو . فأطلق
العدو الطلقة الاولى على جناحنا الايمن ، فكانت كأنها اصابت مستودعا من
الديناميت فانفجر لاننا قدفنا دفعة واحدة ما بأيدينا من قنابل اليد ، ثم وثبنا
وثبة رجل واحد بالحراب ، واصواتنا تدوي في الفضاء : الله ، الله ! وما هي الا
لحظات حتى كانت حرابنا تعمل عملها في العدو الصامد لنا في خنادقه . وانهزم
من سلم منه ، وعقبناه نيران حامية ، وتم استيلاؤنا على القمة من غير ان ننتظر
امرا من القيادة التي انما اوفدتنا للاستطلاع ولم يكن العدو يتوقع هجوما
جديدا منا .

غير ان الانكليز الذين اعدوا العدة لاكتساح جبهة فلسطين بكاملها ، لم يغمض
لهم جفن تلك الليلة . حتى اذا أصبح الصباح قاموا بهجوم عظيم تسنده قوات
عظمية من المدفعية ، وتمكنوا على اثره من استرجاع القمة من ايدينا ، بعد ان
ظللنا الليل بطوله ننتظر نجدة بلا جدوى . ثم اخذ النشاط يشتد تدريجيا في
هذه المنطقة بعد حين ، وتدفقت في صباح ٢٤-١٩١٨ قوى الانكليز نحو جسر
اريجا قاصدة السلط . ولم يكن أمام هذه القوى في بداية الامر ما يعادلها في
العدد والعدد من قوانا فتقدمت بسهولة حتى وصلت السلط . وتلقينا على الاثر
امرا بالتعرض لقوى الانكليز على جناحهم الايسر . فتقدمت فرقنا بدورها مع
نجدات من المشاة قاطعين سهول العزر الى ان وصلنا جبال السلط وطردنا ما
صادفناه من قوات العدو . وظللنا في مسيرنا حتى ابواب السلط .

وكانت المسافة الطويلة ووعورة الجبال والمعارك التي خضناها ومسير الليل

بطوله قد انهكت من قوى جنودنا . وانتشر قبيل الفجر ضباب كثيف غطى القمم والوديان ، فقررا التريث وإراحة الجنود . وبينما كانت الوحدات تقوم بترتيباتها، اقترحت على القائد اسعد بك ان نقوم بجولة نتأكد معها من سير الترتيبات المقررة . فاصطحب القائد خمسة ضباط كنت احدهم ثم شرع يتنقل بنا في الوديان تارة وعلى الجبال تارة اخرى . وانقشع الضباب فجأة فرأينا جماعة من الجنود على احدى القمم وقوفا يدخنون . ففضب القائد من وضعهم الذي ربما لفت أنظار العدو نحونا ، فتقدم القائد صوب هؤلاء الجنود صارخا بهم ان يتستروا وما كان من هؤلاء الا ان ارتموا الى الارض مسددين رشاشاتهم وبنادقهم صوبنا . وما هي الا لحظات حتى أصيب القائد وثلاثة ضباط انا احدهم ببعض الجروح ، وكانت الارض من حسن حظنا مزروعة بالحنطة فتمكننا من التواري وراءها .

وكانت حقيقة ما حدث لنا اننا ضلنا الطريق ، وقطعنا خطوطنا الامامية من غير ان نشعر . وكان الضباب السبب في ذلك ، وكان علينا ان ننجو بأنفسنا خوف الوقوع في الاسر . وقد ارسلت وحداتنا على اثر اطلاق النار تستطلع سببه . حتى اذا علمت به وانتشر الخبر فيها وفي الوحدات الاخرى بأننا قد أصبنا بجروح ، أسرعوا الى نجدتنا . ونشبت على الاثر معركة حامية الوطيس شعر العدو عندها بأننا لم نكن دورية عادية خرجت للاستكشاف بل فريقا من الضباط . فأخذوا بدورهم يصلون جبهتنا نيرانا حامية . وهكذا سببت جراحنا جراحا كثيرة . وتمكنت وحداتنا بعد معركة دامية من اسكات نيران العدو وانقاذنا . نقل اسعد بك الى المستشفى . اما انا فكان جرحي بسيطا ، وتمكنت بعد بضعة ايام من العودة الى اعمالي في الفرقة . وفشل تعرض العدو للسلط ، فانسحب الى مواضعه متكبدا خسائر فادحة ، وعادت الجبهة الى سابق عهدها .

كانت حالة الجنود الانكليز جيدة . فإعاشتهم موفورة وتجهيزاتهم كاملة ، وقواهم الاحتياطية التي يبدلون بها جنودهم في خطوط القتال لا تحصى . وكانت جنودهم الاحتياطية تلعب لعبة كرة القدم في كل مساء وذلك على مرأى منا . اما نحن فلم يكن لدينا من الاحتياط ما يحل محل جنودنا في الجبهة ، وكانت اعاشتنا على غاية من الرداءة والقلّة ، كما ان تجهيزاتنا كانت من النقص بمكان . وكانت جنودنا تصرف أوقاتها في حفر الخنادق والقتال .

وعنت لي يوما فكرة بعد ان شاهدت احتياط الانكليز يلعبون كرة قدمهم . فاقترحت على القائد ان يأذن لي بمدفعين ومفرزة صغيرة من الجنود ، اتقدم بها ليلا نحو العدو ، حيث اكمل نهاري حتى اذا جاء المساء ، وبدأ العدو في لعبة كرتة ، فاجأته بنيران المدفعين واشتركت معه في لعبة كرة من نار وفولاذ . اعجبت الفكرة قائد فرقتنا ، ولكنه تردد في بادئ الامر ، واخذ يسرد لي ما يمكن ان نتعرض له من الاخطار والمسئوليات فيما اذا خسرنا ذينك المدفعين . فأقنعت

القائد بنجاح محاولتي وفائدة مباغتتي . فوافق اخيرا . وسرت ليلا بالمفرزة الصغيرة والمدفعين من غير ان أخبر احدا بما اقصد . وتمكنا من التقرب الى خطوط العدو الامامية بحذر شديد . فأخفينا المدفعين والبغال تحت الادغال ، واعددنا ما يلزم من ترتيبات للدفاع .

ولما مالت الشمس الى المغيب ، شرع الانكليز في لعبتهم . ولم نر بدا من الاشتراك معهم بدورنا . وكان المدفعان مسددين ادق تسديد فأخذت القنابل تساقط بين أرجلهم فتفجّر ، واصيبوا جميعا بذهول . وشتت الجمع فصوبت القذائف من جديد على الخيام وعلى الخيل ، وكان منظرا رهيبا مضحكا في آن واحد . ولم يكن استغراب قواتنا بهذه المباغته بأقل من استغراب العدو وأخذنا نسرع في قذف القنابل التي لدينا حتى آخر طلقة . ثم اخذنا تحت ستار الليل ننسحب عائدين الى المقر دون ان نصاب بأذى . وكان لهذه المغامرة الفذة اثرها المرح في نفوس رجال المقر والضباط والجنود ايضا . واصبحوا يثقون بي وبآرائي وبأعمالي .

وإزداد نشاط الانكليز ، وكانت تنقلاتهم تجري في كثير من الاحايين بين قطعاتهم خلال النهار . وكانوا يرمون من وراء ذلك تضليل القيادة العامة التركية عن الهدف الذي يسترونه . وحدثت مباغطة منهم ذات ليلة على فيلق عصمت باشا في جبهة نابلس مركز الجيش السابع . وكانت المباغطة هذه من حيث القوى المدفعية التي اشتركت فيها والاصابات التي وقعت وقسوة الهجوم اعظم ما عرف في الحروب حتى الآن . اذ لم يمض دقائق على اطلاق الانكليز مدافعهم حتى تمكنت مشاتهم من الاستيلاء على خنادق الترك ، وتوغلوا في الخنادق ، يقتلون ويأسرون . وفعلت المدفعية مفعولها . ولكن الجيش الانكليزي لم يلبث ان انسحب على الاثر من الخنادق . وكانت هذه المحاولة منه تظاهرة عسكرية لالقات نظير قيادتنا الى قوة مدفعية في هذه الجبهة . وما كان من قيادتنا الا ان جمعت قواتها المدفعية في هذه الجبهة ، بينما كانت مدفعية العدو تنتقل بكاملها الى الجبهة الجديدة التي عزموا الهجوم عليها في طول كرم .

وشعرت القيادة العامة الالمانية بالنفور المتزايد ما بين الجنود الترك والالمان بسبب عدم اشتراك هؤلاء في المعارك الاخيرة التي دارت رحاها في هذه المنطقة من الغور ، والتي أصيب فيها الترك بخسائر فادحة للغاية دون اصابة احد من الجند الالمانى بسوء . اذ سبق للقيادة العامة بسبب رداءة المناخ في الغور ان ارسلت الوحدات الالمانية الى السلط وقتئذ . ومن الصدف ان يقوم الانكليز بهجوم جديد على السلط ١ مايس (أذار) ١٩١٨ عقب وصول القوات الالمانية هذه اليها . وقد أفرزوا في ذات الوقت قوات خاصة للحيلولة دون نجدة قواتنا الخيالة للجيش الرابع المرابط في السلط . وتلقينا الاوامر بسرعة التعرض للانكليز وطردهم للاتصال بقوات

الجيش الرابع . فكانت معارك اليوم اشد المعارك هولاً . ولكن لم يكد النهار ينتصف حتى كنا انتصفنا من اعدائنا ، وتمكنّا من صدهم وطردهم . واضحت القوة التي تغفلت حتى السلط على اثر طردنا لها في خطر من احاطتنا ، فتراجعت بسرعة . وعندما كانت المعركة على وشك الانتهاء اذا بخبر يقول بأن احدى الكتائب الانكليزية دخلت احد الوديان القريبة منا ، فبعثنا على الاثر دوريات عدة للاستطلاع فلم يعثروا لها على اثر . غير انا شاهدا غبارا يرتفع في احد الوديان ، فأخذت للحال سريتين وانطلقت بهما وراء الغبار . وكانت دهشتي عظيمة لرؤيتي سيارات الصليب الاحمر ومفرزة كبيرة من الخيالة ، خلتها خصصت لحماية المفرزة الصحية . فانطلقت اليها دون تردد ، وافترزت فصيلا للحال ليرقى احدى القمم حيث يبادر العدو بناره الى ان تتوسطه بسيوفنا .

وما كاد العدو يرانا حتى انهزمت سياراته وهي لا تلوي على شيء . وحاولت مفرزة خيالة العدو المقاومة . ولكن لم يكن بد امام مفاجأة نيران فصيلنا وهجومنا المباغت ، من ان ينهزم قسم منهم ويقع القسم الآخر مع ضباطه وجرحاه اسرى في ايدينا .

ومن الصدف ان وجدنا صناديق كثيرة من الويسكي والبيرة ومن الارزاق ايضا . وكان الحر شديدا والماء قليلا ، فما كان منا الا ان اطفأنا ظمأنا من البيرة ورخصت للجنود باطفاء ظمأهم . وسقنا الاسرى والخيول وما وجدناه من التجهيزات أمامنا . وكانت اناشيدنا تملأ الفضاء . ووصلنا المقر بعيد الغروب . فألقيت القائد في قلق شديد لتغيبي عن المقر دون مبرر . وزاد حنقه عليّ عندما وجدني اترنج أمامه والجنود . ولكني لم البث ان أوامأت اليه بيدي ان أنظر ما ورأني من الاسرى والغنائم ، فاذا به امام عربة الجنود ومجموعة من الاسرى ، وغنائم الانكليز ، فانقلب غضبه عليّ الى فرح . وقال لي ان مشروبك اليوم حلال . وكانت خسارة الانكليز اليوم من القتلى ٦٠٠ فارس و١١٠٠ مشاة و١٠٠٠ أسير .

كان الانقلاب الروسي هذه الآونة قد تم ، وأمضيت معاهدة برست ليتوفسك وخرجت الامبراطورية نهائيا من صفوف الحلفاء .

فأخذ الجيش الالماني ينقل فيالقه بسرعة من الجبهة الروسية الى الجبهة الغربية . وكان الامل الوحيد الذي يخالج نفوس ضباط جيوش الائتلاف في الهجوم المقبل الذي سوف تقوم به المانيا بعد تحسين جيوشها . وكانت الجبهة الإيطالية قد تحطمت واضحت تعتبر خارج صف القتال . ولم يبق في الميدان سوى جيوش الجبهة الغربية وكان القليل منا من يخامرهم شك في الانتصار النهائي على الحلفاء .

ولكن كثافة جيوش الحلفاء من جهة ، وبنابيع الدخائر والتجهيزات والاحتياط

التي لا ينضب معينها في ممتلكات بريطانيا وفرنسة وأمريكة ، وقلة هذه جميعها في الجانب الألماني جعل نصيب الهجوم الأخير الاخفاق ، بالرغم من البسالة والتضحية والقدرة الفنية التي أظهرها الألمان في أدوار هذا الهجوم ، وتبدلت عقيدتنا بالنصر ، وأصبح الاعتقاد بانكسار الألمان يرسخ في نفوسنا شيئا فشيئا.

بدا تراجع الجيش الألماني في الجبهة الغربية . ولم تكن حالة جبهة فلسطين على ما يرام بالنسبة لما يملكه الإنكليز من قوات ومعدات . ومع هذا فقد كانت قيادتنا العليا في استنبول تفرز من قواتنا في هذه الجبهة لترسلها الى ميدان القفقاس للنهب والسلب ليس الا . فازدادت جبهتنا ضعفا وجاء استسلام بلغاريا الذي فوجئنا به ، بمثابة انهيار احدى دعائم بناء الائتلاف . واضطرت الحكومة العثمانية الى سحب قوات اخرى من جديد من ميدان فلسطين وارسالها لحماية استنبول ، وأمسى حديث الصلح والمهادنة على كل لسان .

وأخذت جيوش الحلفاء الذين لمسوا الضعف والانحلال في ميادين اعدائهم كافة يظهرهم من جديد نشاطا نادرا . وأضحت الجيوش في ميادين القتال كلها تنتظر الساعة الرهيبة . وخيم السكون على الجبهة حيناً . وكانت الحركات الجوية وحدها التي تخل بالسكوت المخيف .

وأصبحنا يوما امام مشهد مريع : ثلاث طائرات المانية محلقة في الفضاء مشتبكة مع ست طائرات انكليزية ، واحتدم قتالها فوق مقر فرقنا ولم تمض لحظات حتى سقطت اولى طائرات العدو ، فانطلقت مع شرذمة وراء الطائرة الساقطة . وما كدنا نصل اليها ، ونلقي القبض على سائقها الضابط ، حتى شاهدنا طائرة المانية تهوي والطائرات الانكليزية الخمس من ورائها تقذفها بوابل من رشاشاتها ذوات العتاد الفوسفوري . وما كادت تلامس الارض حتى قفز طائرهما مبتعدا عن مرمى طائرات العدو ، اذ كان مقصدهم احراق الطائرة الألمانية الساقطة بمن فيها . حتى اذا نفذ عتاد الطائرات الانكليزية انقلبت على أعقابها مولىة شطر الجنوب . وعدنا بالاسير الانكليزي . ولشد ما كانت دهشتي عندما اقتربت من الطائرة الألمانية ، اذ رأيت صديقي الملازم الألماني ، وهو مصاب في يده . فطلب مني ان اقوده الى اول مركز للتلفون . وذكر لي ونحن في الطريق ، خبر سقوط طائرة المانية اخرى بجوار اريحا صباحا ، فخلق هذا الرف المؤلف من الطائرات الثلاث للبحث عنها، فاذا بهم يتصادمون مع تسع طائرات للعدو، ودارت معركة جوية سقطت فيها ثلاث طائرات للعدو وراء الخطوط الانكليزية ، وسقطت الرابعة ضمن حدودنا . وذكر لي ان قائد طائرته قد قتل وهما في الجو ، فاضطر الى قيادتها بنفسه من وراء جثة صديقه ، وانه قد اصيب بكسر في ذراعه الايمن اثناء نزوله بالطائرة ، وتمكن من قيادة الطائرة بيسراه ، وايصال الطائرة سالمة الى الارض.

واتصل الطائر هذا بأمر السرب الألماني في الرملة تلفونيا وأخبره بما وقع لهم،

فأرسلوا للحال طائرة لتصلح العطل ولنقل القتيل . ومن الصدف أن جاء فون لايزر من مقره في السلط الى مقر فرقنا ، وحين موعد الغداء فاجتمع على مائدتنا آمر الفرقة وبعض ضباط المقر وفون لايزر والاسير البريطاني وصديقي الطائر الالماني الجريح . وتدرج الحديث الى ذكر الموقف الحربي الحاضر ، فأجبت ان أدلي برأيي ، فقلت ان الانكليز تنقصهم حقا الكفاءة ، ولو كنت مكان الجنرال اللنبي وأملك ما يملك من القوى والمعدات ، لقمّت بحركة دمرت فيها الجيش التركي بكامله ، وقضيت عليه وأنهيت الحرب مع تركية بسرعة . فتعالت اصوات الضحك من كل مكان . وشاء فون لايزر ان أسترسل في حديثي ، فطلب مني توضيح فكرتي . فازداد الحماس بي ، فقلت آتوني بخارطة . ثم شرعت في رسم بعض الخطوط عليها واصفا خطة الهجوم ، معينا اماكن التعرض وكيفية احاطة الوحدات الكبرى وقطع الطرق والاستيلاء على المراكز الهامة فيما وراء الجبهة . ثم بإنزال حملة الى اسكندرونة تحت حماية الاسطول حيث يتعرض فيها الى حلب ويستولي عليها ، وتقطع اتصال جيوش الشمال بجيش العراق . ثم بإثارة سورية الناقمة على الترك من خلفه ، وكنت ادمع أقوالي بارشادات رسمتها على الخارطة التي لا أزال محتفظا بها . فتعالي الضحك من جديد .

ومن غريب الصدف ان يقوم الانكليز بعد ايام (١٩ ايلول ١٩١٨) بهجومهم العظيم الذي قضى به على الجيش التركي بخطة مماثلة كتلك التي رسمتها على الخارطة . واذا استثنينا تصور انزال الجنود في ثغر اسكندرونة ، فان الخطة التي اتبعها اللنبي في هجومه اما ان تكون نسخة ثانية عن الخطة التي رسمتها على الخارطة بين ضحك ولهو او تكون خطتي نسخة طبق الاصل عن خطة اللنبي . تحطمت الجبهة وتراجعت بعض الوحدات التي تمكنت من الافلات . ولاول مرة وصمت بالجاسوسية لمطابقة خطتي الهزلية خطة اللنبي الحربية .

بدا هجوم الانكليز الذي لم يسبق له مثيل في معارك فلسطين في الساعة الرابعة من صباح ١٩ ايلول ١٩١٨ وكانوا قد حشدوا في منطقة ضيقة ٣٨٥ مدفعا . شرعت هذه الكتلة الفولاذية بقصف شديد استمر خمس عشرة دقيقة ، دمر خلالها خنادق الجيش التركي وجنوده ومدفعيته واسلاكه الشائكة . بينما كانت أسراب طائرات العدو تقصف بدورها مراكز الجيوش ، وتمكنت بواسطته من قطع مواصلاته وارتباط الجيوش ببعضها .

وتدفقت الخيالة الاوسترالية المعدة لهذا الهجوم ، والتي كانت كامنة على مقربة من الخطوط التركية - من الثغرة التي فتحتها المدفعية الانكليزية ، وأغارت منها على مؤخرة الجيوش والمراكز الحساسة لنشر الفوضى وراء الجبهة . ولقد تمكن قسم من الخيالة من الوصول الى الناصرة مقر القيادة العامة . ولم ينج القائد

العام ليमान فون ساندروس الا بأعجوبة تاركا ورائه اوراقه وسجلاته ، ولم ينقذ الموقف الا بعض شراذم المانية كانت تخص المقر وسائقو السيارات الالمان ، حيث استبسل الكل في الصمود وطرد الخيالة الاوسترالية والحيلولة دون استيلائهم على الناصرة . ولم يمض على هذا الهجوم اسبوع حتى كان أسر من الجيش التركي ٣٦٠ مدفعا و٧٥ ألف جندي من مجموع مئة ألف . وظلت فرقتنا والجيش الرابع يومين بعد هذا الهجوم دون ورود أية تعليمات إلينا ، وعلى جهل بما حل في الجبهة .

وتلقت فرقتنا أمرا بالانسحاب مساء ٢٢ ايلول نحو الشمال باتجاه درعا بأقصى سرعة ممكنة ، لإشغال درعا ، ولتأمين انسحاب الجيش الرابع ولحماية نقطة مزيريب قبل وصول خيالة الانكليز . ولقد ارفقت القيادة بنا لواء من المشاة الخفيف . وكانت الاوامر التي تلقيناها صارمة وصريحة بوجوب تجنب أية معركة مع العدو اثناء انسحابنا ، وأن نسير ليلا ونكنم نهارا كي نتمكن من انجاز مهمتنا الخطرة من جهة ، ولإيهام الانكليز بأننا نجدة آتية من الشمال لا قوة مفرزة من الجبهة . وكان مسيرنا على الضفة الشرقية من الاردن . فكنا نكنم في اليوم التالي على محاذة بيسان والى جنوبيها قليلا . ولقد راغني ان أشاهد شرذمة تركية يبلغ عدد افرادها السبعين مقاتلا مشتبكة مع كتيبة انكليزية في معركة حامية الوطيس . ولكن الشرذمة التركية تمكنت من التراجع الى الشرق حتى اصبح الاردن وراءها . واذا بحافز من نفسي يحملني على الاعتقاد بأن الشرذمة التركية لا بد وان يكون فيها عدد من رجالات الجيش رأى الانكليز وجوب التضحية بجنوده لاسرهم . فاتصلت حالا بامر الفرقة طالبا منه التدخل للحيلولة دون أسر الانكليز للشرذمة . فرفض طلبي ، قائلا ان الاوامر جد صريحة بعدم التعرض الى الانكليز واجتناب مقاتلتهم . فقلت له اننا نجابه الآن موقفا شادا لم يكن في حساب القيادة . فاستهزا بفكرتي ، فأصرت ورغبت منه في اشارك أمرا الكتائب في الامر ، حتى اذا عرضت رأيي عليهم أثنوا على مقترحي . وكانت المعركة لا تزال في شدتها وأضحت الشرذمة التركية داخل هلال يستند رأساه على نهر الاردن . ولم يبق امامها موضع للدفاع . وكانت مدفعية الانكليز آنذاك في موضع مكشوف لتيقنها من عدم وجود مدفعية امامها . فلم أر بدا من المداخلة وأخذ المسؤولية على عاتقي . ولما شعر آمر الفرقة بعزمي تركني بحجة تفتيش لواء المشاة النازل بالقرب منا .

دعوت آمر المدفعية رضا بك وكان هذا أفضل مدفعي في الجبهة التركية بكاملها . وكان من عادته اذا قصد القذف ان يحتسي كأسا من الخمر . وسدد بطاريتيه على العدو فأصلاه نارا حامية . وما هي الا دقائق حتى تحطمت بطارية العدو . وكنت أعددت سريتين لعبور النهر الى الضفة الغربية لتخليص الشرذمة المحصورة . وأخذ قلبي يزدداد في خفقانه لهذه الغامرة المجهولة العواقب، وخشيت معها أن أوصم حقا بالجاسوسية .

عبرت الخيالة النهر وعادت بعد حين مستصحبة الشزيمة التركية . واذا بأحد الضباط يسرع اليّ مبشرا بأن الشزيمة تلك تضم هيئة قيادة الجيشين السابع والثامن ، وان أبرز من فيها مصطفى كمال باشا وفنون فالكن هوس ونصوحي البخاري وأمرآء آخرين من الجيش . ولقد قص احد ضباطنا على مصطفى كمال باشا حديث مغامرتنا وما وقع لي مع أمر الفرقة .

وصل مصطفى كمال باشا وصحبه الينا ، وتقدم هو بدوره شاكرًا مقدّرًا عملي . ومما قاله لي انك لم تخلص قواد الجيش العثماني فحسب بل أنقذت شرف الجيش ، وان عملك هذا يجب ان يكون قدوة لضباطنا كافة . وأصدر على الاثر امرا تنص مادته الاولى على تقدير مغامرتي ، واقتضار الجيش بي لاختي مسؤولية المفامرة على عاتقي في ظروف استثنائية كنا فيها منقطعين عن القيادة . وفي مادته الثانية اسناد قيادة الفرقة اليّ على أن تربط به راسا . والمادة الثالثة وجوب متابعة سير الفرقة الى درعا .

وبسبب وعورة الاراضي وعدم استطاعتنا استصحاب بطاريتنا في انسحابنا السريع ، عطلناها ، وسرنا باتجاه اربد فدرعا . اما الوحدات التي تمكنت من الافلات اثر هجوم الانكليز الاخير فقد انسحبت شمالا نحو الشام ، فاقدة لمعداتنا ووسائل نقلها ومعنوياتها ، وكانت الفوضى وحدها هي التي تسودها وتقودها . وكان فيلق عصمت باشا قد أفلت ممزقا ووصل مزيريب . وظلت الخيالة الانكليزية تطارد فلول الترك ومن ورائها فرق المشاة . بينما طائرات العدو كانت تقوم بقسطها من المطاردة وتشتيت شمل الترك وتحطيم مراكز تموينه ومواصلاته .



خلال هذه الحوادث كانت الاخبار ترد الينا عن اعمال الجيش الشريفسي ونشاطه في تخريب خطوط المواصلات . كما ان بعض مفارز منه وصلت جوار الارزق شمالا ، بنية الاتصال بجبل الدروز ، اذ ينحدرون بعدها لاحتلال درعا وتخریب السكة الحديدية والطرق المؤدية الى دمشق بحيث يقطعون اخط الرجعية على الترك .

وكانت الاخبار لا تفتأ تصف شجاعة الجندي العربي وبسالته ، ذلك الجندي الذي تمكن ضباطه من تدريبه خلال مدة وجيزة ، واثبت في مختلف المعارك التي خاض غمارها مع الاتراك ضد قوات متفوقة عليه بأنه أقدر من الجندي التركي ، سواء في الدفاع او في الهجوم . كما انه اذكى منه . فباستطاعة الجندي العربي الاحاطة والعمل بما يتطلبه الموقف دون احتياجه الى قيادة تقوده ، عكس الجندي التركي . وقد برزت هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها في كل بقعة قاتل فيها العربي

تحت قيادة منظمة اثير فيها شعوره العربي . ولم يعد بخافٍ على قواد الجيوش المتحاربة بأن الجيش العربي الصغير الحديث كان له اعظم الاثر في تحطيم الجبهة التركية . وكان وجوده في صفوف القتال من اهم عوامل النصر الذي احرزه الجنرال النبي ، اذ استطاع إشغال ما يزيد عن الستين الفا من جنود الترك وعزلهم عن مشاركة اخوانهم في جبهة فلسطين . ومزايا الجندي العربي التي انكشفت في هذه الحرب الطاحنة لم تستثمر لمصلحة الامة العربية . واذا شئنا ان نتساءل عن استثمار هذه الدماء ؟ وفي سبيل اي مصلحة اهرقت ؟ لم نجد جوابا الا انها اهرقت في سبيل انكلترا وحدها التي عرفت كيف تستثمرها . ولو ان الترك احسنوا سياسة العربي واستمالوه الى طرفهم بإعطائه حقوقه المشروعة ، لاذاق الانكليز في هذه الارض المقدسة (فلسطين) من بأسه الامرّين ، ولكن الدافع الذي حدا بالعربي الى الاستبسال ضد الانكليز خلاف الدافع الذي حثه لقتال الترك مطالبا اياهم بحقه .

وان من حسن حظ الانكليز ان يكون الجندي العربي بجانبهم في الحرب العامة بقدر ما كان من سوء حظ العربي نفسه . اذ ان الانكليز استثمروا وفاءه فاغتصبوا فيما بعد اوطانه . ولقد اتخذوا التدابير منذ بداية الثورة العربية لجعل العرب عند انتهاء الحرب في حالة ضعيفة ، لا يستطيعون معها معاكسة تنفيذ مناهجهم الاستعماري في الجزيرة ولا يكون لدى العرب من الاسلحة والعتاد ما يسمح لهم بمسّ الفنائم والاسلاب من الاقطار العربية ، الا سلاح اللسان الذي لم يكن ليطعم صاحبه يوما كسرة من الخبز . ولو ان زعماء الثورة العربية احتاطوا للامر منذ البداية ، وحسبوا لخيانة انكلترا لهم حسابا ، لتمكنت الثورة العربية من انقاذ البلاد العربية بأسرها ، ولتمكنت ايضا من مجابهة الانكليز بالسلح اذا اقتضى الحال حين اقتسام الفنائم ، مما يضطر معه الانكليز الى الرضوخ خشية وقوع حرب ثانية ، فيذعنون عندها لمطالب العرب ، ويوفون بعهودهم المقطوعة كما حدث للثورة الكمالية في الاناضول .



تابعنا مسيرنا حتى وصلنا درعا ليلا واذا بنا نسمع ديبيا كديب حوافس الخيل على مقربة منا . ففترقت خيالنا ظانة انه قد احيط بها ، وانها اصبحت في قبضة خيالة الجيش العربي الذي شاع خبر وجوده على مقربة من درعا . تمكنا بعد جهد من إعادة النظام الى صفوفنا . واتجهت صوب الاصوات المرتفعة فاذا بي اجدني على مقربة من محطة درعا ، والقطارات تقوم بمناوراتها ، ووحدات الالمان التي كانت في السلط ، وانسحبت على اثر انكسار الجبهة تحتل اركان المحطة . تقدمت صوب الجنود الالمان للتعرف الى احوالهم ، فاذا بهم فجأة يحيطون بسي وينادون هذا جاسوس هذا جاسوس انكليزي. وعبثا حاولت اقناعهم بأنني ضابط

تركي . وكنت كلما ذكرت لهم اسما من اسماء قوادهم ، او طلبت منهم اخذي اليه للتعرف اليّ ازدادت شكوكهم بي . وكنت في كل لحظة معرضا لطلقة من احدهم تودي بي . ومربخاطري وجوب اللجوء الى الحيلة للنجاة من هذا المأزق . اخذت امهلم في اطلاعهم على حقيقة امري . واقص بعض الحوادث وانا اتحرى في ذات الوقت ثغرة في ظلمة الليل اثب منها الى احد القطارات التي امامي . وسنحت لي الفرصة فوثبت الى احدى المركبات ثم نزلت من بابها المقابل وصعدت الى اخرى بجانبها ، حيث اخفيت نفسي . فاخذت جموع الالمان تصيح وتركض يمنة ويسرة وهم يفتشون في القطارات . ولم يسمعهم بعد اختفائي الا الانفضاخ كلّ الى سبيله . حتى اذا ابتعدوا عني ، خرجت من مكمني اتحرى جوادي الذي لم اجد له اثرا واتجهت صوب فرقتي .

وكان مصطفى كمال قد لحق عصمت باشا في مزيريب ، وارسل اليّ امرا بوجود متابعة السير الى الكسوة حيث ننتظر اوامره الجديدة . وسرنا ونحسن منهوكو القوى ، واخذ عدد افراد الفرقة يتناقص شيئا فشيئا ، حتى اضحى مجموعها لا يعادل مجموع كتيبة واحدة . وكانت الخيالة الاسترالية تتقدم من ورائنا بسرعة .

وصلنا الى جوار قرية (طفس) من قرى حوران الساعة الحادية عشرة قبل الظهر ، فالفينا بعض نساء القرية يحملن ماء على رؤوسهن ، فتقدمنا نحوهن لارواء عطشنا وارسلنا الخيل الى الآبار في القرية لسقيها ولم نلبث ان سمعنا طلقات وفاجأتنا رشاشات من القرية ، ثبت لنا معها ان فيها قوة نظامية من العدو . ولم يكن لدينا متسع من الوقت لتحرى مراكز العدو ، فأمرت انزال ما نحمل من رشاشات وكانت تحت امرة المرحوم امين مطر الطرابلسي الذي استشهد فيما بعد في حروب الطائف ضد الوهابيين ، وقذف القرية . وارسلت على الاثر سريتين صغيرتين مجهزتين بالبنادق والقنابل اليدوية صوب القرية وجهزنا سريتين اخريين للاحاطة والقضاء على من فيها بالسلاح الابيض . ولم يمض ثلث ساعة حتى كانت جنودنا محتلة القرية تقذف كل من صادفته في طريقها . وشاهدنا على الاثر تلا كبيرا من العدو منهزما الى ما وراء القرية ، فأطلقنا وراءهم سريتين من الخيالة، لحقتا به ، وأوقعنا فيه قتلا وجرحا . وانه لمن المؤسف حقا ان يكون مع الرتل المنهزم كثير من نساء القرية وشيوخها أصيب منهم عدد كبير . واني خوفا من لحاق الخيالة الاوسترالية بنا ، جمعت القوة من جديد ، وأسرنا الخطى نحو الكسوة . ولقد علمنا فيما بعد ان مفرزة من الجيش الشريفى كانت احتلت القرية يصحبها الكتائب الافرنسي بيزاتي آمر البطارية الذي لم يتمكن من نصب مدافعه في الوقت المناسب لقتلنا ، فأثر الانسحاب قبل المفرزة الشريفة . وصلنا الكسوة صباح ٣٠ ايلول ١٩١٨ ، فعلمت ان الترك انشأوا خطا للدفاع عن دمشق ، وانه عين رضا باشا الركابي لقيادة هذه الجبهة الجديدة . ووصلني امر من القيادة

العامة في دمشق بوجوب الاسراع اليها لتلقي التعليمات الخاصة بالدفاع عنها . وكان جمال باشا ومصطفى كمال باشا وبعض القواد الالمان قد اتخذوا من اوتيل فيكتوريا مقرا . اخذت اتجول في البلدة ، التي قطعت سنوات الحرب كل صلة بيني وبينها . وشعرت بحالتها النفسية غير الطبيعية . الناس في قلق والشوارع تعج بالجنود الذين لا يعرف احدهم شيئا عن وحدته ولا عن مصيره . والفوضى سائدة في كل مكان .

وعزمت تمضية للوقت أن اذهب الى الحمام . وفيما انا في الحمام الذي لم يكن ليحتله تلك الساعة سواي ، ثم سمعت دويا تبعته طلقات . فأسرعت الى المرجة وشاهدت اناسا يركضون يمنة ويسرة والاسواق مقفلة يسودها سكون رهيب فاتجهت صوب الفندق فلم اجد احدا من القادة فيه . وكان كل من صادفته من الضباط قد ارتدى ملابسه الملكية ، والكل يلح عليّ بوجوب ابدال ثوبي العسكري لان الخيالة الانكليز قد احتلوا الربوة ، والجيش العربي قد دخل دمشق (١ تشرين الاول ١٩١٨) . وكانت الجنود آنئذ تتجه نحو محطة القدم ، فتحتل القاطرات والشاحنات من الداخل ومن الخارج حتى اصبح منظرها كقشور البطيخ في صحراء حارة يغطيها الدباب . وشاهدت بعد هنيهة رجال الشرطة الترك تسير بانتظام نحو ساحة المرجة ، حيث تجمهر الناس حول عربة يرفرف فوقها علم غريب عنا ، ورجال فيها يخطبون في الجماهير ويعلو الهتاف حيننا فحيننا . ولقد علمت فيما بعد ان العلم المرتفع كان العلم العربي ، والخطباء رجال من الجيش الشريفى ومن اشراف دمشق يبشرون الناس بتقدم الجيش الشريفى صوب الشام .

وصعب عليّ أن افعل ما فعله الضباط الترك اثر انسحابهم من دمشق من تبديل ثوبي العسكري بملكي ، فاتجهت قبيل الغروب صوب الربوة بغية الالتحاق بفلول الجيش المنسحب . ولم يكن معي وقتئذ سوى آلة تصوير كان ليमान فون ساندرس اهداني اياها فآثرت الاحتفاظ بها . ووصلت مدخل الربوة مع الغروب . وما كدت اخطو بضع خطوات في احد منعطفات الربوة ، حتى لمحت حارسا يسير يمنة ويسرة ، والفيتة بعد لحظات مصوبا بندقيته نحو صدري وهو يصيح توركو توركو ، ويردد معها بضع كلمات لم افقها . وما كان مني الا ان رفعت يدي وانا اتقدم نحوه مرددا كلمات مسلمان توركو وأنا ألوح له بآلة التصوير .

وسرت نحوه متمهلا متظاهرا بالخور ، وأنا اتملس من طرف خفي مخرجا من مأزقي ذاك . وكان نهر بردى يجري عن يساري ، واشجار الحور والادغال تستر ضفتيه . فعزمت على المغامرة وتجربة حظي هذه المرة ، مستعظما استسلامي في آخر لحظة من لحظات حرب دامت سنين اربعا ، خرجت من كل مغامراتي فيها سالما موقفا . تقدمت نحو الحارس شيئا فشيئا ، وما كدت اصل اليه والقاء مطمئنا الى استسلامي ، حتى قفزت الى الماء ، مستترا بعد بالادغال ، حيث

خرجت بعد هنيهة الى الضفة الاخرى منتقلا بين ادغالها الكثيفة . وكان الليل قد اشتدت حلكته وقتئذ ، فلم يتمكن الحارس من رؤيتي او اللحاق بي ، لكنه شرع في قذفي بنيران بندقيته دون جدوى . وفيما انا في تنقلي وتستري ، اذا بي فجأة ارى بضعة من خيل العدو مربوطة تأكل علفها ، فأصفيت باحتراس لاتعرف مكان فرسانها ، حتى اذا اطمأنت لبعدهم عني عزمت على سرقة احدها . وامتطيت جوادا كان معلقا الى سرجه سيف وقراب بندقية . واتجهت صوب الطريق العام ، وانطلقت غربا . وبعد قليل اعترضت نقطة انكليزية سبيلي ، وكانت رابضة على رابية مسيطرة على الطريق . فأطلقوا نيرانهم عليّ ، وما كان مني الا ان قفزت عن صهوة الجواد ، ولفتّ ثمة رأس الجواد شرقا ، ورفسته برجلي ، فأسرع في هربه . وأخذت نيران العدو تنصب على اصوات خطوات الجواد الهارب . وتسلفت حالا في الوديان المحاذية للطريق العام . وخرجت بعد حين من النطاق ، حيث ظلت سائرا في ظلمة الليل حتى انبثاق الفجر . فألفيت نفسي على مقربة من قرية (مجلد عين جر) ورأيت بعد حين جموعا متكاثفة من فلول الجيش التركي ، قد اوقفها احد الضباط الالمان في مضيق مجدل عنجر يبقي من وراء ذلك منعها عن متابعة المسير اذ سدد الالمان بطارياتهم صوب العدو لصده عن التقدم نحو هذا المضيق . ولم يسعني عند رؤيتي هذه الجموع ، وشعوري بالخطر المحدق بهم الا أن اتقدم نحو الضابط الالماني فأحدثه بما رأيته وقرب لحاق خيالة العدو بنا . والحث عليه بوجوب فتح الطريق لهؤلاء مخافة ان يحل بهم سوء ، فيكونوا ضحية محاولتهم غير المجدية . وأبى الضابط الرضوخ الى رغبتني ، قائلا بأنه ينفذ امرا قد تلقاه . وما كدت أخرج من المضيق حتى شاهدت سبع عشرة طائرة للعدو تحوم فوق الجموع وأخذت على الاثر تمطرها بوابل من قنابلها ، فمزقتها شر ممزق . وأصبح منظر المضيق من اروع المناظر وألمها . ووصلت بعض الفلول التي نجت من ويل الطائرات حيث كنت في كرم عنب ، وبدأت الطائرات بالقاء نيران رشاشاتها على من سلم من الفلول، وامتلا الكرم الذي كنت فيه بالجثث والجرحى، كما امتلا مضيق مجدل عنجر . وأضحيت تسمع بعد انسحاب الطائرات انين الجرحى من كل مكان . اما من بقي حيا فقد تسلسل الى رياق .

وبعد مسيري ليلا ونهارا بطولهما وصلت رياق ، فتأملت كثيرا مما شاهدت : مستودعات الجيش التركي التي تحاكي الجبال بعظمتها ، أضحت لقمة سائفة لاهالي القرى ، الذين اخذوا في نهبها ، وهم أشبه بجماعات النحل تغدو وتروح حاملة العتاد والاسلحة الى بيوتها . واتخذت لنفسني مقعدا فوق صندوق من صناديق الشمبانيا ، وشرعت استعرض حوادث الحرب التي مرت عليّ ، واتخيل أحوال الامبراطورية العثمانية وما آلت اليه ، وخيل اليّ كآني جالس على احدى صخرات صرح الامبراطورية العثمانية المتهدم . كما ان العرب الذين تحملوا النكبات وأنواع المظالم منذ ستمائة سنة حتى الساعة أضحوا يئنون تحت انقاض هذا البناء المتداعي . فأخذت أسائل نفسي ماذا عسى يكون مصير العرب ؟ وماذا

عساها بريطانيا العظمى فاعلة بالوعود التي قطعتها لهم ؟ وهل الامة العربية بانقيادها الى بريطانيا تكون قد انتقلت من دور مظلم الى دور اظلم ام على العكس ؟ امام هذه التصورات والتساؤلات وجدت يدي تمتد الى داخل الصندوق الجالس عليه ، فأخرج منه زجاجة من الشمبانيا المعتقة فأضرب رأسها بأخرى ثم احتسي ما فيها دفعة واحدة ، طاردا ما علق بنفسي من الاوهام والتصورات . وكان لحق بي تعب شديد وما لبثت ان وجدت نفسي بعد حين اتمتم فأنشد وأغني ، ثم انتصب واقفا وأتابع المسير نحو الشمال ، حيث تنقلت تارة بالقطار وطورا على ظهور الخيل حتى وصلت مدينة حمص .

وكانت فلول الجيش متجمعة فيها ، كما ان مصطفى كمال باشا كان متمركزا في المحطة ، يصدر اوامره مانعا خروج اي كان من النطاق الذي ضربه حول المدينة . قاصدا بذلك اعادة تنظيم فلول الجيش . ولقد جئته وكان التأثر والاضطراب ظاهرين على وجهه وفي حركاته . وبعد حديث قال لي : لقد انتهى الامر وأضحت مقدراتنا بيد اعدائنا ، فعلى كل منا ان يعمل ما يستطيع لانقاذ ما يمكن انقاذه . واني اتمنى للعرب كيانا حرا يعيشون في ظله في دور جديد ، واذا سمعت يوما بحوادث تجري في الاناضول ، ولم يكن لديك واجب تقوم به في بلادك فات اليانا . ولم يستطع مصطفى كمال تحقيق ما رمى اليه من تجميع القوى في حمص وتنظيمها من جديد ، بسبب تقدم الخيالة الانكليز ، وتحليق طائراتهم فوقها . واضطرت الفلول الى الانسحاب شمالا وأخذ كل فرد يتجه نحو بلده . فاستأذنت مصطفى كمال بالسفر الى بلدتي طرابلس الشام فأذن لي .

ووصلت طرابلس في اليوم الذي سقطت فيه مدينة حمص بيد العرب والانكليز ١٦ تشرين الاول ١٩١٨ . وتابع الجيش العربي وخيالة الانكليز مسيرهم حتى وصلوا حلب واحتلوها في ٢٦ تشرين الاول . ثم تابعت مسيرها شمالا نحو طوروس حيث عقدت الهدنة بعد وصولها اليها .

الفصل الثالث

في دمشق ١٩١٨ - ١٩٢٠

خرجت البلاد العربية من الحرب العامة وهي لا تملك مرفقا من مرافق الحياة ؛ فلا جيش ولا معهد ولا مصنع او مؤسسة يستند عليها كيان البلاد . وكانت الامة العربية مقطعة الاوصال يزرع بعض اقطارها تحت الحكم الاجنبي ما بين مستعمرة ومملكة ووصاية وانتداب ، والجهل عام في انحاءها يسيطر على اكثر من نصفها روح البداوة وتقاليدها . فالأتراك الذين استلموا معها مقدرات العرب الذين كان مستواهم الثقافي يفوق مستوى الأتراك بدرجات ، أسأوا التصرف في سياسة البلاد وإدارة شئونها ، وأمعنوا في ظلم الشعوب العربية وإرهاقهم ، وقتلوا فيهم روح القومية ، وطمسوا على مؤسساتهم ومعاهدتهم العلمية شيئا فشيئا ، حتى أسلموا البلاد العربية قطعة قطعة الى الأجانب ، وزجوا البلاد العربية الباقية تحت حكمهم . فعمت الجهالة بلادهم وجردوهم من مادة العلم ، حتى اذا خرج الترك من الحرب العامة لم يبق للعرب بقعة مستقلة سوى الحجاز الذي قاتل الترك ، واليمن التي لم ينقطع سيل الدماء منها زهاء ستة قرون ، ونجد التي صمدت للغزوات المتتالية . اما الترك انفسهم فقد احتفظوا بتراث الامبراطورية العثمانية من معاهد ومؤسسات وجامعات وجيش ومصانع ومعامل وكل ينابيع الدولة ، حيث استطاع مصطفى كمال على هذه الانتقاض ان يبنى كيان جمهوريته الحديثة .

وصلت بلدتي طرابلس الشام في ١٦ تشرين الاول ١٩١٨ . وكانت الحكومة التركية والجيش قد غادراها . ولم تكن جيوش الحلفاء دخلتها بعد . وقد تشكلت فيها ادارة وطنية لحفظ الامن والكل يتطلع الى مستقبل مجهول . وقضيت فيها

بضعة ايام ، ولم يبق من ذكريات الحرب العامة ومعاركها وويلاتها ومجازفاتها الا صور اخذت في التباعد عن مخيلتي شيئا فشيئا .

ودعيت ذات ليلة الى حفلة سمر وطرب اقامها فريق من شباب البلدة . وبينما كنت مسترسلا في افكار غريبة ومستسلما الى تخيلات غير اعتيادية عن حالتي المخالفة للحياة الحربية التي تعودتها ، اذا بي اسمع ضوضاء تتبعها اصوات ابواق السيارات فهرعت الى الشرفة لأتبينها ، فاذا برتل من السيارات الانكليزية المصفحة المألئى بالجنود تنساب نحو ميدان التل ، فتنجمع فيه . واعقبته الخيالة الانكليز ولم يكن قد انقطع سيل الدماء الذي جرى بيننا طيلة سنوات الحرب الاربع . ولقد كان لهذا المشهد اعظم وقع في نفسي . شبيبة البلاد تطرب وتلهو والعدو بجيوشه ومعداته في بلدي ، فما يكون المصير يا ترى ؟ ومنذا الذي يستطيع حماية بلادي من طمع هؤلاء الفاتحين ؟

احتلت جيوش بريطانيا البلاد بأسرها ، وتقلص ظل الراية العثمانية ، تلك الراية التي خفقت على البلاد طيلة قرون امتزجت العناصر الاسلامية فيها ، في وقت من الاوقات ، امتزاجا تاما أضحت معه كأنها شعب واحد . غير ان الاهواء والدسائس والنزعات ما عثمت ان لعبت دورها الرهيب ، فاذا بهذا الكيان العثماني الاسلامي شعوب متنافرة متباغضة متعادية . وفعلت الحرب فعلها فيهم ، واقام يوم الهدنة بينهم سدا حجز ما بين شعب وشعب تمهيدا لاقتراسها شعبا بعد شعب .

ولم يكن في الجزيرة من اقصاها الى اقصاها اية قوة تتجه آمالنا اليها ، سوى قوة الجيش العربي الفتى المرتبط حينذاك بقيادة الجنرال اللنبي . وكان هذا الجيش وموقفه من البلاد اضعف من ان يتحمل عبء آمال العرب فيه . ولكن لا حياة بلا امل . فاتجهت آمالنا بعد وقوع الكارثة الى الحسين وبنيه . واصبح لزاما على كل عربي ان يضحي بكل ما لديه لمساندة هذه القوة العربية وتغذيتها .



واصل الجيش البريطاني سيره شمالا فاحتل مدينة حلب في ٢٦ تشرين الاول ١٩١٨ واتجه على الاثر الامير فيصل اليها على رأس قوة ، ثم عاد منها بعد ايام الى مدينة طرابلس في طريقه الى دمشق . وكان في استقباله عند وصوله طرابلس سرية من الجند الانكليزي . وحلّ ضيفا على سماحة مفتي طرابلس السيد عبد الحميد كرامي . وتوافد اعيان البلدة للسلام عليه . ولم اكن بين الوافدين . وجاءني رسول من لدن الامير بعد ساعات يطلب مني مواجهته فذهبت اليه بصحبة صديقين ، وكنا نحن الثلاثة ممن آثروا البقاء على الولاء للجيش التركي حتى نهاية الحرب .

دخلنا حيث يجلس الامير فيصل . فحيناه بالتحية العسكرية فردها بأحسن

منها . وابتداً حديثه معنا بقوله : انني لا انتقد ولا اعتب على احد ممن آثر البقاء في الجانب التركي ، واجتهادكم هو الذي ساقكم لان تدافعوا جنباً الى جنب مع الترك بأمانة واخلاص ، وهذا من حقكم . اما الآن وقد اودعت مقدرات البلاد التي انتم ابناؤها الى ايدينا ، فاني ادعوكم الى خدمتها . وكان لكلماته وقع حسن في نفوسنا ، ولم يسعنا الا تقبّل دعوته ايانا للخدمة تحت لوائه بفرح وامتنان .

وكتب على الاثر كتابا طلب مني ان اقدمه الى رئيس مجلس الشورى الحربي وقتئذ المرحوم ياسين باشا الهاشمي في دمشق . توجهت الى دمشق حيث قابلت الهاشمي وقد عينني في الشعبة الثالثة من ديوان الشورى الحربي .



لأول مرة ، بعد انقضاء قرون رزحت الشام فيها تحت ظلم الترك واعتسافهم، اخذت تنمو وتزهر يظللها علم الدولة العربية المستقلة . ولم يكن ليكدر صفو المتطلع الى الحرية والاستقلال ، سوى رؤية البريطانيين ينتقلون في البلاد من منطقة الى اخرى احرارا . واخذت اقتصاديات البلاد تنتعش شيئاً فشيئاً بعد أن تكبدت الضيق والجوع خلال الحرب العامة .

وتكوّن الجيش السوري الحديث وانخرط فيه مختلف ضباط العرب ، ممن قاتلوا بالامس في صفوف عادي بعضها بعضا .

كان الضابط الذي قضى ايام الحرب مع الجيش التركي يعتقد انه قسام بواجب الدفاع عن الامبراطورية العثمانية التي كانت بلاده متعلقة بها ، كما كان يعتقد ان الرتب التي نالها قانونية . بينما الفريق الآخر يرى نفسه كضابط عربي ثار لتخليص بلاده العربية من يد الترك ، وان كل من ظل من ضباط العرب في صفوف الترك لا يمت للعروبة بصلة ، كما ان ما ناله من الاوسمة والرتب والاموال حق صريح له خلافا لمعتقد الفريق الاول من انها غير مشروعة .

وتطورت حالة الجيش النفسية الى شكل خطر مما حمل قيادة الجيش العربي على تصفية الرتب . واغتاز الضباط الذين اعتبروا انفسهم فاتحين . وابتداً النفور بين فئتي ضباط الجيش الذي تصدع بناؤه قبل ان يتم . كان الضابط العربي الذي ظل حتى الانقلاب مع الترك ، يعتبر الثورة العربية انما قامت بذهب الانكليز وبأسلحة الانكليز ويارشادات الانكليز وبقيادة الانكليز ، وان نتيجتها مع ما قدم العرب فيها من ضحايا لن تكون الا في صالح الانكليز انفسهم .

واخذت شقة الخلاف تتسع بين الضباط ، كما اتسعت تشكيلات الجيش

السوري الجديد . وتمكن الجيش مع ذلك من البروز في الميدان في مدة وجيزة . ولقد صرفت جهود جبارة في تحويل المصطلحات والايعارات وجميع ما يتعلق بالفنون العسكرية والتدريب الى اللغة العربية بصورة تثير الاعجاب من جهة والتقدير للقائمين بهذا التنظيم من جهة ثانية . واضحت الكتب الفنية العسكرية الموضوعة في دمشق اساسا ومرجعا للجيش العربية التي تم تأليفها فيما بعد في العراق والتي في طريق التأليف في مصر والحجاز واليمن .

وتطور الشعب السوري فجأة للآراء السياسية المتضاربة التي بثتها احزابه المختلفة فيه ، فأصبح المرء لا يدري اي فريق يتبع او اي طريق يسلك ، واضحى التحدث بالسياسة والتبجح بالوطنية حديث الخاص والعام من الناس ، سواء في المقاهي او في النوادي والبيوت ، وطفت موجة السياسة على كل فرد من افراد الامة وطبقاتها حتى قبائل البادية . واخذ الشعب فسي انتقاد الزعماء والرجال العاملين . وعانت البلاد من جراء هذه الآراء السياسية المتباينة الامرّين . لقد أهمل الرجال المسؤولون تشكيلات الشعب وتنظيمه ، وهو الينبوع الذي يمد الجيش بقوته في ساعات الخطر ، اهمالا تاما .



حرص الانكليز اثناء غارتهم على سورية ان يجعلوا الجيش الشريفي يقاتل في جناحهم الايمن لفاية في انفسهم . حتى اذا سقطت دمشق وتأسست الدولة العربية في الشام ، بعث الامير فيصل القائد شكري باشا الايوبي الى بيروت ممثلا للحكومة العربية . غير ان سكان الساحل فوجئوا قبل ان يتم فرحهم برؤيتهم العلم العربي ، بنزول الجيوش الفرنسية ، وإنزال العلم العربي عن سراي بيروت . واذا بالحكومة العربية محصورة في المدن الاربع الداخلية منقطعة عن الساحل .

وانكشفت نوايا الانكليز والفرنسيين عن اتفاقية سايكس بيكو وعن وعد بلفور . ولم تجد احتجاجات الامير فيصل وجهوده ، ولا صرخات الشعب السوري . وشعر الامير بالمشكلات وبالصعوبات التي تجابهه بها القيادة العامة الانكليزية ، التي ترمي الى تحقيق رغبة الفرنسيين في البلاد . واتضح له بأنه من المتعذر جدا حمل الانكليز على البرّ بوعدهم الذي قطعوه لوالده الا بالاتصال في لندن وباريس حيث تعقد المؤتمرات التي من واجبها تقرير مصير الامم المغلوبة على امرها في الحرب العامة ، وتقرير حق الامم الغالبة من الاسلاب . غير ان الامير فيصل منذ اللحظة الاولى التي وطئت فيها قدماه ارض باريس ، شعر بأن فرنسا غير مرتاحة لقدمه ، واخذت تعمل بشتى الوسائل للحيلولة بينه وبين مؤتمر الصلح . وهي ترمي من طرف خفي الى إعلامه بأن فرنسا وحدها هي التي تملك مقدرات سورية ،

التي تم الاتفاق عليها مع بريطانيا ، وأن عليه اذا اراد المحافظة على مكانته في سورية ان يتفاهم مع فرنسا أولا .

وكانت مقترحات كهذه جد ثقيلة على الامير فيصل ، الذي يحمل آمال العرب وأحلامهم . الذين كان لهم قسط وافر من النصر المكتسب ، عدا عما يستند عليه فيصل من العهود والمواثيق المقطوعة لأبيه من قبل بريطانيا . وكان لزاما عليه ان يجعل لندن قبلته السياسية ، فلم يجد من الانكليز سوى المراوغة ووعود كاذبة جديدة ونصح بوجوب التفاهم مع فرنسا .

وقفل الامير فيصل راجعا الى سورية حيث حصر اهتمامه بتقوية الجيش . وما كاد غورو الذي أمّ بيروت مندوبا ساميا يشعر بنوايا فيصل ، حتى اخذ يعدّ العدة لخنق نهضة العرب في مهدها . واخذت قوات الافرنسيين فسي التزايد وحشرت في الثغور ، ولم يكن هذا الاستعداد من قبل الافرنسيين ليشير اهتمام رجالنا بادىء الامر . وكان للافرنسيين رجال يبشرون الدعاية داخل المنطقة العربية ويؤسسون صلات مع الشعب وفي القبائل . فكانوا يسعون بالاموال لاستمالة البعض ولتفريق الكلمة . ولكن اعمالهم هذه لم تكن خافية على احد . ورمى الافرنسيون الى احتلال البقاع بحجج تذرعوها بها ، حيث يتمكنون بذلك من التقرب الى دمشق والسيطرة من ثم على الداخل .



كان يجري هذا وتشكيلاتنا التي يعتمد عليها في الدفاع لم تتم بعد . وقررت الحكومة السورية اثر استفحال امر الافرنسيين الخدمة العسكرية الاجبارية . غير ان الفوضى ، ويا للأسف ، كانت مرافقة لهذا المشروع الحيوي : كما ان الموجات السياسية كانت تتوالى على ضباط الجيش من مختلف ينابيع الاحزاب السياسية، حتى بت تشعر بالتفكك في هيكل الجيش الذي لم يكن تكامل بنموه بعد .

وفوجئنا صباح ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٩ باعتقال الانكليز للهاشمي بحيلة دنيئة؛ اذ دعاه الجنرال الانكليزي لتناول الشاي عنده ، حيث اعتقله الانكليز وبعثوا به الى مدينة الرملة . وكان لهذه الحادثة تأثير كبير في النفوس ، خاصة في نفوس ضباط الجيش ، اذ كانوا يعتبرون تدبير الانكليز ذاك اهانة موجهة الى الجيش بالدرجة الاولى ثم للحكومة للبلاد ، ولم يبق بعمل سوى تقديم الاحتجاجات واقامة المظاهرات التي بدأنا نألفها والتي سئمنها فيما بعد . أما اسباب اعتقال الهاشمي فقد شاعت عنه اشاعات اقربها الى الحقيقة كونه امدّ الثورة العراقية بالاموال والاسلحة ، مما ادى الى حنق الانكليز عليه ، فاعتقلوه .



كان الامير فيصل كلما ذهب الى باريس او عاد منها ازداد الهياج السياسي، وعم الطبقات . ولم تكن لتخف وطاته حتى بعد تتويج الملك فيصل على سورية ٨ آذار ١٩٢٠ . وكانت حوادث البوكمال والاستيلاء على دير الزور وتنظيم ثورة العراق وإمدادها بالاسلحة والاموال ، ونشاط الاعمال المسلحة في السواحل لاشغال الافرنسيين ، وتنظيم الجيش العربي ونموه ، كل ذلك جعل الفرنسيين والانكليز ينظرون الى هذه الدولة الفتية بعين القلق والارتباب ، وانهم اذا لم يقضوا عليها وهي بعد في بدء تكوينها قضت فيما بعد على نفوذها في الجزيرة ، وتم لها ما تريد من وحدة العرب الشاملة في اقرب وقت .

طلبت من القيادة العامة تعييني في احدى الوحدات. وكنت على يقين من نشوب حرب مع الافرنسيين تتوقف مقدرات سوريا عليها . وعيّنتني القيادة آمرا في السرية الاولى من لواء الخيالة الهاشمي . وتفرغت الى تدريب السرية ، ولم تلبث ان برزت .

وكان الافرنسيون حشدوا قواهم في مدينة زحلة . واذا بخبر يقول بأن ضابط الاستخبارات الفرنسي دخل مدينة المعلقة العربية فأخرج المسجونين من سرايا الحكومة ، وجرد الدرك من اسلحتهم ، دون ان يتمكن احد من صد الفرنسيين . وانتدبني المرحوم يوسف العظمة على اثر الحادثة للتوجه الى المعلقة، معلقا آماله عليّ في تسكين الاضطراب الذي استفحل امره فيها . توجهت الى المعلقة بصحبة سريتي بصفتها سرية درك لانه كان من المتفق عليه ان لا يكون في هذه المنطقة اية قوة نظامية . وما كدت استلم مركزي حتى قمت بتدابير خاصة تحول دون دخول اي افرنسي مهما عظمت رتبته الى المنطقة العربية دون استئذاني.

وشاء ضابط الاستخبارات الفرنسي الكابتن (هاك) يوما ان يدخل المنطقة العربية كعادته ، فدهش حين باغته الجندي العربي طالبا منه الانتظار حتى يستأذن له ، حتى اذا اذنت له جاءني يحيط به جنودنا ، وهددني برفع شكواه الى وزارة حريتنا رأسا . وكان لعملي ذاك اعظم وقع في نفوس اهل المعلقة وضواحيها.

وسطا، اثناء وجودي في المعلقة، اهالي احدى القرى المعززة بنصرة الافرنسيين على قرية مسيحية واقعة ضمن حدودنا فلحق بهم رجال مخافنا ، ولكنهم لم يتمكنوا من تعقيب المعتدين لدخولهم حدود المنطقة الفرنسية غير انه لم يكن ما يمنعني من تاديب اهالي تلك القرية وايقافهم عند حدودها . ارسلت فصيلا الى المخفر وأمرته بأن يلحق السرقة الى قريتهم وانطلقت بصحبة فصيلين من المعلقة رأسا على طريق اخرى الى قرية الفرزل ، دون استشارة القائمقام ، فوصلتها . وبعد مصادمة لم تدم سوى بضع دقائق ، انهزم اهل قرية الفرزل ، تاركين جرحاهم وقتلاهم في الميدان ملتجئين الى الجبال . وسأقت رجالا قطعان الغنم

التي صادفناها ، وكانت تخص القريتين الناهبة والمنهوبة . فكان لعملنا هذا اثره ، كما كان درسا بليغا كاد يؤدي الى مشكلة سياسية ، ولم يقع بعد هذا اي حادث من نوعه واستتب الامن في المنطقة بكاملها . وقمت بأعمال تأديبية اخرى ، اوضحت السكينة مخيمة على اثرها على ربوع بعلبك مدة طويلة .

وتلقيت يوما برقية من القيادة تعلمني بعزم جماعة من دروز الجبل على التوجه الى بيروت للتطوع في الجيش الفرنسي ، وان طريقهم سوف يكون عن طريق حاصبيا وراشيا الى جبل لبنان . واسرعت بسرية خيالتنا نحو جسر مشغرة ليلا ، وانجزت ترتيباتي ، وقسمت رجالي حيث كمن كل فريق على مقربة من الجسر ، بعد ان اخفوا خيلهم عن الانظار . ونصبت ما نحمله من الرشاشات في اماكن صالحة انتخبناها . وما كاد يلوح الفجر حتى وصل سمعنا وقع حوافر خيلهم . حتى اذا توسطوا الجسر برزت من مكمني ، وانتهرتهم طالبا الوقوف ووجوب تقدم رئيسهم نحوي . ولما شعروا باننا من الجيش العربي ، بادرونا باطلاق النار ، فلم يسعني الا مقابلتهم بالمثل فوقع منهم ما يقارب الثمانية عشر ما بين قتيل وجريح وارقد الباقون ، وكان لهذا الحادث اثره المحمود كذلك في تأمين الامن ، وبسط نفوذ الحكومة العربية في الارزاء .



كان الافرنسيون في موقف حرج في الساحل ، لسوء ادارتهم ، وقسوتهم في معاملة الاهلين ، الذين لجأوا الى السلاح دفاعا عن انفسهم واعراضهم وأموالهم . فكانت ارتال الجيش الافرنسي تقاتل من أقصى حدود سورية الجنوبية الى اقصاها الشمالية . ففي الحولة والشوف وتل كلخ وجبال العلويين ، وفي انطاكية ثورات مشتعلة وحملات مسيرة ، ومع كل هذا فقد كان الافرنسيون مخذولين امام الثوار على طول الخط ، كما ان كثيرا من اسلحتهم واسراهم وقعت في أيدي الثوار . وكانت ارتال المهاجرين من نساء المناطق وشيوخها وأطفالها تسير نحو دمشق ملتجئة لتأمن شر الفظائع التي يسمعون بها فكانت مظاهر هذه الجماعات تثير الحقد والبغض للفرنسيين .

ولو ان الجيش ، والامة من ورائه تعززه ، اعد عدته ، لتمكنت سورية من حل قضيتها وصيانة حقوقها ، ولما بقي شيء يقال له لبنان الكبير ولا الصغير ، ولما تشتت اهالي البلاد، وسلبوا ، ولما جرى ما جرى فيما بعد، خصوصا والفرصة كانت سانحة لتأمين اهداف الامة عند قيام مصطفى كمال قومه باشتباكه مع الافرنسيين ، حيث مناهم بهزائم خاسرة في جميع ميادين القتال ، في كيليكيا . واضطروا معها الى ارسال نجدات عظيمة لتعزيز قواهم في كيليكيا فضعفت عندها قواتهم الموجودة في سورية .

وعم الحماس سورية خاصة دمشق . غير ان الحماس ذاك لم يستثمر ، وظل محصورا ضمن نطاق من الخطب والتظاهرات . والذي يؤسف له انه عندما استفحل امر ثورة الترك في الاناضول ، شمل البلاد السورية نوع من الخمول عوضا عن انتهازها فرصة انشغال الفرنسيين مع الترك .



واعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية في ٨ آذار ١٩٢٠ بملكية الامير فيصل بن الحسين ، ونشرت الاعلام السورية في آفاق سورية ، وعم الابتهاج الجميع . كما ان الروح العربية اخذت تنمو في النفوس لدرجة ان رجال الجيش اخذوا يتطلعون الى حرب يخوضونها مع الافرنسيين دفاعا عن البلاد .

وكانت الحركات العسكرية اذ ذاك لا تزال قائمة في كيليكا . والفرنسيون يواصلون ارسال نجداتهم اليها . وكنا معشر الضباط نشيرنا اعمال ضباط الترك ، فكنا نتمنى لو اتيح لنا عمل " كعملهم . ولقد أدرك الفرنسيون عجزهم عن الايقاع بالترك فعمدوا الى المهادنة والتفاهم ، واخذوا ثمة في سحب قواهم وحشدها في سورية ليتفرغوا الى حل القضية السورية حيث يعوضون بها عن كيليكا التي فقدوها .

ونشط غورو الذي كان ملما بدقائق احوال سورية الداخلية في اعداد جيشه . وكانت دمشق اذ ذاك منصرفة الى عقد قرض داخلي وتنقيح قانون التجنيد الاجباري استعدادا للطوارئ ، بالرغم من ان جل اعتماد سورية وقتئذ متوقف على مقررات مؤتمر الحلفاء . واخذت فكرة التقرب من الافرنسيين والتفاهم معهم في هذه الظروف التاريخية الدقيقة تسود رجال الحكم ، وكبار قواد الجيش ، الذين خالوا ان الجيش ليس في استطاعته الدفاع اكثر من بضع ساعات ، وعلى رأسهم المرحوم الهاشمي .

اما المرحوم يوسف العظمة وسائر ضباط الجيش فكانوا يرون عكس ما يراه اولئك . اذ كانوا يعتقدون ان الدفاع ممكن ، وهم المتعطشون الى مناجزة الفرنسيين . ولم تزد هذه الرغبة الاعداء الا طغيانا وغرورا لاعتقادهم بضعفنا . وكان من المعقول اما ان تتبع الحكومة سياسة التفاهم منذ البدء ، وتعمل فسي سبيلها ، او تعتمد الى الاستعداد اذا رأت في سياسة التفاهم ضياع آمالها .

وتم لغورو التغلب على المناطق الثائرة ، حيث تفرغ بعدها للهجوم على دمشق . وفاجأ صباح ١٤ تموز ١٩٢٠ الحكومة السورية بانذاره المهين ، الذي يفرض فيه قبول الانتداب وتسريح الجيش واستلام السكك الحديدية واحتلال حلب وقبول

البنك السوري وتسليم المجرمين السياسيين . فذهلت البلاد عند هذه المفاجأة . وأخذت الحكومة تمطر العالم الاوروبي باحتجاجاتها ، وتستغيث بحليفها بريطانيا .

وبدا رجالات سورية بعقد الجلسات والمؤتمرات وإقامة التظاهرات ، والناس تتقاذفهم الافكار والآراء المتناقضة المتباينة . وانتشرت الفوضى بصورة مخيفة ، واضطرت الحكومة معها الى قبول انذار غورو . ولما آتس غورو ضعفا في حكومة سورية وجد الفرصة سانحة للمطالبة بشروط أشد من الاولى ، بعد ان قبلت بإنذاره الاول ، وأضحى فيصل والحكومة السورية عرضة لشغب الشعب ، فأسقط ذلك من منزلتهما واعتبارهما ، وافقدتهما ما كانا يتمتعان به من ثقة وسلطان .

وكان من أهم العوامل التي حدت ببريطانيا الى تقديم النصح لفیصل لقبول انذار غورو ، رغبتها في التخلص من الحكومة العربية الفتية في سوريا ، والقضاء على نفوذ دمشق التي أضحت معقلا لآحرار رجالات العرب، خاصة رجالات العراق، الذين امدوا الثورة القائمة آنئذ في العراق بالاموال والرجال والاسلحة ، واستندوها بنفوذهم السياسي والادبي ، وعجز الانكليز عن اخمادها مع كثرة ما حشدوا من قواهم وفقدوا عددا عظيما من القتلى والجرحى يزيد عن العشرة آلاف جندي ، كما فقدوا كثيرا من معداتهم التي استولى عليها الثوار ، كما أسروا كثيرا من ضباطهم وجنودهم .

ودعيت على اثر انذار غورو مع سريتي للالتحاق بالكتيبة في دمشق ، وسرت ثمة كلمة الحرب على الافواه ، وكان الجيش العربي وقتئذ في حالة يستطيع معها الدفاع والمقاومة ، لما يملكه من معدات لا بأس بها ، وحماس يملك مشاعر الشعب الراغب في الدفاع عن الاستقلال . وكان الجيش السوري قد اقام خطا للدفاع بجوار مجدل عنجر ، غير ان السياسة من جهة والدسائس من جهة اخرى لعبت ادوارها حتى بتنا لا ندري انحن قادمون على الدفاع ام على الاستسلام . اذ ما كاد الجيش السوري يتم استعداده وتحصين خطوطه حتى فوجيء بأمر التسريح .

وسرحت الجنود من خنادقها ، كما سرحت الجنود الاحتياطية التي كانت جمعت في الثكنات والتي شرع في تدريبها . وشرع الجيش الفرنسي في تعقيب الجيش السوري خطوة خطوة ولكن الى اين ؟ الى دمشق التي أضحت الفوضى المسلحة فيها عامة . واخذ الرصاص يدوي في أرجائها فأزهقت الانفس وأتلفت الاموال ، وتهدمت اركان الاستقلال الذي كان كحلم لذيذ مفعج .

ومن أغرب سخریات القدر ان نتلقى بعد ساعات من الامر الاول امرا جديدا بوجوب التجمع والعودة الى الدفاع بعد ان تم تسريح الجند . وأضحينا في حالة سيئة ، خير ما يتمناها لنا العدو . وأرسل الهاشمي ، الذي كان يشغل بعد عودته

من منفاه وظيفة محافظة دمشق ، يطلبني اليه . حتى اذا جئته اخبرني بأن جلالة الملك فيصل يرغب في مواجهته في قصره عند الجسر . فتوجهت اليه ، والفيتة صاحب الوجه مضطربا . فتقدمت اليه فصافحني قائلا : ان الامر خطير وانسي منتدبك الى قيادة جموع من بدو نوري الشعلان ، واكثرها من الفرسان، وسلاحها جيد . فقم بما اتصفت به من المرونة والحنكة مقام المرشد القائد ، وخذ سريتك معك ، وسرية اخرى من الرشاشات وانطلق حيث شئت وراء الجيش الافرنسي . وان في مقدرتك ان تسطر صفحة خالدة من المجد فسي دفاعك عن بلادك . وان النوري قد تلقى التعليمات وهو منتظر في داره ، فانصرف على بركات الله .

هرعت الى دار النوري تملأ نفسي الاحلام الذهبية، فألفيته جالسا بين رجاله تسيطر حركة غير اعتيادية على داره . فاجتمعت اليه وتفاهمنا على الخطة التي يجب اتباعها ، وتواعدنا على موافاتي مع رجاله الى الثكنة الحميدية في البرامكة . ثم أعددت سريتي وسرية الرشاشات وجهزتهما بكل ما يلزم ، ثم خرجت بهما الى ساحة الثكنة بانتظار النوري ورجاله . واخذنا نسمع في الموعد المضروب اهازيج بدوية . ثم رأيت الشيخ نواف نجل النوري على رأس كوكبة من فرسانه الذين كان يقرب عددهم من العشرين فارسا . فسألته عن بقية الجموع المتفق عليها ، فأجابني بأنها سارت في طرق مختلفة حيث تجتمع بنا في قرية (صبورة) الواقعة في صحراء الديماس . ووصلنا القرية المذكورة ليلا . وعيشا حاولت معرفة مكان الجموع وعددها وظللنا ننتظرها بدون جدوى . وطلعت علينا شمس ٢٣ تموز وارتفعت معها اسراب الطائرات الفرنسية ، واخذنا نسمع اصوات البنادق والمدافع فاستولى علينا قلق عظيم . وتقدمت من نواف مرة اخرى طالبا منه ارسال رجاله الينا ، او الذهاب حيث ينزلون ، وإلا فاتنا الوقت . فكان نواف يماطلني ، وهو يعدني بقرب وصول رجاله اليه .

عينت مراكز لسريتي ، فتحصنت بها متخذة الترتيبات اللازمة لالتقاء طائرات العدو . وارسلت قسما من الخيل لورود الماء وقد تمكنت الطائرات من سوء الحظ من كشفها فانحدرت تستطلع اخبارنا . وكانت المراكز التي احتلناها عبارة عن مستطيل ساندت رؤوسه ومنتصف اضلاعه بالرشاشات وأمرت المكلفين بقذف الطائرات عندما تتوسط المستطيل . وقد نجحنا في هذه التعبئة اذ ما كادت طائرات العدو تحوم حولنا ، حتى قذفناها ، فأصيب اثنتان منها . ولقد سقطت احدهما قريبا منا . غير اني لم أمهل الطيار فانطلقت بفصيل من رجالنا ، حيث سددت رشاشاتنا على الطيار ورفيقه طالبا منهما بالافرنسية وجوب التسليم . فرفعا ايديهما مستسلمين فأسرتهما ، وأخذت في تدوين بعض الملاحظات ورقم الطائرة وأسماء الطيارين . ولقد وجدنا ثلاث عشرة اصابة في الطائرة . وتقدم مني قائد الطائرة الكابتن وانكلوجان طالبا ان اوقع له على ورقة بأن محرك طائرته مصاب بثلاث عشرة طلقة ، فأجبتة الى طلبه . ولقد غافلني قائد الطائرة فمزق بعض

اوراق يحملها ، فأمرت بجمعها فاذا بها أوامر من القيادة ، فاحتفظت بها . وبعد استجوابهما وتهديدهما ، سجلت ما ادليا به اليّ وأرسلتهما مع تقريري الى دمشق . ولما يُست من النواف ورجاله عزمت على المسير بجماعتي فقط . وعشنا حاولت الاتصال بمقر قيادتنا بإرسالي ثلاثة ضباط من سريتي ، الواحد تلو الآخر ، لاعلام القيادة عن اعمال النواف، وسؤالهم عما يجب اتباعه في مثل هذه الظروف . وكان مقر القيادة وقتئذ في قرية الهامة . فلم يعد احد منهم وعلمت ان احدهم قتل .

وتقدمت برجالي صوب الجبهة ، واذا بي ارى فلول جيشنا متراجعة صوب قرية صبورة . وأخذت جموع البدو تسطو على المنسحبين فتستولي على تجهيزاتهم وأسلحتهم . تراجع الجيش فاقتا انتظامه على شكل هزيمة . وكان اكثر الجنود قد القوا اسلحتهم واستقل بعضهم البغال لينجو بنفسه .

وبينما انا في طريقي نحو الجبهة اذا برسول من قبل نواف يوافيني طالبا مني تسليم ما لديّ من الاسلحة والخيول ، لتوزيعها على رجاله لعدم استطاعة الجيش الدفاع على زعمه . فاستغربت من هذا الطلب واتضح لي سوء نية نواف . فعزمت على البطش به وبرجاله قبل ان يبطشوا بنا . قلت للرسول : ارجع الى نواف ، وقل له نحن على استعداد لتسليم ما طلب ، وعليه ان يحضر الينا لاستلامها كي لا يحدث ما يكدر . حتى اذا ما ذهب الرسول امرت بالرشاشات فأنزلت ، وتمركزت ، ثم طلبت من السرية ان تتوارى عن الانظار وراء قمة قريبة، وهي على ظهور خيولها ، حتى اذا راوا اشارتي انطلقوا وراء النواف ورجاله . وما هي الا دقائق حتى علا الفجار . وتبيننا ، فاذا بجماعة النواف وهو على رأسهم غائرين صوبنا ، وكل واحد يبغي سبق الآخرين ليفوز بالسلب . وتركناهم في غارتهم حتى اضحوا على بضع خطوات منا فأشرت للرشاشات ففتحت ابواب نيرانها فوق الهرج والمرج في الصفوف ، وانقلبوا على أعقابهم . وانطلقت سرية الخيالة بسيوفها من ورائهم . ثم امرت بتحميل الرشاشات للحال وأسرعنا الخطى في طريقنا نحو دمشق . ولقد سألت نفسي : اين كانت هذه الجموع التي أبت الظهور في ميدان الدفاع ، وجاءت مستبسلة لسلب الجيش العربي ، الذي انما جاءت على زعمها لمساندته ولنجدته .

عاد الجيش والفوضى تسوده الى دمشق . واستشهد القائد البطل يوسف العظمة في المعركة . وقد ذهب ضحية الاهواء السياسية التي لعبت دورها الرهيب في مقدرات البلاد ، والتي جرّت الجيش الى مصائب لم يكن مسئولا عنها ، والتي قادت البلاد الى استعمار لن يزول اثره قبل عصور .

وفرّ الملك فيصل الى داريا بصحبة حاشيته . وبذا خمدت انفاس الحكومة

العربية في دمشق في لحظات معدودات قضت على الاحلام الذهبية . وسجل التاريخ ظلما ، عدم اهلية الجندي العربي للدفاع . ذلك الجندي الذي امتاز بصفاته الحربية وبذكائه وشجاعته وبسالته وتقديره الموقف . مما شهد به القادة الالمان ودوته القائد فون كريس باشا في مذكراته .

هكذا كان في ميسلون ، ومثل هذا سوف يقع اذا ما فقد الجندي العربي قائدا يحسن قيادته ، يخسر معها المعركة وتحل به النكبات .

دخلنا الشام ليلة الهزيمة . وكانت اصوات البنادق تدوي في كل مكان ، والكل شارد لا يلوي على شيء . وارتفعت الاعلام الفرنسية على بعض الفنادق والمباني وكان الناس سكارى اضاعوا رشدهم . وما كدت اصل الثكنة حتى مر بي نوري باشا السعيد في سيارته ، فأوقف سيارته وطلب اليّ بلهفة ، والاضطراب بادٍ على وجهه ، ان اتوجه الى قصر الملك للمحافظة . فأسرت الى القصر وقد امتلكتني هواجس عن مصير المملكة والملك . وصرت أسائل نفسي ما الذي حدا بالملك فيصل الى ان يعود من الجبهة في مثل هذه الساعة التي تزحف فيها جيوش فرنسة على دمشق ؟ وطلبت من جنديين ان يتقدماني الى القصر لمعرفة ما يجري حوله ، وليعرجا على منزلي لتطمين اهلي بعودتي سالما . وما كادا يطلان على القصر حتى أطلق عبيد الملك النار عليهما ، فأصيب احدهما وقتل لساعته ، وعاد الثاني اليّ فوراً ينبثني بما حدث . وما كادت السرية تعلم بمصرع رفيقهم حتى عم الهرج والمرج ، وتمكنت بعد جهد من تسكين ثأرهم وتقدمت بهم الى القصر وأنا محتدم غيظا .

وصلت القصر فألفيت الملك جالسا في البهو يحيط به رجال الدولة ، والكآبة تعلو وجوههم جميعا . حيث الملك وقلت له بأنني اتيت خصيصا بصحبة سريتي للمحافظة على القصر . ثم ذكرت له مصرع الجندي وطلبت منه تسليمي العبد الذي قتله كيما أتمكن من تسكين ثائرة الجنود . فانتصب الملك واقفا ، قائلا : أهذا وقت القصاص يا فوزي ؟ اين حكمتك ؟ واين درايتك ؟ اننا جميعا معرضون الى ما تعرض له جنديك . ولم يسعني الا الرضوخ لمشيئته . وكانت السرية قد وصلت القصر فوزعتها حوله وبتنا ليلتنا في الحراسة خوف فوضى تعم دمشق ، فيستغلها البعض للايقاع بالملك . ولم تصل الفوضى ولله الحمد الى ابواب القصر . وجاء منتصف الليل من يطلب مني تخصيص جماعة لحماية الحسي المسيحي . فسرت بنفسني على رأس فريق من جنودي ، حيث بقيت في حراسة الحي المذكور حتى الصباح وعدت بعدها الى الثكنة الحميدية لآخذ قسطا من الراحة ، لانني قضيت ليلتين ونهارين بدون راحة . فاستيقظت على اصوات جيش العدو الذي ملأ ساحة المرج الاخضر . واضحت عاصمة بني امية ، عاصمة الملك فيصل يحتلها

العدو . وكان منظر دخول الفرنسيين دمشق أدهب وأفجع من منظر دخول الانكليز والعرب اليها .

وكلفني قائد موقع دمشق الشريفى المحافظة على القلعة وما فيها . وكأنني نصبت حارسا على بقايا الجيش العربى ، لاسلمها الى العدو المفتصب . اذ بينما كنت واقفا امام باب القلعة متجها الى ساحتها اذا بيد ثقيلة تربت على كتفى ، فالتفت ، فاذا بي امام الكابتن دنكلوجين ، آمر سرب الطائرات الفرنسية ، اسيرى البارحة . فسألني وهو يضحك: ماذا تفعل هنا يا صديقي ؟ اجبته بأنني محافظ على القلعة . قال لم يبق لزوم الى ذلك الآن ، لقد كنت اسيرك بالامس وها انت اصبحت اسيرى اليوم ، ومن في القلعة ايضا .

وكنت حقا والملك والمملكة اسرى بيد الفرنسيين . ودخل الجنرال غورو بعد حين دمشق والصلف والغرور ملء برديه . واخذ يخطب في المناسبات ويهدد دمشق التي لم تدق على حد قوله طعم قنابل المدفعية الضخمة . ولقد كانت الجموع التي وقفت على اطراف الطرق لمشاهدة غورو وهو يدخل دمشق جسد عظيمة . والذي آلمني وأغضبني وأحزني وجود نواف الشعلان على رأس فرسانه - وهم الذين كانوا بالامس معي في ميسلون - من جملة المستقبلين . ولم يكن ليتبدل فيهم شيء سوى علمهم العربى بالامس الذي استبدلوه بعلم فرنسي . واصبحت دمشق يوما وعلى كل باب من ابواب منازلها جندي سنغالي يطلب من اصحابها دفع ما عليهم من الفرامة الحربية التي فرضها غورو على دمشق ، وقدرها عشرة ملايين فرنك ذهبيا .

ونزح الوطنيون عن البلاد ، وارتفعت رؤوس الأسافل في كل ناحية كما ارتفعت اصواتهم . واخذ ضباط الاستخبارات يعملون ليلا ونهارا في بث الفساد بين الناس . وشرع رجال الشرطة والدرك الذين أضحوا في قبضة الفرنسيين يتعقبون الناس ويصادرون اموالهم . كما جد الفرنسيون في تسلم الاسلحة الموجودة في المستودعات ، والتي كانت اسلحة احتياطية فيها عدا عن اسلحة الجيش التي جرد منها ، كما جدوا في تسلم الاسلحة المفروضة على الاهلين حيث قضاوا في شحنها عدة أشهر . ولقد اتضح للخبراء بأن الاسلحة التي تسلمها الافرنسيون من البلاد كانت كافية لتجهيز جيش يبلغ عدده اضعاف اضعاف الجيش الذي اعد للدفاع يوم ميسلون .

وتوالت النكبات على البلاد . كما ان ينباع الحياة التي ازهرت ايام الحكم الفيصلي اخذت تجف ، وعمت الثورة حوران لما حل فيها من ارهاق . ثم كانت ثورة العلويين بقيادة الشيخ صالح العلي ودوت مدافع الفرنسيين بعد ذلك في وديان الناعور فأتت على موارد البلاد فيها . وانتقلت العاصفة الهدامة الى جبل الزاوية

فكانت مدافع الفرنسيين تحصد الارواح حصداً وتدمر القرى . ثم اتجهت موجة الارهاق الى البادية فكانت فجائع الموالى . ودامت هذه الثورات خمس سنين حيث كانت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ بعدها . فيكون الافرنسيون ، الذين ظنوا بحادثة ميسلون البسيطة خاتمة المعارك ، قد واجهوا المعارك الحقيقية مع الشعب السوري ، وكانت ميسلون مبتدأها . وظلت مدافع الفرنسيين تدوي في سماء سورية ودماء السوريين البريئة تهرق طوال السنين المتعاقبة تحت ستار تمدين شعب متأخر وارشاده .

اما الحكومة السورية التي شكلها الافرنسيون اثر دخولهم دمشق فلم تكن لتملك من الامر شيئاً . ولقد شكلوا جيشاً سورياً جديداً مؤلفاً من سبعة افواج وسبع سرايا وزعت على المناطق والمدن حسب الحاجة .

الفصل الرابع

الثورة السورية الكبرى

١٩٢٥ — ١٩٢٧

طرق باب داري ، الواقعة على الجسر قرب قصر الملك فيصل ، بعيد دخول الفرنسيين دمشق ، شرطي يطلب مني مواجهة الكابتن (هاك) في قصر الملك نفسه. دخلت قصر ملك الامس ، فاذا بجنود من المغاربة على بابه عوضا عن الجندي العربي . وقادني شيخ مغربي الى الطابق الاعلى ، وادخلوني غرفة مرافق الملك حيث يجلس الكابتن هاك ، ذاك الذي اهنته بالامس القريب في المعلقة فأوقفته مدة على باب غرفتي ينتظر . ما كاد يراني هذا حتى قام اليّ مصافحا باشاً . وبادرني بقوله ارايت كيف ان جيشا عربيا لا يستطيع مقابلة جيش عظيم كجيشنا ؟ تأثرت لهذه المفاجأة . غير اني جالدت فملكك اعصابي ، واجبته بقولي : انك خاطيء يا كابتن فلو ان الحظ قادكم الى قبول المعركة معنا في خط دفاعنا في مجدل عنجر لكان الوضع على عكس ما هو عليه اليوم . وشعر الكابتن بتأثري من حديثه ، فغير مجرى الحديث بقوله : ثق يا عزيزي انه ليس لدينا اية نية سيئة نحو هذه البلاد ، وجل مقصدنا التعاون مع ابنائها لتأمين ازدهارها وإيصالها الى درجة الحكم الذاتي؟! ثم قال ان القومندان ارلايوس يريدك . وكان هذا قد عين حاكما لدمشق . فدخلت عليه في غرفته التي كان يحتلها الملك فيصل نفسه بالامس . وكان القومندان جالسا على مقعد الملك ، كما ان كل ما في الغرفة ظل على حاله لم يتبدل منه شيء بعد .

وتكلم القومندان . ولم يخرج معنى حديثه عما تكلم به الكابتن هاك . وشعرت ان القومندان يبغى اقناعي بأن الفرنسيين انما يريدون التعاون مع رجالات البلاد

في إدارة البلاد . غير ان الهزيمة التي مني بها جيشنا قد ترك في نفسي جرحا لا يلتئم . وشعوري بسوء نية الفرنسيين جعلني افكر في الثأر ووجوب التفرغ له .

وتلقيت بعد ايام امرا بتعييني آمرا لسرية الخيالة في حماه ، فتوجهت اليها وكان الكابتن (ميك) مستشارها الاداري ممن سبق ان تعرفت عليه وعلى زوجته عندما كانا في طرابلس الشام ايام الحكم الفيصلي . وصدر امر بعد اسابيع من وصولي الى حماه بتحويل التشكيلات العسكرية آنئذ الى تشكيلات (ميليش) اي على طريقة التطوع المأجور . وتشكلت سرיתי من متطوعة الاسماعيليين في سلمية ومن شراكسة حماه . واقمت هذه القوى الميليشية مرتبطة رأسا بمستشاري المراكز . لذا اخذت علاقتي مع الكابتن ميك بصفته مستشارا اداريا تزداد رسوخا كما اصبحت موضع ثقته .

وكانت تصرفات الكابتن ميك هذا في حماه جد قاسية . وكان اشد قسوة واعتسافا للقرويين المساكين منهم . ينظم الدسائس مع جواسيسه للايقاع بمن يكرهه من مخاتير القرى وشيوخها . وكانت جنائياته لا تعد ولا تحصى . وكانت حوادثه هذه تثير من حنفي عليه وتحملني على التفكير في طريقة انقاذ البلاد واهليها من مظالم امثال هذا المستشار ومجازره . فمن اعماله التي كشفت عن سوء نواياه والتي ادت الى اخراجه من البلاد انه تنافر مع متصرف حماه وقتئذ المرحوم نوري الكيلاني ، الذي كان حائزا ثقة الجنرال غورو ، فعزم على الايقاع به . وفاتحني (ميك) يوما بأنه اطلع على كتاب مرسل من دمشق ، جوابا على كتاب ارسله نوري الكيلاني ، يشتم منه رائحة التحريض على الكابتن ، ووجوب ازالته من حماة . ويحوي الكتاب ايضا على شتائم وسباب وتنديد بالحكم الفرنسي في سورية . وانه ترك الكتاب يصل الى يد نوري الكيلاني منتظرا رد نوري عليه ، حيث يضع يده على الرد ، ويتخذ منه حجة للايقاع به . وابت عليّ حميتي ان ارى وجهها من وجهاء البلاد واشرافها يتربص به الفرنسيون ويكيدون له كثيرا . وفاتحت السيد الكيلاني بما وصل لعلمي على لسان الكابتن ميك ، وما دفعني الى تنبيهه وتحذيره . وقلت له : يجب عليك ان تجيب على الكتاب ، بشرط ان لا يكون فيه مساس بأحد ، وأن لا تكثر فيه المدح ولا الذم . وبعد ايام اتاني ميك ، قائلا : ان المتصرف انتبه ، فلم يجب بما يمكنني من ادانته به . ثم أقسم بأنه سوف يخرج من المدينة الى سجن دمشق موثوق اليدين .

وفي ذات يوم ، بينما كانت ثورة العلويين تنشر لواءها على اراضي حماة الشمال غربية ، والقبائل الرحل عائدة من تشريقها ، اصدر الكابتن ميك امرا يحظر فيه على القبائل تلك اجتياز غربي خط حماه - حمص الحديدي . وكان هذا تدبرا احتياطيا من الفرنسيين لمنع اتصال العرب بالثوار العلويين . ولم يك في شرقي الخط مرعى عدا المزروعات ، فإما هلاك الماشية او التعرض الى نكمة

الفرنسيين . أتى مشايخ العقيدات والموالي إلى متصرف حماه السيد ثوري ، وطلبوا منه الترخيص لهم باجتياز الخط الحديدي للغرب فأذن لهم . واثارت ثائرة الفرنسيين لهذا وعلى رأسهم الكابتن ميك . وأسرع اليّ يبشرني بوقوع المتصرف في الفخ . ورغب مني الإسراع إلى القبائل ، لأخذ إفادة الشيوخ ، وكتابة تقرير بما أسمعهم منهم ، أبين فيه تأمر المتصرف معهم على ارتياد المراعي غربي الخط الحديدي . وذهبت توجّهت إلى دار المتصرف حيث جلوت له الامر . وأخذ يصرخ قائلاً : كيف السبيل للخلاص من هذا الطاغية ؟ وسألته : هل وقع أمرا إلى شيخ العقيدات أجنبي بأنه أعطى ورقة بذلك . فأعلمته بأنني سأعمل جهدي لاسترجاع تلك الورقة .

وتوجهت في الصباح الباكر صوب منازل العقيدات ، وبصحبتي الضابط الفرنسي ، وترجمان لبناني لا يعرف من اللهجة البدوية شيئاً . دخلت بيت الشيخ وأخذت أصبح وأزمر على الشيخ الذي خالف أوامر الحكومة بتجاوزه الخط الحديدي غرباً . وقلت له : ان الحكومة قررت جلب المتصرف ، ولذا جئنا لنأخذ كتاب المتصرف الذي أعطي للشيخ كوثيقة تجيز صلبه . وكنت أتكلم باللهجة بدوية غامضة ، وأومئ بطرف عيني إلى الشيخ، الذي لم يلبث أن أدرك مقصدي، فأنكر استلام أي امر من المتصرف . فالتفت إلى الضابط ، وطلبت منه ان نكتب تقريراً مفصلاً ، وأن يتولى هو التحقيق ، على أن أساعده ، ويقوم الترجمان على ترجمة أقوال الشيخ . فأخذ في كتابة تقريره الذي بلغت صفحاته العشر . وهو يحوي على كلام فارغ يشتم منه وضع المسؤولية على ضابط الدرك . فكنت أنا الذي أسأل وأملئ وأترجم وأجواب . ثم التفت إلى الضابط قائلاً : ما رأيك لو أطمعت الشيخ بالدرهم فلعله يقول لنا شيئاً ندين به المتصرف . وانتحيت بالشيخ ناحية ، وطلبت منه تسليمي كتاب المتصرف فأعطانيه ، ووضعته في جيبتي . ثم عدت إلى الضابط أعلمه بأن لا فائدة من رشو الشيخ لانه لا يملك أمراً من المتصرف حقيقة . وأسرعنا إلى الكابتن ميك الذي سألنا عن نتيجة مسعانا ، فكان الملازم أسبق مني في الإجابة ، وأخذ يقرأ التقرير بغيظ ، وهو يأمل ان يجد فيه ضعفاً . ثم ذهب إلى دار المتصرف وسلمته كتابه ، فمزقه أرباً .

وعلى أثر هذا التحقيق الموفق ، عزل ميك من مركزه ، ونقل إلى خارج سورية ، وتعين مكانه القومندان (مديرو) ، الذي لم تمض مدة قصيرة على قدومه إلى حماة ، حتى كسبت ثقته واعتماده عليّ إلى حد بعيد . وصلت هدفي الأول وهو توسيع الثقة حتى تشمل أكثر رجالات الافرنسيين وأمراء الجيش ، وتم لي ذلك تدريجياً كما أردت ، وأصبحت محل ثقة كبار القواد والمستشارين .

وقد جرت بيني وبين كاترو في الشام مفاوضات كثيرة من أجل تثبيت رتبتي ، وتعديل أوسمتي ، التي لا يجوز لي حملها وتبديلها بأوسمة افرنسية .

وحاول اقناعي بأنني اذا قبلت رتبة ملازم ثانٍ في الجيش الافرنسي ، فهو يعدلني بشرفه بأنه لن يدعني زيادة عن شهرين بهذه الرتبة ، حتى يرفعها الى رتبة ملازم اول ، ومن بعدها انال رتبة كابتن ببراءة من وزارة الحربية الافرنسية ، عوضا عن رتبة الكابتن التي أحملها حاليا وهم لا يعترفون بها ، فرفضت .

وكان الفرنسيون يرسلونني برفقة كل حملة يجردونها على العرب . وكان من عادة حملاتهم ان تعيث فسادا بالقرى وبأهلها وأموالها . وكثيرا ما كانوا يقتلون القرويين دون أن يعرف لذلك سبب ، بمجرد تهمة او شبهة ، او لجهلهم بما يجيبهم به القروي الساذج . وكم من مظالم حلت بأهالي القرى عند خروج أمثال هذه الحملات . فكنت بعد ان تمكن نفوذي بين الافرنسيين وقويت ثقة قوادهم ومستشاريهم بي ، أحول دون وقوع أمثال هذه الاعمال . وكسبت بذلك حب القرويين وصدقتهم وثقتهم الى أقصى حدودها . ولما رفضت مقترح الكولونيل كاترو ، وأصررت على المحافظة على رتبتي وأوسمتي التي رأت ثلاث دول في الكفاءة لحملها قرر الافرنسيون تكوين سرية أقودها، المقصود منها اختبار معلوماتي العسكرية ومقدرتي . ولقد سميت بسرية فوزي ، على ان تكون التجربة ستة اشهر . وربطت بالجيش الفرنسي العامل . ولم تمض الستة اشهر حتى رفع الافرنسيون تقارير عن مقدرتي وأهليتي ، انتهت بمنحي رتبة كابتن من وزارة الحربية الفرنسية ، وبتعييني على رأس سرية خيالة من القوة السورية (اللجون سيري) وعينت علاوة على وظيفتي العسكرية معاونا للمستشار الفرنسي بحماة . وهكذا اتسع نطاق نفوذي .

وحضر ذات يوم الكولونيل روبير آمر لواء الخيالة في سورية ليشاهد مناورات لوائه الذي جمعه في حماة . وكان على كل سرية واجبات استكشافية تقوم بها مستقلة ، تقطع خلالها مسافات بعيدة ، تنتهي بفوز احدى السرايا على الأخرى لتعلن كأفضل سرية ، ولقد انتهت المناورات والتمارين بفوز سريتي حيث أعلن فوزها .

ولقد كان لهذا النجاح صدى عظيم بين وحدات الجيش ، فكنت موضع استغراب وتقدير في وقت واحد . وكانت الدهشة تسود نفوس الضباط الفرنسيين من تفوق ضابط سوري مع سرية سورية على سراياهم .

وتلقت ذات يوم ، وأنا مأذون في طرابلس ، برقية من مستشار حماه يدعوني للعودة على جناح السرعة . وأخبرني بمقتل مصطفى بك العظم في قرية الهبيط من قرى حماه ، وان البعض قد سقطوا عليه فقتلوه . وان حماه هاجت وان الاهلين جمعوا جموعهم لتأديب القتلة . وقد وجدت المستشار مقتنعا بوجوب السماح للأهليين بتعقّب القتلة ، كما انه أقنع بدوره كاترو الذي استحصل على

موافقة المندوب السامي . أخبرني المستشار بما وقع ، وطلب اليّ بذات الوقت مرافقة هذه الحملة ، فاعترضت ، لعلمي ان في الامر ما فيه من سوء نية تؤدي الى اسالة دماء ابناء الوطن الواحد، وبذر التفرقة والفساد ، حيث يسبب اشتباك الاهلين بعضهم مع بعض قلاقل تستلزم تدخل الجيش الفرنسي لقمع الاضطراب . فسألني رأيي في الامر ، فأبدت له ملاحظاتي ، بأنه اذا اذن للاهلين بالاقتصاص بأنفسهم ، فما هو واجب الجيش اذن ؟ وأبنت له ما ينتج عن ذلك من محاذير متوخيا صرفهم عما عزموا عليه . وورد على المستشار جواب من كاترو فيه تأنيب لانقياده الى فكرة الاهلين ، وتحسين رأيهم لدى المراجع العليا . ولقد طلب اليه اتباع رأيي القائل بأن على رجال الدرك القيام بواجب التحقيق في الحادث . فصدع المستشار بالامر ونلت بهذا ثقة المستشارين من جهة ، وبعض آل العظم من جهة ثانية . وبذا تمكنت من التصرف بأفكار المفوض السامي والمندوب الممتاز في دمشق ومستشار حماة كما اردت لصالح البلاد .

وكانت الحكومة الفرنسية لا تزال ترهب جانب البدو ، كما ان البدو كانوا يخشونها . وكنت اسعى دوما لتجسيم الوهم في نفوس الفرنسيين للتخوف من البدو . وكانت قد نشبت خلافات بين عشائر الموالي والعقيدات أدت الى اقتتال بينهم . فأرسلت الحكومة اولا الدرك ، ثم عززته بوحدات من الجيش لتفريقهم . فلم تفلح هذه القوة في تفريقهم ، ونشبت معارك بين القبائل والجند انهزم على اثرها الجنود بخسائر فادحة . وتفرقت القبائل على الاثر خشية ارسال الافرنسيين حملات عليهم . فآثر هذا الحادث في نفس القيادة العامة الافرنسية، وقررت تجريد حملة قوية جدا . واعتبرت الحادثة فرصة للتأديب ونزع سلاح هذه القبائل . وقررت القيادة ضرب كل عشيرة وحدها . فاستهدفت اولا الموالي الذين انسحبوا لقضاء المعرة . وطلب الجنرال حضور المشايخ الى حلب ، فلم تلب مشايخ الموالي هذه الدعوة . وكانت المفاجأة بمعركة تعتبر من اشد المعارك هولا في سورية . وكانت تلك الصفحة الرائعة لبطولة وبسالة وخبرة في فن القتال بهرت الفرنسيين .

وما ان ظهرت هذه القوات بمصفحاتها وفرسانها وطائراتها في المضارب حتى هرعت ابطال هذه القبيلة للملاقاة العدو ، بينما كانت النساء يحملن بيوت الشعر وأثقالها على ظهور الأباقر ونشبت المعركة على طول دائرة تحيط بالقبيلة . وبرز في هذه المعركة وجه البطولة العربية الحقيقي ، والخصائص الحربية التقليدية . ولم تمض بضع ساعات ، حتى توقف هجوم الافرنسيين ، وتحت ضغط العرب ومهارتهم بدأ الارتداد ، ثم الهزيمة الشنعاء . وكان وقع هذه المعركة في نفس القيادة والجنود على اسوأ ما يمكن . فأراد الافرنسيون استعادة هيبتهم ومعنوياتهم . فجمعوا حملة أخرى مثلها ، وأخذوا يشدون النصر والثأر هذه المرة من قبائل العقيدات ، لاعتقادهم انهم أضعف من الموالي . ولكن العقيدات ، الذين

كانوا يتوقعون مثل هذه المفاجأة كانوا على استعداد. فنشبت المعركة، وكانت هزيمة
الفرنسيين في هذه المرة اشنع وابشع منها في المرة الاولى . كان لهذه المظاهر من
البطولة النادرة ونتائجها تأثير كبير في القيادة الفرنسية ، التي اخذت تحسب
الحساب لها ، وفي نفس الوقت اخذت اكتشف منابع جديدة من القوة العربية
في عناصر عربية جديدة بالنسبة اليّ .

وجاء موسم جباية ضريبة الجمال من القبائل البدوية . فدفع الخشوف
الفرنسيين الى اعداد حملة كبرى يسرونها لارهاب البدو من جهة ، ولجباية
الضريبة من جهة ثانية. وجاءني الكولونيل كاترو يرغب مني مرافقة الحملات
العسكرية ، قائلا : بأنه جلب قوة من دمشق ، واخرى من حمص وتدمر .
وستتجمع معا في قرية الحمراء ، حيث تسير منها نحو منازل البدو . قلت له:
ان جباية الضريبة على هذه الصورة قد يسبب اشتباكا مع البدو نحن في غنى عنه
الآن . ويجرنا الى استخدام معظم الجيش وربما انهزم . الامر الذي يدعو الى
التفكير في طريقة اخرى لحل هذه المشكلة ، لذا اقترح ارسالي مع سرتي ، لاقوم
بهذه المهمة . فرحب الكولونيل كاترو بهذه الفكرة ، وتحركت بصحبة سرتي ،
التي كان من ضمنها ضابطان فرنسيان وكانت هذه اول حادثة من نوعها في الجيش
الفرنسي : كون ضابط فرنسي يعمل تحت امرة ضابط سوري . وسرت الى
قرية الحمراء ، ومنها الى مضارب قبائل السبعة حيث اجتمعت ببرجس بسن
هديب شيخ مشايخ السبعة فأسررت له بوجوب الامتناع عن دفع الضريبة ، على
ان يطلب من الفرنسيين مساواته مع ابن مهيد وابن شعلان، حتى اذا دفعوا الضريبة
دفع هو . وطلبت منه عدم تفريق عشائره ، وتجميعها في منطقة واحدة . فاذا
ما ضايقناه فليرحل ناحية الشرق قليلا . ثم التفت الى الضابطين الفرنسيين
اوهمهما ان الضغط على هذه القبائل يؤدي الى خطر وخيم العاقبة ، لذلك يجب
ان نأخذهم بالملاينة والسياسة ، فاقنعنا برأيي . وعدت الى قرية الحمراء ومنها
الى حماة .

وطرق باب داري ذات ليلة العبد نحراف ، وهو عبد لبرجس ، يعلمني بأن
الضابطين الفرنسيين اخذا يضايقان برجس ، فصرخت بالعبد قائلا : على برجس
أن يعمل حسب اشارتي له . فاذا ضيقوا عليه رحل الى الشرق . غير ان العبد
رجاني كتابة كلمة الى سيده بهذا المعنى ، وعاد العبد برسالتني . وكان برجس ،
على اثر مضايقة الضابطين له ، طلب منهما امهاله حتى يجتمع مع رؤساء القبائل
للمشاورة . وكان يقصد من وراء ذلك انتظار جوابي . فلما وصل العبد اليه وقرا
كتابي صارحهم بقسوة انه لن يدفع شيئا . فبهتا لهذا الانقلاب . ولما سألاه عن
سبب تمنعه ، قال : هذا ما أمرني به فوزي بك . وكانت فرصة سانحة لهذين
الضابطين للإيقاع بي . فعمدا الى استدراجه ، فقلا له: اذا كان ما قلت هو الذي
أوصى به فوزي بك ، فنحن طوع لأمره . فأبرز لهما كتابي . ونسخا صورة

بالعربية بواسطة الترجمان . ثم ترجماه الى الفرنسية . ثم كتبا تقريراً ضافياً ابانا فيه خيانتى ، وايدا تقاريرهما التي ذكرنا فيها سوء نيتي وقيامى بمؤامرات ضد سلاح الجيش .

وجئت صباح يوم العيد المستشار . فاذا بي اراه غاضباً عليّ . سألتني : ما هذا الكتاب ؟ فشعرت للحال بأن كتابي الى برجس قد وقع في يده . فالتفت سائلاً : اي كتاب تعني ؟ قال : الكتاب الذي ارسلته الى برجس . قلت : نعم ، اني بعثت به الى برجس اخذاً المسؤولية على عاتقي ، لاني بعلمي ذلك قد انقذتكم اولاً ، وانقذت الجيش من معارك دامية ، وانقذت حياة الضابطين الفرنسيين اللذين كانا في الحمراء . والدماء التي سالت من الجيش الافرنسي في معاركهم مع الموالي لم تجف بعد وقد كان سببها حماقة ضباط استخبارات ، وتقاريرهم غير الصحيحة . فسألتني : وكيف كان ذلك ؟ قلت : ان الضابطين ذهبوا الى برجس يهددانه بأنه اذا لم يدفع لهما الضريبة بظرف اربع وعشرين ساعة فسوف يسوقان عليه الجند لتتكلم به وبعثائره . ولم يسع برجس عند سماعه تهديدهم الا ان يجمع عشائره بغية القضاء على السرية ومن فيها من الضباط الافرنسيين ، والهرب مع رجاله الى حدود العراق . وان الاقدار هي التي دفعته الى استشارتي ، فأرسل عبده اليّ ، فأقنعه بالعدول عن هذه الفكرة ، وطلبت منه الابتعاد برجاله عن الحمراء الى حين حضوري . وانت ترى حالة البلاد من الفوضى ، والجيش يكاد يكون منهمكاً بجمع قواه في اخضاع العصيانات والثورات التي تتوالى كل يوم ، وفي كل بقعة من البلاد ؛ وحالة المدن ليست بأحسن من حالة من هم خارجها . وهذا ما دفعني لاتحمل المسؤولية . ولولا عملي لكان الجيش الفرنسي الآن يخوض المعارك مع القبائل المرتبط بعضها مع بعض من شمالي سورية الى اراضي نجد . فآثرت كلماتي فيه ايما تأثير ، ثم سألتني ولم لم تخبرني عما حدث في حينه ؟ قلت : ان الامر جد خطير وكان يتطلب السرعة درءاً للخطر ، وإني لم آت اليك الآن الا لاخبرك بما حدث . وكنت اتوقع منك الشكر والتقدير . فنهض المستشار مصافحاً . ثم أخذت انهال على الضابطين باللوم لشططهما وطيشهما . ثم اثبت له عدم تمكني من العمل مع امثال هؤلاء الذين لا بد وأن يسببوا للبلاد وللجيش كارثة تقع على ايديهم . واذا بي اراه يرفع تقارير الضابطين ، ويمزقها . ولم تمض ايام حتى كان هذان الضابطان في طريقهما الى بيروت ، حيث تلقيا امراً بوجوب العودة الى فرنسة ، على الا يعودا الى سورية مرة ثانية . ولقد عظمت في عين المستشار قوة البدو وخطرهم ، وضرورة مداراتهم في اخذ الضريبة . وبذا انقذت موقفي وتخلصت من غطسة الضابطين ودسائسهما وخلصت القبائل البدوية من اعتساف الفرنسيين وفتكهم .

وكانت البلاد التي جزئت الى دويلات ، والتي اوضحت في ايدي حكامها الفرنسيين ومستشاريها قد وصلت الى درجة من الضعف ظاهرة . وحالة البلاد

الاقتصادية تنبئ عن افلاس ؛ فالذهب الذي ازدادت كميته اثناء الحكومة الشريفة تسرب معظمه الى فرنسا ، وحلت الورقة السورية محله . وافتقرت البلاد الى الرجال العاملين المخلصين ، اللهم الا القليل الذين لا يستطيعون المجاهرة بأرائهم ، او القيام بعمل وطني نافع . ولم يبق في الميدان الا الشعب ، وهو الجوهر ولكن لا قيادة له ولا تنظيم . بينما كان الافرنسيون يفرضون الضرائب والغرامات . والبلاد بما حل فيها من نكبات جسام صائرة الى خراب واستعباد لا محالة . وكانت تجري في هذه الفترة حركات في جبال الزاوية ، يتزعمها المرحوم ابراهيم هنانو . وكان لها علاقة بالحركات التركية التي تجري في جنوب الاناضول . الجيش الفرنسي منهمك في حركات يائسة في كيليكيا في الاناضول وموقفهم يتطلب دوما ارسال نجدات متوالية . وخفت المعارك في جبل الزاوية ثم هدأت تماما . وهذا الهدوء سبب اختلافات ما لبثت ان توسعت واكتسبت طابعا خطرا وهدد ابراهيم هنانو بالقتل وترك الجبل على الاثر . وفي هذه الفترة يطلبني المستشار على عجل ، ويطلبني على برقية وردت من كاترو ، يعلمه فيها ان ابراهيم هنانو ترك الجبل وتوجه نحو الجنوب . وانه الآن في جوار جبل بلعاس شرقي حماة ، وانه ارسل هجاة تدمر وقوة من حمص واخرى من دمشق لتقطع عليه الطريق وتقبض عليه ، وانه يعلق اهمية كبرى على اعتقاله شخصا . لذلك يطلب اليه ان يرسلني مع سريتي وقوة مصفحة من حماة لتعقبه، والتعاون مع بقية القوة المحتشدة للقبض عليه . فكان موقفني حرجا جدا ، فاصفيت للأوامر ، وافهمته ان لا حاجة لقوات مصفحة ، وانني سأصطحب معي قسما من القبائل . فقبيل . واخذت افكر بطريقة انقاذه شخصا ، وفتح الطريق امامه للوصول الى حدود الاردن . فانطلقت حالا نحو الشرق وطلبت من الشيخ صالح السرب مع بعض رجاله ان يوافيني الى قرية عقربات . فتركت السرية نحو عقربات بقيادة ضباط ، وانطلقت بسيارة مع بعض رجالي الذين اثق بهم ، والتقيت بالشيخ صالح الذي وصل اليها في نفس الوقت . وكانت تنقلات ابراهيم هنانو تأتينا اخبارها من عملاء الافرنسيين والمخافر . والتقيت بالشيخ صالح الحرب في القرية واطلعت على قصدي من انقاذ ابراهيم هنانو . وكتبت له كتابا موجهة الى ابراهيم هنانو بتوقيعي وطلبت منه ايصاله اليه ، وهو يبعد عنا مسافة ١٠ كم تقريبا . والكتاب يتلخص بعزمي على انقاذه شخصا ، وعن ترتيبات الافرنسيين في طريقه ، والتي لا يمكن التملص منها في مثل هذه الايام من القبط الشديد ، ولا يوجد في طريقهم اي مورد للماء . لذلك اقترحت عليه ان يأخذ بعض العناصر المهمة ، ويترك الذي لا شأن لهم به . وتمثل معركة صورية مع هؤلاء ، وأعين القيادة في القضاء على جماعة هنانو ، فتسحب القوات الافرنسية من الطريق ، بينما هو يتابع طريقه نحو شرقي خمير الى الصفا فالاردن . وافهمته الشيخ صالح ان يوضح له الموضوع تماما بعد تسليمه كتابي . وجاوبني المقدم خالد مردم بك الذي كان معهم ، وهو ضابط عربي ووطني ، فشكرني ، وأبدى رغبة في قبول الخطة تماما . وفي المساء ترك هنانو مركزه ، وكانوا على قسمين اكثرهم فسي

المؤخرة . وكانت السرية قد وصلت ، فوجهت نصفها بقيادة الضابط الافرنسي للشرق ، وانطلقت أنا على اثرهم . وهكذا أبعدت الضابط عن حضور تمثيلية المعركة فكانت المعركة مع المؤخرة . ويظهر انهم لم يعطوا التعليمات اللازمة لهذه المؤخرة فكان الاشتباك جديا . والمهم انه اثناء القتال فسحنا المجال امام ابراهيم وجماسته . واستسلمت هذه المؤخرة وكان فيها خالد بك وكثير من الجنود الالمان وبعض العرب . وكان مجموعهم حوالي السبعين مقاتلا وقع منهم في ايدينا اكثر من النصف والباقي تمكن من الإفلات . وأعلمت القيادة بالقضاء على قوة ابراهيم هنانو . وانسحبت القوات . وهكذا أنقذت ابراهيم هنانو من كارثة محتمة .

وكانت سياسة الانكليز في سورية مبنية على التقارير التي تقول ان فرنسا ، على الرغم من السنوات السبع التي احتكت فيها بطبقات الشعب ، لم تتمكن من فهم حقيقته وميوله وأخلاقه وصفاته . لذلك بقيت تتخبط في ظلام دامس وتجرّد الحملات لتخمد الثورات بغية استقرار سياستها . ولكنها لم تفلح ، مكبدة البلاد لهذه الاخطاء النكبات . فساءت حالة البلاد ، وضعفت مرافقها . وكانت ثورة مصطفى كمال في الاناضول وصلت الى أشد ساعاتها خطرا . وتأكد لدينا نجاح الترك وانتصارهم في النهاية ، بعد ان كانت حركات مصطفى كمال في نظرنا عبارة عن اعمال عصابة مدفعية لا تلبث ان تقضي عليها جيوش الحلفاء المنتصرين في الحرب الكبرى . ولقد أمن الاتراك لانفسهم بانتصارهم ذاك حرية واستقلالاً . وكان لانتصاراتهم أثر عظيم في نفسي ، وفي نفوس الكثيرين . وأخذنا ننظر الى حالة العرب ، فتوهمنا في البداية اننا فقدنا مزايانا الحربية التاريخية .

وبينما كانت نفوسنا ثائرة بتأثير نضال الترك في الاناضول ، اذا بأخبار الريف العربي لا تقل روعة عن اخبار الترك . فزادت في حماسنا اتقادا واتجهت مشاعرنا كلها الى اعمال ابناء جلدتنا العرب ، وعلى رأسهم البطل عبد الكريم في المغرب ، الذي كان يقاتل أعداءه بشروط لا تقبل قياسا . وأظهر من البطولة في قتالهم ما جعلنا نعتقد ان الخصائص العربية لا تزال موجودة ، فاشتعل حب التضحية في نفوسنا وجعلنا نتبع خطاه . وكان اهتمامي بما يقع في المغرب عظيما ، فأخذت في طلب خرائط ميادين النضال في الريف ، وأخذت اتبع كل ما تكتبه الصحف الفرنسية وغيرها عن طراز القتال وتطوراتهِ . وأصبحت بعد حين محيطة بدقائق الموقف من الوجهة العسكرية والسياسية في الريف المراكشي .

ولما علمت باستعراض المارشال ليوتي لقوات فرنسة في مراكش ، وجمعه الوحدات من اطراف الجزائر ، تأكد عندي نشوب حرب بين فرنسة وعبد الكريم . وكان هذا طبيعيا ، لانه لا يمكن للفرنسيين ان يرضوا بوجود مقاطعة عربية في افريقية ، خشية سريانها الى افريقيا العربية بكاملها . فكان لزاما على فرنسة ازالة عبد الكريم ، الذي كان خطره اشد وطأة على الفرنسيين من الاسبانيين .

واخذت اسائل نفسي : اليست الفرصة سانحة لنا لنقوم بدورنا بتضحية فسي سبيل انقاذ سورية ؟ وقد اصبحت لديّ الخبرة التامة بمزايا شعبنا ومؤهلاته الحرية واساليب القتال عند الافرنسيين . وقد امتلأت نفوس القواد والضباط بما اصابوا من غنائم ثمينة ، أصبح الحفاظ عليها يهمهم اكثر من الحفاظ على سورية . وقد ملّ اكثرهم كثرة القتال والضحايا . وشرعت في البحث عما اذا كانت فكرة كهذه يعتنقها بعض رجالات البلاد او الاحزاب . وبعد بحث لم اقع لها على اثر ، فعزمت ان اكون انا بطلها .

وفاتحت ذات ليلة بعض الخلف من اخواني ، المطلعين على افكاري بوجوب القيام بثورة ، وترتيب ما يلزم لها فوافقوا وتعاهدنا . وكانوا في بداية الامر قليلين جدا ، هم السادة : سعيد ترمانيني وعبد السلام الفرجي ومحمد علي الداغستاني والرحوم عبد القادر مليسر وطاهر الداغستاني ، وبعض ضباط سريتي . وعزمتنا اولا على تأسيس حزب ديني لجذب العلماء صوبنا ، والنفوذ منهم الى الشعب ، الذي هو كنز القوة . واسمينا حزبنا بحزب الله . وبادرت في ارجاء لحيتي وصرت اتعمم ليلا ، واظهر بشكلي الجديد في معظم مساجد البلدة ، حيث احضر صلوات المغرب والعشاء والصبح . ولم يكن لتفوتني صلاة في وقتها اما نهارا فكنت ارتدي ملابس الضابط الافرنسي وعلى رأسي البرنيطة . وتطورت العلاقات بيني وبين العلماء الى صداقة ، واخذت اعز لهم بوجوب توحيد دروسهم وخطبهم في المساجد ، وانتقاء الآيات القرآنية الحاضرة على الجهاد ، وتفسيرها وشرح معانيها للعامة . وزيادة في الحيلة ولستر أعمالي ، عمدت الى اعلام المستشار بانتسابي الى الاحزاب الدينية ، مبينا له ان القوم ، لانتسابي الى الجيش الفرنسي ، أخذوا ينعنونني بالكفر ، فلا بد لي من الظهور بقيافة دينية والانتماء الى احد الاحزاب . فدهش المستشار وسألني عن الاحزاب الدينية تلك . فذكرت له الطرق القادرية والرفاعية والنقشبندية وغيرها . وقلت ان هذه جميعها سخافة ولكن لا مانع من مماشاة رجالاتها . فشجعني على عملي ، وقطعت لهذه الوسيلة الطريق على كل من توسوس له نفسه بإيصال أخبار حزبي الى الفرنسيين .

ومددت يدي ، بعد ان امنت لنفسي مركزا محترما ، الى طبقة الشعب ، وفيها الكنز الذي لا ينضب معينه ، فتعاهدت مع فريق من المخلصين من اصحاب النفوذ . وطلبت من كل واحد منهم اختيار عشرة اشخاص من اصدقائه ومعتمديه . ثم مددت يدي الى الوجهاء الذين كانت الشائعات قد سبقتني الى آذانهم ، فتعاهدت مع فريق منهم فارضا على كل واحد منهم ما يستطيع اعداده من مال ورجال مسلحين . وتوسع من ثم حزب الله ، وانتسب اليه كثيرون . وكنت اشعر بإخلاص كل من انتمى اليه . وبعد ان تم لي النفوذ على جميع طبقات الشعب ، عزمت على مفاتحة رجالات الدين . وفاتحت المرحوم الدكتور صالح قنباز ، فلم

يجب الثورة ؛ اعتقادا منه ان ليس في البلاد قوة تستطيع مجابهة الفرنسيين .

وزرت نجيب آغا البرازي في قصره ، وبادرته بما يجول في نفسي ، فدهش استغرابا . وأخذ يسألني عن التشكيلات ، وعن طرق العمل . فأوضحت له لحد ما . غير انه رغب بتأجيل العمل مدة لإنجاز الحصاد ، وجمع المحاصيل . فطلبت منه عهدا ، وفرضت عليه ما يمكنه القيام به من المعونة ، وبتأمين سفر مندوبنا الى المدن على نفقة البلدية ، التي هو رئيسها ، وتقديم مساعدات مالية . وتمكنت بواسطة دخول نجيب آغا في حزبنا من الاتصال بكثير من وجهاء حماة ، الذين اتوسم فيهم الخير . ونفذت الى خارج حماة ، فشملت التشكيلات مدن حمص وبعبك وطرابلس والمرة ودير الزور . وشرعت اخيرا بمفاتحة ضباط الجيش السوري بعد ان ادخلت في الحزب كثيرا من عرفائه ونوابه . وكان كثير من الضباط يترددون في قبول دعوتي .

واخذت اخبار الشائعات تصل الى اسماع المستشار عن بعض ما قمت به من التشكيلات . فكان المستشار لا يأبه لها ، ويردها بإزدراء ، لتأكده من اخلاصي ، وان ما تحدث به الناس لا يتجاوز ما ذكرته له من انتسابي الى تشكيلات الاحزاب الدينية . ومن ثم ادخال معظم عرفاء الجيش السوري الموجودين في حماة الى حزبنا . واخذت بالتجوال في المراكز العسكرية خارج حماة واتصلت فيها بالضباط والعرفاء بعد ان مهدت السبل الى ذلك برسل بعثتهم قبل اتصالي بهم . وكنت للتأكد من درجة معرفة المستشارين في حمص وحماة بأعمالي ، اذكر لهم بأنني اسمع شائعات كثيرة هذه الايام عن وجود تشكيلات ثورية في البلاد . وكنت من جهة اخرى اتصل برجال التحري ، وأطلب منهم الانتباه لما يحدث في البلاد ، كما اني كنت الفت نظر اخواني بوجوب الاحتراز من رجال التحري .

فكنت ادير بهذه الصورة المستشارين ورجال التحري ورجال حزبي والوجهاء بحكمة ولباقة وبشكل لا يمكن ان يفضح تشكيلاتنا ، ويخلق لنا الصعوبات قبل الاوان . فكانت أمورنا تسير سيرا حسنا . وعرض يوما على مستشار حماة ، الكولونيل موريبو ، منصب حاكم جبل الدروز . فاستشارني في الامر . فقلت له : قم بجولة في جبل الدروز قبل قبولك المنصب او رفضه ، تدرس فيها احوال الجبل ، وذهبنا معا الى جبل الدروز ، وسنحت لي الفرصة للاتصال ببعض رجالات الجبل اثناء تجولنا في مدنه . وعشنا حاولت العثور على من يوافق على فكرتي . ولم اكن ادري هل كان ذلك ناتجا عن عدم ثقة من فاتحتهم بي ، ام لا ؟ وعدنا الى دمشق ، واتصلت بالاخ توفيق الشريف ، وأطلعته على بعض نوابي ، وسألته اذا كان له اية صلة برجالات جبل الدروز . فقال لي : ان نسيب بك الاطرش ، معتمد جبل الدروز في دمشق ، صديقي المخلص . وهو وطني يعتمد عليه . فذهبت توا بصحبة الاخ توفيق الى منزله ، واخذت اشرح له بعض ما تم

من التشكيلات ، وما تأمله من نتائج باهرة في ثورتنا . فتعاهدنا على ان يبت فكرة الثورة بدوره في الجبل ، ونجعل منه معقلا وقاعدة للثورة .

وتشكل في دمشق حزب الشعب برخصة رسمية . وادخلت من رجالنا في هذا الحزب ، كيما يطلعوا على نوايا القائمين عليه ، وهل ثمة فكرة ثورية عندهم . وبعثت الاخوين سعيد ترمانييني وعثمان حوراني الى مركز الحزب في دمشق ، وكانا موضع ثقة حزب الله وحزب الشعب . فاتصلا برئيس الحزب الدكتور شهنندر ، ففتحاه بالامر ، واطلعه على ما ننوي القيام به ، وذكرنا له اننا معتمزون على الثورة ، ومن المستحسن ان تضم جهود حزب الشعب الى جهودنا ، فاذا كان لديهم شيء من التشكيلات الثورية تفاهمنا من اجل توحيدها . فأجابهما الدكتور شهنندر سلبا . وقال لهما ان فكرة الثورة الآن خطيرة ومضرة جدا لمصلحة البلاد . واتممنا تشكيلاتنا قبل ثورة الجبل . وكانت اعمال البطل عبد الكريم حقا هي المحية لنا بثورتنا .

وكان المستشار موريو قد ذهب ماذونا الى فرنسة ، وحل الكومندان كوستيلير مكانه . فتقربت اليه ، وسلكت معه الطريقة نفسها التي سلكتها مع زملائه السابقين . وكان الفرنسيون قد اتوا في جبل الدروز من اعمال الظلم والارهاق وسوء الادارة والسياسة والاستهتار برجالات الجبل ، وبتقاليده وعاداته ، وإهانة رجال العلم والازدراء بهم ، ما لا يطاق . كما ان سورية كانت تئن من اعمالهم . فرفع رجالات الجبل ظلاماتهم الى المندوب السامي والى مستشاريه ، ولكن احدا منهم لم يسمع شكاية ، وكان الكابتن كاريه حاكم الجبل يمثل الحاكم بأمره المستبد المطلق التصرف . وكان له من رجال المفوضية الفرنسية جماعة يناصرونه . ولما تعين الجنرال سراي مندوبا ساميا لسورية انجذب الى هذه الجماعة . وبالرغم من الشكايات التي أبداها رجالات الجبل ، لم يبال برغبات الشاكين ، بل عمد الى تحقير الوفد الذي جاءه شاكيا ، وأمر باعتقال رجاله ، ونفيهم . وطلب في ذات الوقت من سلطان باشا الاطرش ان يأتيه ليواجهه ، وهو ينوي من وراء ذلك نفيه مع بقية الزعماء . غير ان سلطانا لم تنطل عليه الحيلة ، فرفض دعوة المندوب السامي . من اجل ذلك بعث الفرنسيون بسريتين الى القرية ، حيث يقيم سلطان باشا للقبض عليه . وكان سلطان متوقعا مفاجأة كهذه فوصلت الاخبار الى الفرنسيين قبل وصول الحملة الى القرية ، بأن سلطانا على استعداد لمجابتهم فيما اذا أصر الفرنسيون على دخول القرية . فعدل قائد الحملة ، ورجع الى قرية الكفر ، حيث عسكر فيها . واخذ يرأسل سلطانا ، ويطلب منه الحضور اليه . وتطورت الحالة في الجبل الى ثورة نفسية ، ولما علموا باعتقال زعماء الجبل زحف سلطان بجماعته على قرية الكفر ، واشتبك مع الافرنسيين بمعركة حامية قصيرة الامد قضوا على السريتين بكاملهما .

وحضر الجنرال سوليه بتاريخ ٢٠ تموز سنة ١٩٢٥ ، وهو مفتش الخيالة،

ليفتش وحدتنا ، اطلعني على ما يجري في جبل الدروز من حوادث . وكانت معركة الكفر التي سلف ذكرها قد انتهت بخسارة الفرنسيين . وأخذ الجيش في تجميع بعض الوحدات ، للقيام بأعمال واسعة في جبل الدروز ، وكان أكثر هذه الوحدات من شمال سورية . وتقدمت من الجنرال سوليه بملاحظات عن وجوب ادخار كثير من الأسلحة والعتاد والقنابل اليدوية في الثكنة ، لان انسحاب قوى الشمال الى جبل الدروز مما يؤثر على منطقتنا حتما . وطلبت منه اعطائي الصلاحية الواسعة لاستعمال هذه الأسلحة عند حدوث ما يكدر ، لإيقاف الخطر عند حده ، خوف استفحال الامر . ومما قلته للجنرال سوليه: ان فكرة المستشار الاداري القائلة بوجوب اخذ الامور بالسياسة والادارة لا يفسر في نظر الشعب الا بالضعف والخوف . فاقنع الجنرال بنظريتي ، وأذن لي باستعمال الصلاحية التامة في شؤوني العسكرية .

وما ان غادرنا الجنرال سوليه حتى جئت الكومندان كوستيلر، بصفتي معاونا له ، أعلمه بأن الجنرال يرى لزوم البطش والإيقاع بالناس . وقدوقعنا تهوره في ورطة . وطلبت منه حمايتي من الجنرال ، وإعطائي الصلاحية الواسعة لاختذ الشعب ورجال البادية بالهودة والحلم والكياسة . فغضب كوستيلر بدوره على الجنرال ووافقني على ما طلبته منه ، وبهذه الصورة حظيت على السلطة الواسعة عسكريا وإداريا . وضاعفت ثمة جهودي ، وشرعت في مباحثة ضباطنا فسي الشرطة والدرك، وأخذت منهم العهد . وكنت أعلق أهمية كبرى على هجانة تدمير. وكان منهم فصيلان في القريتين ، وفاتحت عرفاءهما ، فوافقوا . وجعلت احدهم رئيسا لهم ، وعينت رسلا للاتصال بيني وبينهم وزودتهم بخبرة خاصة . واخذ كل يعمل في دائرة اختصاصه . وتم لي بذلك الحصول على عناصر قوية اعتمد عليها في ثورتي المقبلة .

ثم شرعت في وضع برامج التشكيلات الادارية لداخل حماة وخارجها. وكان من المقرر جعل نجيب اغا البرازي حاكما لحماة .

والتفت الى تنظيم البادية ، فاتصلت برؤساء العشائر ، وتعاقدت معهم ، عما يجب عليهم تقديمه من الرجال المسلحين من خيالة ومشاة . وما يجب علي تقديمه للشيخ ورجاله من رواتب . وكان بطل هذه التشكيلات البدوية الشيخ صالح الحرب. وهكذا شملت التشكيلات اكثر قبائل البادية وأمنعها . وكان والذي قد سمع بما اقوم به من تشكيلات ، فزارني متسائلا ، ولم اخف عنه شيئا من امري، فساورته المخاوف لاحتمال نقض من عاهدني ، ورجائي الانسحاب لو كان باستطاعتي ترك هذا الامر . فأجبتة : لقد عزمتم ، وتوكلت على الله فيما انا مقدم عليه ، وقضي الامر الآن ولا يمكنني الانسحاب . قال اذن توكل على الله . وكانت زيارته تلك آخر عهدي به ، رحمه الله . اذ توفي الى رحمة الله اثناء اقامتي في

كركوك . وودعني والداي ودعوا لي بالتوفيق ، وقفـلا راجعين الى طرابلس الشام .

وكانت الفرصة سانحة لإعلان الثورة ، والظروف جد ملائمة . وكنت كلما عينت موعد الشروع بالثورة كان نجيب اغا البرازي وآخرون من اخواني يطلبون مني التأجيل ، فكنت اوافقهم مضطرا . واستفحل امر حوادث الجبل ، وكانت معركة المزرعة أغسطس ١٩٢٥ ، التي اندحر فيها الافرنسيون . ثم كانت معركة المسيفرة ١٧ سبتمبر ١٩٢٥ . وعلى الاثر اخلى الافرنسيون القسم الشمالي من سورية من قواهم الاساسية ، لحشدتها في حملة عامة على جبل الدروز . فكانت الفرصة سانحة . وكانوا يعتمدون عليّ في هذا القسم .

وجاءني المرحوم مظهر السباعي ، وهو من اعضاء هذه التشكيلات فـي حمص ، فأطلعته على آخر ما وصلت اليه التشكيلات ، والفكرة في تنفيذها ، والوقت الذي يجب البدء به . ولقد انتدبته للتوجه نحو سلطان باشا الاطرش قائد الثورة العام ، مستصحباً معه بعض الشبان الوطنيين الذين يعتمد عليهم . فذكر لي اسم الاخ الوطني منير الرئيس فوافقت وتوجهنا . وقد كلفته : اولاً : اطلاق سلطان باشا على ما اعدناه من ترتيبات . ثانياً : ان يقوم سلطان ببعض الحركات اوائل تشرين الاول ، لاستجلاب ما بقي من القوات الفرنسية في دمشق وازرع نحوه ، حيث يفسح لنا المجال للعمل . ثالثاً : تعيين نقطة الاتصال ، واعتماد احد رجاله ليكون صلة وصل بينه وبين رسولي الذي ابعثه اليه . رابعاً : اعلامي اذا كان لديه اي اقتراح . وكانت هذه التعليمات شفوية لم يخط منها حرف واحد .

ذهب المرحوم مظهر السباعي بتعليماتي الشفوية فحملها الى سلطان باشا الاطرش . ولقد اطلع عليها الدكتور شهنندر . وحدث يوماً ان كنت في نادي الضباط وترتيبانا كاملة وثورتنا على وشك الانفجار . ودار الحديث حول حوادث الجبل الخطرة . فقلت اننا الآن في خطر ، وتحت رحمة اية ثورة يقوم بها اي رجل في شمال البلاد ، فماذا نستطيع عمله . وضربت بنفسي مثلاً : قلت ولنفرض ان قام فوزي القاوقجي ، واعد ثورة ، واعلنها في هذه الآونة ، وفي هذا المكان ، فماذا عساكم تفعلون لاتقاء شر هذه الثورة ، والمعروف ان الجيش بكامله منشغل في معارك جبل الدروز ؟ فعلت القهقهات من كل جانب . واجابني احد الضباط الافرنسيين بقوله : ما علينا اذا حدثت ثورة الا ان نعد حقائبنا ، ونسرع الى ترك حماه . قلت : وانا معكم ؟ وقد اردت بهذه المداعبة الخطرة دس النبض لمعرفة نفسية اولئك الضباط .

وكانت جيوش فرنسا قد اشتبكت في القتال مع قبائل الريف بقيادة عبد الكريم . واخذت اخبار انتصاراته تصلنا . كما كانت تصلنا اخبار نجات فرنسا

الرسلة الى مراكش . وهذا ما شجعنا على المضي بما عزمنا عليه ، حيث كنت متاكدا من عدم استطاعة فرنسا ارسال نجدات الى سورية في وضعها الحاضر . وكانت ترتيباتي قد تمت ، ولم يبق عليّ الا التنفيذ . وتوجهت الى المستشار مقترحا عليه لزوم خروجي الى البادية لمراقبة قبائل العمارات الآتية من العراق ، وترحيلها عن المعمورة الى الشرق ، كي لا يكون نزوحها الى اطرافها سببا في وقوع ما يكدر . وخرجت من لدنه فأعددت من جنود السرية الذين عاهدوني ، فريقا ، وعلى رأسهم السرجان ميشال نحاس ، ومراسليّ احمد الفركلي وعلي المغربي الذين قاموا بضروب البطولة في كافة حركات الثورة . حيث بقوا مخلصين وصابرين معي حتى نهاية الثورة السورية . وكنت اتفقت مع الإخوان على جعل ليلة المولد ليلة الثورة . وكان المقصد من خرجتي المبكرة توثيق العهد مع رجالات القبائل خشية انتقاضهم ، ولإعلامهم بميعاد ثورتنا . فاتضح لي ان كل شيء يجري على ما يرام . ثم طلبت من اخواني في حماة ان يتصلوا بحمص وليبعثوا وفدا من رجال حزبنا ليشاهدوا ما نقوم به في حماة ، ولينطلقوا ليلتئذ الى حمص لمباشرة اعمالهم . وطلبت من حماة ارسال سيارات الى قرية مدريك ، حيث اودعنا خيولنا ، لنعود الى حماة . حتى اذا وصلتنا عدنا الى المدينة . وذهبت توا الى دار احد رجالنا حيث دعوت رجال مفارزنا واستفهمت منهم عن استعدادهم . فأجابوا بالايجاب . فأعددت مفارز لقطع خطوط التلفون داخل البلدة وخارجها ، ومفارز أخرى لمحاصرة منزل المستشار ودور الضباط الفرنسيين والقاء القبض عليهم احياء ، لنتخذ منهم أسرى ولنفتدي بهم رجالنا الذين قد يقعون بيد الفرنسيين فيما بعد . ثم اتصلت بنفسي بقوات موقع الشرطة واخذت منهم كلمة السر المعطاة تلك الليلة . ثم شرعت في التجول مع فريق من رجالنا الجنود كدورية لحفظ الامن . كما اتصلت بسائر الثكنات ، فأرسلت من تسلق جدرانها ، وايقظ الجنود من نومهم ، فلبسوا ثيابهم استعدادا . وكان المقرر ان لا يقوموا بحركة قبل اصدار امري . وكان عليّ ان اجمع مفارز الاهلين التي كنت اعمل عليها بالدرجة الاولى كي لا توصم الثورة بعصيان قسم من الجيش ضد قسمه الآخر ، بل لتكون لها صبغة وطنية باشتراك الشعب فيها .

وتوجهت الى دار احد اخواني البرازيين ، التي تقرر اجتماع الرؤساء فيها ، لتلقي آخر الاوامر للشروع . غير ان الدقائق مرت وتلتها الساعات دون ان يصلنا احد . فكم كانت دهشتي لتخلف اخواني عن المجيء اليّ والساعة الآن تشير الى الثانية والنصف بعد منتصف الليل ! فأيقنت بفشل خطتنا تلك الليلة . ولم أر بدا من الحزم والصبر . وبعثت اوامري للحال الى المفارز كلها بوجوب تأجيل الشروع الى إشعار آخر . وكان سبق لمفارز قطع الاسلاك ان اتمت مهمتها . وعدت بالمفرزة الى مدريك حيث وضعنا خيولنا ، وبعثت بتقرير الى المستشار أعلمه فيه عن تمكيني من ابعاد قبائل العمارات ، وبقيّة القبائل عن المعمورة دون اي حادث مع ضمان عدم وقوع ما يكدر صفو الامن . وكان تقريري ذاك الصادر عن مدريك التي

تبعد سبع ساعات عن حماة مع الصباح عند المستشار . كما وصلت بقية التقارير عني اليه في الوقت نفسه ، وانني كنت الليلة البارحة في حماة . وامتلات البلدة بالشائعات . وكان المستشار بين مصدق ومكذب ، غير انه لم يجد بدا من التريث لتعرف احوالي .

وبلغتني تطورات حوادث جبل الدروز ؛ اذ تمكن الفرنسيون من حشد قوى كبيرة في ازرع تحت قيادة الجنرال غاملان ، الذي سار بها باتجاه السويداء وتمكن بعد معارك حاسمة من احتلالها في ٢٣ سبتمبر ١٩٢٥ ، وانقاذ حاميتها من الأسر ، وفك أسر الجنود الذين وقعوا في ايدي الدروز في معركة المزرعة . وقد انسحب سلطان باشا على اثرها جنوبا ، وتفرق كثير ممن كان معه من اخواننا السوريين ونزح بعضهم الى حيفا والقدس ، كما وصل البعض الآخر الى القاهرة . وفي ٤ اكتوبر دخل الجنرال غاملان قرية عري واستسلم الامير حمد للفرنسيين . وايقن الافرنسيون بأنه قد انتهى امر الثورة عند هذا الحد واخذت الاسلاك تنقل البشارات الى انحاء فرنسا كلها . لم اجد امامي الا الاسراع في الانقضاء على حامية حماة بما يمكنني جمعه من المجاهدين ومهما كلفني الامر على ان اضع الجميع هذه المرة امام امر واقع لا يمكن اجتنابه . وقررت ان تكون ليلة ٥ تشرين الاول ١٩٢٥ موعدا للشروع . وكان على مفامرتي يتوقف مصير الثورة وانقاذ الجبل ، وسحب القوات الفرنسية منه الى حماة . وبمفامرتي وحدها نتمكن من احياء الثورة .

وقمت صباح يوم الجمعة في ٣ تشرين الاول ١٩٢٥ بجولة بين القبائل ، معينا لهم يوم الاحد المقبل ٥ تشرين الاول ١٩٢٥ موعدا للشروع في الثورة . وبعثت رسلا الى حماة لدعوة هيئة اخرى للاجتماع عصر يوم السبت في ٤ تشرين الاول في قرية معر شعور على بعد كيلومترات من حماة . وكان سائق سيارتي الذي وضعه المستشار تحت تصرفي ، يسألني بين آونة واخرى عن سبب تجوالي الفريب . فكنت اجيبه بأنني افتش عن فرس منهوبة لاعيدها الى صاحبها . وكان السائق ممن لهم صلة بالمستشار . حتى اذا وصلت القرية ، وكان الاجتماع ، بعثت السيارة مع جنود على راسهم ميشال واحمد الى فصائل السرية المتمركزة في جعلين ومجردة حيث امرتهم بالقضاء القبض على الضباط الفرنسيين ، وسوقهم اليّ موثوقي الايدي ، وتسليم قيادة الفصائل الى عرفائنا ، حيث يسرون باتجاه حماة حسب التعليمات المعطاة . حضر اخواني من حماة ، وحضر كذلك بعض مشايخ البادية . وبينما نحن في احاديثنا عن وقائع الجبل اذا بالسيارة تعود الينا حاملة الضباط الافرنسيين موثوقي الايدي . فادخلوا الى المجلس ، حيث اعلنت للاخوان بأن الثورة قد بدأت فعلا ، وان الضباط الآن تعرفوا على كل فرد من اعضاء مجلسنا ، وليس ثمة من سبيل لتجنب وقوعها . وكانت مباغثة لم يجد اخواني معها بدا من مواجهة الامر الواقع . كما بهت الفرنسيون لوجودهم وجها

لوجه مع هؤلاء ، وأنا بينهم . وهم لا يدرون سبب القاء القبض عليهم ، ولا ما سيحل بهم . وطلبت حالا من كل فرد ان يسجل ما امليه عليه من الاوامر لتنفيذها . وكلفت احد اخواننا ، ممدوح ، المتكفل بتجنيد مفرزة من رجال قراه أن يسرع الى وادي الساروت ، لقطع الطريق على الجنود الثلاثة المرسلين من الفصيل الذي أسرنا ضباطه ، وهم يحملون بريدا الى حماة . طالبا منه عدم تمكينهم من الوصول الى حماة ، اما بقتل العريف الارمني وجنديه ، واما بأسرهم . فتظاهر بالانصياع الى أوامري ، ولكنه عوضا عن التوجه الى وادي الساروت للقبض على الرسل الثلاثة ، ذهب توا الى مقابلة مستشار حماة ، يخبره عن اعلاني للثورة . واخذ المستشار التلفون ، وعبثا حاول الاتصال بالفصائل في مراكزها . وعندها أبرق المستشار للحال الى بيروت ودمشق وحمص وحلب معلنا ثورتي . واتخذ كل ما استطاع اتخاذه من التدابير للدفاع عن المدينة ؛ سد ابواب الثكنات بالحجارة ، وأقام المتاريس على سطوح الثكنات ببالات الحشيش المضغوط ، وعزز حامية السراي بسرية جلبها من حصن الشوفة ، غير ان هذه الترتيبات والحيلة والحذر جاءت متأخرة . وكانت ثورة حماة وزن الثقل الذي رجع كفتنا في النصر . فأنقذت ثمة الجبل ، وادت الى اخلائه من جيوش العدو وهزيمته ، والتزم خطة الدفاع بعد ان كان مهاجما . وفتحت امامنا ابواب ميادين سورية للثورة . وبهذه الترتيبات والاعمال التي قمنا بها تحت ظل رجال الجيش ورجال الامن الافرنسيين ، خلال اربعة اشهر ، انخذل الذكاء والدهاء الفرنسيين أمام ذكاء العرب ودعائهم .

وطلبت مشايخ القبائل الذين تعاقدت معهم للحضور لمواجهة . ولما حضروا ، علمتهم أن الثورة أعلنت ، وان الهجوم سيبدأ هذه الليلة على حماة ، وطلبت منهم جمع رجالهم في مكان ، وإرسال مراقبين منهم على التلال المشرفة على حماة . والوعد بيني وبينهم لهيب النار الذي سيشاهدونه مندلما في حماة . عندئذ يحضرون ويتلقون التعليمات بشأن واجباتهم مساء ٥ تشرين الاول ١٩٢٥ مع صوت المؤذن عشاء «الله اكبر» . وحلت الليلة الرهيبة ، ودخلت حماة مع غياب الشمس ، لدار السيد الكيلاني ، المقرر اجتماعنا فيها . حتى اذا تم اجتماع الاخوان ، قمت فخلعت عني قيافة الجندي الفرنسية ، ورفعت القبة التي على رأسي بكل احترام لأنها ، وثوبي العسكري ، كانا خير درع ، تمكنت به من إعداد الثورة ، ولولاهما لكانت ثورة حماة ، وما نتجت عنه امرا مستحيلا .

كانت تنحصر خطة مشروعنا بما يلي : الاستيلاء على مخافر الدرك والشرطة والاستيلاء على اسلحتهم وعتادهم . تخصيص مفرزة بقيادة سعيد ترماني لحمية حي المسيحيين من اي تعدد . الهجوم على السراي واطلاق سراح المسجونين ، والاستيلاء على ما فيها من اسلحة وعتاد . ثم كان علينا بعد انجاز الصفحة الاولى من الخطة ، الهجوم على الثكنات في اليوم التالي واحتلالها .

اخذت المفازز مكانها المقرر . وجعلت بدء الشروع اذان المؤذن وقت العشاء .

فكان خير وسيلة يتوسل بها لابلأغ جميع المفارز الامر بالشروع في لحظة واحدة . وما كادت كلمة التكبير تدوي في سماء حماة ، عشاء الليلة ، حتى دوت معها اصوات البنادق في جميع اطرافها . وما هي الا سويغات حتى تم الاستيلاء على المخافر كلها . فتجمعت قوى الفرنسيين داخل السراي التي هاجمناها في نفس الوقت . وبعد قتال عنيف دام حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، تمكنا من اقتحام البهو الرئيسي ، والاستيلاء عليه ، وإخلاء سبيل المساجين ، والاستيلاء على ما وصلت اليه ايدينا من البنادق والعتاد والسيوف وتمكن من بقي حيا من رجال الحامية من الافلات من ايدينا ، بفتح ثغرة في جدار السراي الخلفي المطل على اسطبلات آل العظم . ولقد كانت خسارتنا في الانفس جد عظيمة ؛ اذ كنا ، ونحن المهاجمين ، مكشوفين تحت ضوء القمر ، بينما المدافعون كانوا يقاتلوننا وهم في ظلمة حالكة . وتمكن الثوار من إشعال السراي بما فيها ، كما اشعلوا دائرة اخرى واقعة على الجسر . وتعالى النيران وشاهدها المترقبون من البدو . تمت هذه الصفحة الاولى من اعمالنا بنجاح عظيم .

تمكنت من جمع قوة من رجال الشعب المجتمعين في مختلف انحاء المدينة ، وبعثت رسلا الى القبائل بوجوب اللحاق بنا في اليوم التالي . وقد اوفى رجال البدو بما عاهدوني عليه ، فجاءني فريق كبير منهم في الصباح . فجمعت قوانا في محلة الحاضر ، ثم شرعت في توزيعها على منطقة الجسر ، وعلى الدور المشرفة على حماة ، وفريق في المآذن المسيطرة على ثكنات الجيش . ولقد حاول الفرنسيون الخروج بخيالهم من الثكنة ، ولكنهم ما كادوا يصلون الجسر حتى قابلهم رجالنا بنيران مؤثرة ، ردوهم على اعقابهم . وظلوا قابعين في ثكناتهم طوال مكوثي في حماة .

وما اوفت الساعة السابعة صباحا ، حتى ظهرت طائرة مقاتلة في سماء حماة ، حلقت فوق محلة الحاضر ، حيث قذفت قنابل ثقيلة . ولقد تمكنا من إصابتها فاضطرت الى الانسحاب والسقوط خارج المدينة . وابتعدت بعد وقت قصير طائرة اخرى ، واخذت تقذف قنابلها على الحاضر ، وعلى احياء المدينة . ولم تلبث ان ولّت بعد ان اصببت . واشتد وطيس المعركة . ولقد استطعنا الصمود امام جنود ثكنة المرباط ، والحقنا بمن فيها خسائر فادحة . ولقد ارسلت مفرزة من خيرة رجالنا لمحاصرة دار المستشار ، الذي سبق ان احاط داره بالجنود ، ونصب مدفعا رشاشا ، اخذ يطرنا بمقذوفاته . واندلعت السنة النيران في اطراف حماة ، خصوصا في سوقها الكبير . وتمكن رجال الثكنة الملاصقة لسوق السمانة من الدفاع ضد هجومنا بقنابلهم اليدوية . ولقد اظهر رجالنا من البطولة ما يعجز عن وصفه القلم ؛ اذ انهم كانوا يتلقون ما يقذفهم به رجال الثكنة من القنابل اليدوية قبل انفجارها فيسرعون الى قذفها على الجنود ، حيث تنفجر .

وفي اللحظة التي اشتد فيها ضغطنا على حامية حماة ، والتي ايقن فيها الافرنسيون انه لا مناص لهم من الوقوع بأيدينا لقمة سائفة ، ارتفع علم ابيض فوق دار المستشار ، فتعالت اصوات رفقائي ، واكثرهم من الجنود والسجناء . ولم نر بداً من ايقاف قذف دار المستشار . وظهر في هذه اللحظة من خارج حماة ، خارج الدور ، نجيب آغا البرازي ، في عربة ، وحوله فرسانه الذين لم يشترك احد منهم معنا ، متجها نحو دار المستشار . فأسرع الثوار الى رميمهم فأمرت بعدم الرمي ، لانني كنت معتقدا أن نجيبا انما جاء لاستلام المستشار . اذ كنت حاولت الاتصال بنجيب آغا الليلة البارحة وصباح اليوم ، طالبا منه ارسال ما تعهد به البرازيون من رجال وفرسان ، فلم اتمكن . وعلمت انهم متجهرون بأسلحتهم في دورهم داخل المدينة . فداخني الشك من موقفهم الشاذ ، وعدم قيامهم بما تعهدوا لي به . وعند رؤيتي نجيب آغا ، ومن معه ، استبشرت وأيقنت انه انما قدم ليشارك معنا . دخل نجيب آغا دار المستشار . ولقد علمت فيما بعد بأنه انما جاء للاتصال بالمستشار والتفاهم معه ضدنا . ومراد نجيب آغا ان يفهم المستشار بأن هذه الثورة التي اعلنها فوزي القاوقجي ، لا علاقة للأهلين بها ، وانما هي عبارة عن عصابة من الجنود قاموا ضد فريق آخر من الجنود انفسهم . واستقبل المستشار نجيب آغا بغضب شديد ، مهددا . ومما قاله له : ان فرسة التي قهرت المانيا لن تعجز عن إخماد الثورة وان اهالي حماة مسؤولون . ولا يمكن لنجيب آغا ولا للأهلين تبرير موقفهم من الثورة ، الا اذا نادوا بسقوط تشكيلات فوزي ، وإجبار فوزي ورجاله على ترك المدينة . وبدون هذا لن يتمكنوا من تجنب المسؤولية التي سوف تقع على رؤوسهم . وظل العلم الابيض مرتفعاً على دار المستشار حيث خدعنا به . ولو انزله لتيقنا من خيانة نجيب آغا في تلك الساعة، ولتابعنا ضغطنا على دار المستشار من جهة ، وهاجمنا البرازي ورجاله من جهة اخرى . حتى نتمكن من القبض على الجهتين .

وخرج نجيب آغا من لدن المستشار ، وبدلاً من أن يأتي صوبنا لإخبارنا بما جرى بينه وبين المستشار على الأقل ، اتجه صوب دور الوجهاء مرسلًا جماعة من رجاله للاتصال بالمجاهدين ، طالبا من الجميع الكف عن قتال الافرنسيين ، مهددا بورود نجيدات عظيمة منهم . ولم يتورع عن التنديد بأعمالي ، وانني كنت المسبب في خراب حماة . وان على الحمويين ، اذا ارادوا دفع الكارثة ، ان يجبروني على ترك المدينة ، والخروج بمن معي . وبذا تمكن نجيب آغا ورجاله من التأثير على الاهلين ، وعلى الاخص على المجاهدين ، فأخذوا ينفضون من حولنا ، ومع كل ذلك لم يتمكن الفرنسيون من الظهور أمامنا . ومر في هذه الاثناء قطار الجنوب، متجها الى حلب . فأرسلت حالا مفرزة كي ترميه بعض الطلقات ، تنشر الرعب في ركابه فيحملون معهم اخبار الثورة الى حلب . وتعمدت ذات الوقت اطلاق النيران الكثيرة ، فأسرع القطار في سيره وهو لا يلوي على شيء .

كنا قطعنا الاتصال بين الشرفة وبقية الثكنات . حيث انعزلت تماما . وكانت ثكنة المرباط والموقف قد خمدت نيرانها ، وضعفت حاميتها لدرجة عدم استطاعتها متابعة الدفاع . واستحالتا الى مستشفى من كثرة الاصابات التي وقعت فسي الجنود ، حيث امتلأت بالقتلى والجرحى . ولم يعد يسمع صوت طلقة . فكان الثوار هذه اللحظة منتصرين على المراكز العسكرية كافة . ولم يبق الا حصار تحكيمات الشرفة ، وقطع الخطوط الحديدية شمالا وجنوبا عن المدينة . ولكن ويا للأسف ، قد اثمرت جهود البرازي ، فلم نفعل .

وجاء في اللحظة من اخبرني باجتماع يعقده وجهاء المدينة في دار الكيلاني وكان نجيب آغا قد عقده لاقناعهم بالتخلي عني . فأسرعت اليها فاذا بي امام علماء البلدة ووجوهها ، وكان معظمهم ممن عاهدني عهد الله وميثاقه على جهاد الافرنسيين . فوقفت فيهم خطيبا حيث أعلمتهم ما نحن عليه من التفوق والفوز في هذه اللحظة . فرد السيد فريد الكيلاني ، قائلا : انك يا فوزي عاهدت الله ، ووفيت . اما نحن ، فلا نشعر بقوة تدفعنا لتحمل هذه المصيبة الدقيقة واحدة . وان لك الوجه الابيض . فأجبت بآني لم أعاهد لخوض معركة واحدة ، وإننا سادة الموقف الآن ، منتصرون على الفرنسيين القابعين في ثكناتهم ، وانهم لن يستطيعوا الخروج لمقابلتنا ما دام سلاحنا في أيدينا . فهبوا للوفاء بعهودكم . فاذا لم تفعلوا وخرجت من بلدتكم ، فوالله ستحل عليكم المصائب ، فادفعوا الوهم عن رؤوسكم ، واستعينوا بالله وثقوا بنصر يأتيكم من لدنه .

ولم يكن جوابهم على خطبتي الا البكاء والنحيب . وعشا حاولت اقناعهم . وافرئع عني كل من قاتل معي الا مراسلي الامين الجندي علي المغربي . فاتجهت بعد ان وصلت ثورة حماة الى هذا الموقف ، شطر القبائل ، لإثارتها ، ونشر الثورة في ربوع البادية . خرجت من حماة تحت ستر الظلام ميمما شطر منازل الموالي ، الذين سبق لهم ان عاهدوني . حتى اذا وصلت بيت الشيخ فارس العطور ، سألته منفعا : اين العهد الذي عاهدتني ؟ اجابني : انني في انتظار امرك . قلت : ارسل حالا بضعة فرسان من رجالك الى محطة كوكبان لحرقها . فلم يتأخر الشيخ . ثم طلبت منه فريقا من الفرسان للهجوم على حامية المعرة . فأعسد لي ما طلبت . ويمت المعرة حتى اذا جنّ الليل كمنت في احد وديانها حتى الظهر . حين بعثت حامية المعرة خيلها لبئر واقعة خارج الثكنة لسقيها . وكانت الحامية نصبت الرشاشات على أسطح الثكنة ، وأعدت لمفاجأة اي طارق عدتها .

خرج الفصيل الاول للورود . حتى اذا رجع الى الثكنة ، وخرج فصيل آخر ، انطلق رجالنا مغيرين كالعاصفة . وتمكنا من الوصول الى قلب الخيل ، قبل ان تتمكن جنود الرشاشات من طلقة واحدة . فقتل احد الضباط وعدد من الجند . وغنمنا ما يقارب الثلاثين فرسا وعددا من بنادق الجنود وعدنا الى مخيم الشيخ

غانمين ، دون اية خسارة تقع فينا . وعم المنطقة فوضى ، بعثت السلطة على اثرها طائراتها ، وقطارا مصفحا لتأديب قبائل الموالي . وبدا نجحت الصفحة الثانية من الثورة ، وهي نشر الثورة خارج حماة . وبقيت عشيرة الموالي في اشتباكات مستمرة مع الافرنسيين .

وتركت قبيلة الموالي ، وتوجهت انا ومراسلي المغربي ونجسدة من عشيرة العبادات يرأسها احمد الكردوش ، صوب منازل السبعة معاهدي ايضا . وطلبت من الشيخ افراز جماعة من قومه لمشاركتنا في الهجوم على قرية الحمراء، المتمركز فيها فوج الجيش للاستيلاء على اسلحته . فبعث معي عددا كبيرا من رجاله . وتبعنا كذلك رجال كثيرون واباعر لتحمل المنهوب . وسرنا بآخر الليل . وخفت من كثرة الجمع الذين يصطحبهم كثير من غير المحاربين ، من فوضى تحصل خلال المعركة ، فتعرض لخسائر كبيرة دون فائدة . فعمدت الى حيلة قد تنظلي على الفوج الفرنسي وهم منقطعون عن بقية الجيش ، ومعنوياتهم لا بد ان تكون متحطمة . لذلك اخترت رسولا ارسلته اليهم يعلمهم بقدمونا على رأس عدد عظيم من الثوار كامل العدد . وطلبت من الرسول ان يبالغ في وصف قوانا ، وان معي جموعا عظيمة من رجال القبائل وان يطلب منهم اجرا على خبريته . وطلبت اليه في الوقت نفسه ان يتجسس لنا عن ترتيباتهم على ان يوافينا بالاخبار قبل الوصول الى اطراف القرية . واقبل رسولنا مع الصباح نحونا يبشرنا بأن الجيش انهزم من القرية ، تاركا فيها بعض معداته وأرزاقه . وانتشر الخبر بين رجال البدو . وعبثا حاولت توجيه جموعهم لقطع الطريق على الجيش المنهزم ، والاستيلاء على اسلحته . فقد آثروا الهجوم على القرية والاستيلاء على متروكات الجيش . وفي لمحة كانت المنهوبات محملة على ظهور الخيل والإبل ، حتى ظهور رجالنا انفسهم . ومع ذلك تمكنت من اصطحاب قسم لا بأس به من الفرسان ، وانطلقنا وراءهم . وما نشبت المعركة حتى هرع اهالي القرى الموجودة في جوار الطريق ، واشتركوا في القتال . ولقد مني الفوج الافرنسي المنهزم في طريقه الى حماة بخسارات فادحة ، اذ لحقت به بقية اهالي القرى التي مر بها ، وتمكن اخيرا من الوصول الى مدينة حماة ، ولكن بحالة يرثى لها، وبكثير من الخسائر في معداته وأرواحه.

وجرت مخابرات على اثر استفحال امر ثورة حماة بين الجنرال غاملان والجنرال سراي اذ أصرّ هذا على وجوب ترك ثلث القوى الفرنسية في الجبل وسوق الثلثين الى حماة ، لآخماد ثورتها . فاعترض الجنرال غاملان لاعتقاده بعدم استطاعة هذا الثلث الصمود امام قوى الدروز في الجبل . والح بوجود سوق جميع القوى الى دمشق وحماة . فنزل سراي على رأي زميله ، وأخلى الجبل من الجند وأبقى حامية قوية في ازرع . ولقد اعترف رون دوكيه في احد تقاريره ، كما أقر بذلك الجنرال سراي ، بأنه لولا ثورة حماة التي قام بها احد الضباط السوريين ، الحائز لثقة القواد الفرنسيين الاداريين والعسكريين منهم ،

لقضي على ثورة الجبل بدخول الجنرال غاملان السويداء . ولكن ثورة حماة اضطرتنا الى سحب قواتنا من الجبل ، وسوقها الى سورية ، التي عمت الثورة أرجاءها ، وجعلتنا نشعر بأننا نعسكر في بلد معاد . وكان من اهم نتائج ثورة حماة حقا انقاذ الجبل ، وفتح ابواب الغوطة وإقليم البلان والقلمون وسائر الميادين امام الثوار . وهكذا تحولت الثورة الدرزية الموضعية الى ثورة سورية شاملة ، دامت ما يقارب السنتين .

قضي الامر ، وعمت ثورة حماة جميع القبائل القاطنة ما بين حماة وحمص والدير ، وشعر الفرنسيون بخطورة الموقف في شمال سورية الخالية من الجند . ولم يبق امامي بعد اثاره تلك القبائل الا ادخال محجم بن مهيد زعيم قبائل الغدعان في عداد الثوار . وكان علينا لاستدراجه ان نثير نخوته القبائلية ، وان نؤكد له عدم مقدرة الفرنسيين على البقاء في البلاد ، وان لا نضيع هذه الفرصة لانها لا تتكرر . وكتبت اليه بهذا المعنى . وتمكنت اخيرا من اقناعه بأن يرسل فريقا من رجال قبائله لنا لمهمة قطع الطريق بين الفرات وحلب . فقبل وأرسل بعض من ينتمون الى عشيرته . وانقطعت الطرق في شمالي الجزيرة وعمت الفوضى . وكان سبب تخلفه هو تخوفه من قبائل العقيدات التي يعتقد بمواليتهم للفرنسيين . وكانوا يقطنون اطراف دير الزور وعلى ضفاف الفرات . ولقد اشترط وجوب اشراك قبائل العقيدات المذكورة لانضمامه اليها . فكان لا بد لي من الاتصال بمشايع العقيدات . فسرت مع رفيقي الشيخ احمد بن كردوش شيخ العبادات الى مشايخ العقيدات ، لاقناعهم . فأقسموا لي بعدم الاتيان بأية معركة ضد قبائل ابن مهيد ، فيما اذا اشترك معنا في الثورة ، بالرغم من تخوفهم من الشيخ نجرس العقود شيخ قبائل الدليم . على اني اذا جئتهم بعهد من نجرس بعدم التعدي عليهم ، ثاروا معي . وكانت قبائل الدليم تنزل ضفاف الفرات ، ضمن الحدود العراقية . وعدت بذاكرتي الى سنواتي الاولى في الموصل ، يوم انقذت الشيخ نجرس نفسه من المشنقة . وتركت منازل العقيدات ، واتجهت صوب تدمر ، وشاهدت سيارة تقترب من مخيمنا ، فأشرت على سائقها بالوقوف . فاذا بها جماعة من تجار الاغنام في حلب . ورغبت منهم اعطائي سيارتهم لشدة حاجتي اليها ، على ان اعيدها اليهم بعد ايام . فأبوا . فاضطرت الى اخذها . وكان سائقها مصريا . وأخذت لمرافقتي الحاج مصطفى الديب احد ثوار حماة وطلبت دليلا شمريا ، عالما بمسالك طرق العراق جيدا . وسارت السيارة بنا في البراري والهضاب حتى وصلنا حدود العراق . وسلطنا في بعض الاودية ، وخرج علينا جنود عراقيون وبأيديهم اسلحتهم ، وتقدموا صوبنا ، واضطرونا الى النزول في هذه النقطة العسكرية التي أسست جديدا على الحدود ، اثر حوادث الثورة السورية .

ادخلنا الجنود الى احدى الخيام ، وقام رئيسهم بسؤالي عن هويتي ومقصدي من سفري . أجبتته بأنني تاجر اغنام حليبي ، وان رعاة غنمي من قبائل عنزة ، واني

أت الى اول مدينة عراقية لمشتري بعض الملابس والفراء لهم . قال عليك اذن الذهاب الى الرمادي ، حيث تعرض على متصرفها امرك . وكان في هذا القضاء المبرم على حركتي . ودام الأخذ والرد بيننا مدة . وفيما نحن في جدالنا عرفني احد جنود المخيم ، وكان سابقا هجانا في الجيش التركي ، وفي الجيش الافرنسي فيما بعد . فتحايل صارخا في وجهي وهو يجرنى اليه ، متباعدا بي عن رئيسه . وسألني : الست فوزي ؟ قلت : نعم ، انا هو . قال : اعلم انك والله هالك اذا لم تخرج حالا من هذه النقطة . لان لدينا تعليمات بعد اعلان الثورة السورية بوجوب الفاء القبض على اي شخص يجتاز حدودنا ، وارساله الى الرمادي . وعما قليل يأتي الضابط الانكليزي ، وعندها يمسي الامر مشكلا . ثم قال اسمح لي أن اختلق موضوعا لشتك وطرده ، على ان لا تجابهني . وبادرني الجندي بسبابه وطردها شر طردة . ولما ابتعدنا عن المخفر سردت على رفاقي ما وقع بيني وبين الجندي ، وما اتفقنا عليه . وحين أصبحنا على بعد ساعات من عانة ، وهي اقرب بلدة عراقية منا ، نفذ بنزين السيارة ، واضطررنا الى دفعهما بأيدينا مسافة ما ، لمداراتها في احد الاودية . وبعثت الدليل وأحد الرفاق الى عانة لمشتري ما نحتاجه من البنزين والطعام . ثم اتجهت بنا السيارة نحو (هيت) حيث ينزل نجرس العقود . وكانت قضية الموصل وقتئذ قائمة بين الترك والانكليز . وقد سبق للاتراك ان ارسلوا دعائهم وجواسيسهم الى اطراف العراق ، فكان لزاما على السلطة ان تتخذ الحيطة والحذر . لذا كان الوصول الى هيت دون لفت نظر المخافر من الصعوبة بمكان . فأمرت السائق بتجنب الطريق والاتجاه نحو القبيسة . حتى اذا ظهرت علينا بساتينها ترجلنا ، وبعثنا بالسيارة الى الرمادي لانتظارنا فيها . سرنا في بساتين القبيسة ، حتى اذا حاذينا كوخا على ضفاف الفرات التقينا اصحابه الذين خالونا اترাকা ودعوا لنا بالنصر . وتدرجت فسي حديثي معهم الى ذكر نجرس العقود ومكان نزوله . فأشار احدهم بيده نحو القصر الواقع قبالتنا وبعثت اخبره بأنني صديق حميم له من الموصل . وبعد هنيهة جاءني فعرفته بنفسه ، فرحب بي ، وقال انه على اتم استعداد لطرده الحكومة العربية من البلاد . وهو يخالني ضابطا مرسلا من قبل الترك . وكان قد سبق ان عاهدني على الاخلاص لهم ، ليبرهن لي انه لم ينس العهد الذي قطعه . ولكني طمنتته بقولي : اني لم آتيك لهذا . ثم اخذت في سرد ما وقع لي منذ أن فارقت والغرض الذي من اجله آتيته . واطهر استعداداه للموت معنا . فشكرته . ثم ذكرت له خطورة موقفي من حكومة العراق ، واني أخشى ان تعلم بأمرى . وان الامر الذي من اجله قصدته الحصول على عهد خطي منه بعدم تعدي قبائله على قبائل العقيدات . فنأدى (الملا) ، وأملى عليه عهدا بتأمين قبائل العقيدات على أنفسها وأموالها . ثم كتبت كتابا الى صاحب الجلالة الملك فيصل ، وآخر للمرحوم احمد مريود اعلمهما بتفاصيل ثورة حماة وما تبعها من الاعمال .

وشاعت الاخبار بوجود رجل غريب ، قد يكون جاسوسا تركيا عند نجرس

العقود ، فأخذت السلطة تتحرى الامر . ودخلت كوكبة من الفرسان باحة القصر . وكنت وقتئذ متنكرا بلباس عربي ، لا يستطيع اقرب المقربين الى معرفتي فيه . وكنت اتقن اللهجة البدوية ، فشرعت ابحاث بعض من كان في المجلس عن المراعي الخصيبة التي جذبتنا للنزول فيها . ثم التفت الى نجرس قائلا : انني منصرف الساعة الى منازلنا على الضفة الغربية . وخرجت من قصره ، حيث تواريت عن الانظار . حتى اذا خرجت الدورية من القصر خرجت من مخبئي وعدت الى نجرس ، حيث طلبت منه إعداد وسيلة لحملي الى الفوطة التي استفحل امر الثورة فيها . فأعدّ لنا جملا ودليلا شمريا وزادا وقربتي ماء . حتى اذا خيم الظلام عبرنا النهر غربا متجهين نحو الشام . وكانت المسافة ما بين قصر نجرس ودمشق لا تقل عن الستماية كيلومتر . فكنا نسير ليلا ونهارا ، يتخلل مسيرنا في الاربع والعشرين ساعة اربع ساعات ما بين نوم وراحة واكل ورعي البعير . وكان وقت قدومي الى العراق شتاء ، وكانت عودتي من رحلتي الى نجرس في - مريانية الشتاء - . والوسيلة الوحيدة التي لدينا للوقاية من البرد في السير فقط . لذلك اوضحت اقدامنا من تأثير السير كخف البعير غلظة .

وعند وصولنا اطراف (القفرة) ، وهي مراعي تجتمع فيها القبائل السورية في فصل الشتاء على الاغلب ، وجدت فريقا من قبائل العقيدات . فطلبت منهم رسولا يرافقني الى الشيخ . فقال لي احدهم : لا فائدة من ذلك الآن لان المستشار الافرنسي كوستيلير سبقني الى ابن مهيد ، واقنعه بلزوم البقاء على الحياد مغدقا عليه الاعطية وشتى المواعيد . وقد اثر موقفه ذلك على سائر قبائل العقيدات ، وأضحى من الصعوبة بمكان إثارتهم . ولم تجدر محاولتي نفعا ، واضاعت عليّ الوقت الثمين الذي كبديني مشاق ومتاعب كنت في غنى عنها .

وبعد سير خمسة عشر يوما بدأت تطلع علينا منازل القبائل السورية . وكنا نصادف احيانا بعضا من رجال القبائل الذين اشتركوا في الثورة ، حتى اذا سألناهم اخبارها ، أخذوا يقصون علينا اخبارا غريبة . ولولا بعض الحكايات المختلقة عني ، لأيقنت بصدق ما يخبرونني . وكنا حينذاك على مقربة من قرية (ضمير) . فنكون اذن قد قطعنا الصحراء الممتدة من ضفة الفرات الغربية الى هذه القرية التي هي على ابواب دمشق بأربعين يوما .

وكنت جد متشوق لاستطلاع الحالة العامة للثورة . فكان الهدوء عند وصولي الى (ضمير) شاملا جبل الدروز . ولم يكن للافرنسيين فيه اثر . وقد سبب هذا الهدوء غير المألوف اختلافا في الآراء بين زعماء الجبل . فكان سبق ان ارسلت بعض المفارز الدروزية الى اقليم البلان وحاصبيا ورأشيا للقيام ببعض الحركات فيها . اما الفوطة فكان فيها معارك موضعية استكشافية بين حين وآخر ، وكان بطلها حينذاك المرحوم حسن الخراط ، الذي احرز انتصارات عديدة على الفرنسيين . اما منطقتي جيروود وجبل قلمون فكان السيد نسيب البكري يقوم

فيهما بعمل اداري اكثر منه حربي ، كما كان يفذي الغوطة بنجدات من متطوعي تلك المنطقة . ولم يكن اثر للنظام في مناطق الثورة . واتصلت اخيرا بالسيّد نسيب البكري ، وكنت لا ازال محتفظا بقيافتني البدوية القذرة ، فتلقاني وصحبه، ومن بينهم المجاهد توفيق هولو حيدر بالترحاب ، واخذت أسألهم عن وضع الثورة . فوجدت ان نفوسهم غير مطمئنة للحالة ، وآمالهم بالنصر ضعيفة . عندها قررت التوجه الى الجبل لمقابلة سلطان ، وللاطلاع عن كئيب حالة الجبل ، ولأطلب منه قوة درزية أنحدر بها الى الغوطة وجبال قلمون ، أستعين بها على تنظيم مناطق الثورة وتأمين مواردها ، وتنظيم مجاهدي القرى على شكل نضمن به الاستمرار في الاعمال .

وكان الاستياء عاما جميع قرى الغوطة لكثرة ما يطلب منها من التكاليف ومواد الاعاشة ، خاصة من معاملة بعض مجاهدي الدروز . ولما عرضت فكرتي على نسيب البكري ، جذب رأبي ، وكان يميل لمقابلة سلطان ، فسرنا معا . حتى اذا وصلنا حيث سلطان باشا ، أنزلنا ضيوفا عليه . وزارني الامير عادل اذ ذاك ، وكان له نفوذ عظيم في الجبل ، وهو يتحلى بصفات الشجاعة والتضحية والاخلاص . كما زارني الدكتور شهنذر وكان غادر الجبل الى فلسطين اثر تقدم الجنرال غاملان الى السويداء ، ثم عاد اليها بعد انسحاب الافرنسيين ، وانتشار الثورة ثمة في سورية . وللدكتور صفات نادرة من الذكاء والمقدرة في الخطابة والدهاء والتأثير على مخاطبه .

واتصلت بمعظم الزعماء السوريين . وبعد درس وتمحيص وجدت ان حالة الجبل أسوأ مما كنت أتصور؛ اذ ان الاختلاف بين الزعماء ، أمثال نسيب البكري والامير عادل والدكتور شهنذر من جهة، وسلطان باشا وبعض زعماء الدروز من جهة أخرى . وكان لكل حزب من يعضده ويشجعه . أما السبب في توسع شقة الخلاف فيرجع الى طرق توزيع اموال الثورة على المجاهدين . كان قسم من التبرعات يرسل رأسا باسم سلطان باشا ، كما ان قسما يأتي باسم الامير عادل وقسما آخر باسم الدكتور شهنذر . وكان كل من الاحزاب الثلاثة في عمان والقدس والقاهرة يسعى لتأمين نفوذ رجاله الموجودين في الثورة ، حيث يبعث بما يصل الى يده من الاموال والتجهيزات الى حزبه لتقوية نفوذه والسيطرة على رجال الثورة . وكل حزب يرمي الى اظهار نفسه بمظهر المسيطر على سياسة الثورة كيما تنحصر المفاوضات معه دون سواه . فكانت اللجنة التنفيذية في القاهرة والتي يرأسها ميشيل لطف الله تتمتع بأكبر نفوذ سياسي . وكان للامير ميشيل وقتئذ مطامع في سورية يأمل الوصول اليها عن طريق الثورة . وكان اكثر اعضاء هذه اللجنة تؤيد الدكتور شهنذر ، ومنهم رئيسها وحسن الحكيم وتوفيق اليازجي . أما الشيخ رشيد رضا وأسعد داغر فكانا يريدان حزب الاستقلال ، الذي يهيمن عليه السيد عادل العظمة في عمان ، كما ان رجال حزب الاستقلال ،

ولجنة القدس كانوا يسندون الامير عادل من جهة ، وسلطان والمرحوم رشيد طليع من جهة اخرى .

وسعى الدكتور شهنيدر الى استمالة بعض زعماء الدروز وبعض زعماء الفوطة الى صوبه . اما الامير عادل فأسس مقرا له في السويداء . وكان يبذل ما يصل ليداه في مشترى الاسلحة والعتاد خصوصا الرشاشات . وكان لديه أفضل مجموعة مجهزة . وكان السيد نبيه العظمة في قصر الامير عادل .

اما سلطان فكان يتمتع بأكبر نفوذ بين ثوار الدروز ، وكان مركزه الاجتماعي وانتصاراته خير معين له لضم الاكثرية الى جانبه . وكانت الفرصة سانحة للمستشار كوستيلير ، المقيم حينذاك في درعا ، لاستثمار الخلاف الواقع بين المجاهدين . وكان يرمي من وراء ذلك عزل الجبل عن الفوطة وسائر مناطق الثورة ، بإغداقه الاموال علّه يصل الى هدفه عن طريق المال بعدما فشل عن طريق الجيش .

وجدّ الافرنسيون من جهة في تحصين مراكزهم المتعددة ، وجمع ما يمكنهم جمعه من قواتهم فيها ، بقصد مفاجأة منطقة من مناطق الثورة والقضاء عليها . وبث دعائهم داخل مناطق الثورة وخارجها لبذر الفساد بين الصفوف من جهة ثانية .

هذه مجمل الحالة عندما وصلت الى الجبل ...



شمل الهدوء الفوطة الا بعض حركات العدو الاستكشافية ، وطائراته الاستطلاعية . فعزمت على الذهاب الى القلمون لابقاظ روح الكفاح فيه . وبينما انا في قرية الرحبية مع نفر من اصحابي ، وصلتني رسالة من نسيب البكري يطلب مني فيها الالتحاق به بسرعة في (عسال الورد) ، لأن الافرنسيين استطاعوا التأثير على بعض اهالي القرى وشكلوا منهم جمعا يحارب تحت لوائهم ضد ثوار الفوطة لحماية جبل قلمون . ولما وصلت اليها لم أجده هناك بل كان في قرية مجاورة . وما كدنا نستقر حتى هاجمتنا طائرتان ثم ظهرت خيالة العدو، فاتخذنا لانفسنا مواقع دفاعية . لكن جماعتنا انسحبوا وشردوا ، فاخذت انادي الى أن عادوا ثانية الى خط الدفاع . ثم تركت الخط بقيادة الاخ عادل الحامدي وذهبت مع من معي من الخيالة لأغامر بمهاجمة مؤخرة العدو وجناحه الايمن . وطلعنا على العدو ومن معه من العرب الذين ضمهم الى جانبه من الأودية على شكل دائرة كبيرة، ففوجيء بنا وأسرع جنده الى جياهم ، فتتبعناهم وأصليناهم نارا حامية الى أن

هزمناهم الى قرية جبعدين فدخلناها اثرهم فسقط منهم الكثيرون . ثم احرقنا القرية بما فيها من ارزاق واثاث حتى نلقن كل من تسول له نفسه التعاون مسع الافرنسيين درسا قاسيا . ولم ندع للافرنسيين مجالا للتحصن في جبال يبرود، وطاردناهم الى جهة النبك . فاحتلنا القمم المجاورة لبرود . ودخل بعض رجالنا القرية فلم يجدوا مقاومة . وملأ الذعر قلوب الاهالي فتركوا القرية والاسواق . وشغلت المجاهدين بأعمال الاستعداد لما قد يصل من النجذات الفرنسية من النبك . ووزعت القوى على الهضاب المجاورة . ووضعنا مدفعا من عيار ٣٧ مم غنمناه من الافرنسيين على قمة مشرفة ، وكان بدون (سيبة) . وكان رجالنا يخافون من اطلاقه اكثر من خوفهم من مدافع العدو . وطلبت رئيس البلدية ووجوه القرية ولتمهم على اشتراك بعض رجالهم مع الافرنسيين وهددتهم . ووصلت بعد الظهر طلائع العدو تتقدم بسرعة صوب يبرود ، فاشتبكنا معها في قتال عنيف . ولم يستطع العدو اختراق صفوفنا لاستعدادنا الكافي . ثم قمت بمن جمعته حولي من الخيالة بهجوم على جناح العدو الايسر . فارتد من عنف المفاجأة وانسحب . وتتبعناه ، وانقلب الانسحاب هزيمة نكراء . وكان نصيب الجيش الافرنسي في هذه المعركة اسوأ مما أصابه في معركة الصباح ، وتمكن من الإفلات الى النبك . وكان من نتائج هذه المعركة استعادة نفوذنا على جبال قلمون كافة . ولكن الافرنسيين نظموا بعد ايام حملة جديدة كبيرة لطردها من القلمون ، واخذت اخبار تجمعاتهم في النبك ترد الينا . ووردت اخبار حملة قادمة من دمشق عن طريق وادي منين . فأصبح موقفنا حرجا ، لذلك اتخذت مركزا متوسطا ، وأرسلت من يرصد حركات جيش العدو .

خرجت علينا القوتان في وقت واحد . ورغم محاولاتي إشغال قوة النبك ، او تأخير مسيرة قوة دمشق ، فان قوة العدو كانت متفوقة ، ولم نتمكن من المقاومة طويلا لقلّة عتادنا ، ولنفاذه . وأخذنا نتراجع نحو الهضاب الشرقية لقرية برزة . وانتهت المعركة بانسحابنا الى الفوطة وبعودة جيش الفرنسيين الى دمشق . وكانت خسارتنا مهمة ، كما ان العدو تكبد خسائر فادحة .

كانت الفوطة لا تزال على ما كانت عليه قبل معارك القلمون من الاختلاف والانقسام . لكن ظهر لي اخيرا أن هناك رغبة عند الكثيرين في التنظيم والتوحيد . وفاتحت نسيب البكري بالفكرة واتفقنا على محادثة الزعماء والرؤساء . وصدف ان حضر الدكتور شهنذر ، فشرحت له الحالة ، واقترحت عليه الاستفادة من هذه الفرصة المؤاتية ، لتنظيم الثورة في الفوطة . فوافقني . لكنني اكتشفت فيما بعد ان الدكتور كان يحاول القضاء على نفوذ البكري وغيره في الفوطة ، وإقامة زعامة له ، ولاسيما أن مركزه في الجبل قد ضعف أمام نفوذ الامير عادل . وأخذ يوزع الاموال على بعض المجاهدين ، ويسعى ما أمكن لابعاد البكري عن رئاسة أي اجتماع . وأخذ البكري بدوره يسعى لاستمالة فريسق آخر . فازداد الموقف

حراجة وتوسعت شقة الخلاف ، وعمت الفوضى في الفوطة . ولما تأكدت أن لا فائدة البتة من اي مسمى عزمت أن اترك ميدان الفوطة ، وأن اتخذ من جبال قلمون منطقة للثورة أقوم على تنظيمها وإدارتها لتكون نموذجا ومثالا يحتذى . وأنا اعلم ما يتطلب ذلك من جهود ومغامرات .

انتخبت من اخواني المخلصين فئة ، وتوجهت الى قرية ضمير . وكانت اعمالي في جبل قلمون قد زادت من ثقة الناس بي . والفت للحال محكمة برئاسة عادل الحامدي وعضوية مشايخ ومخاتير القرية . وفرضت على القرية عددا من الرجال احتياطين يعدونهم لتبديل من معي من المجاهدين كل خمسة عشر يوما ، ويؤمنون إعاشتهم ووسائل نقلهم . واصبحت لنا قوة ورهبة خاصة بعد تنفيذ حكم الاعداء في احد الجواسيس . ثم رحلت عن القرية تاركا المحكمة فيها الى قرية الرحبية ، وقمت فيها بما قمت في قرية الضمير بنجاح باهر . وقد راق هذا لاهل القرى ، اذ خفت عنهم الاعداء ، وأمن ذلك دوام الثورة طويلا . حين لم اكلف القرية الا بإعاشة رجالها . ثم قسمت الجبل الى مناطق وقيادات . وشكلت دركا وطنيا من اهل القرى لتأمين الامن . فوحد لنا هذا العمل جبل القلمون ، واصبحت هناك حكومة وطنية تقوم بالاعمال ، ولم يشغل الاهلون عن أعمالهم الزراعية .

لم يرتح الافرنسيون لهذه الاعمال والاخبار ، فقرروا تحشيد قوات كبيرة في حمص والنبك . فتوجهت مع من معي بقصد احتلال النبك قبل أن يبدأ الفرنسيون بتحشيداتهم . تقدمت الى يبرود حيث كمنت بالقرب منها طيلة النهار ، ثم تابعت المسير الى النبك . فقسمت القوة ووزعتها لنقوم بهجوم على محيط البلدة فنخترق الى المركز للاستيلاء عليه . وتم الاستيلاء على النبك ما عدا المركز الاساسي المحض وبعض المراكز القريبة منه . وبدأت خسارتنا تتزايد . ولما ايقنت ان لا فائدة سحبت القوى وتراجعنا باتجاه يبرود ، وطلبت القسم الثاني الاحتياطي من المجاهدين ، وأخذت أقيم خطا دفاعيا وأحفر الخنادق استعدادا للقاء الفرنسيين بالقرب من يبرود .

زحفت الجيوش الفرنسية الى يبرود ، واحتلت هضابها الجنوبية ، وأخذت ترسل المصفحات للاستطلاع . ثم زحفت في صباح اليوم التالي برتلين قوين بينهما الخيالة . وبدأت سلسلة من المعارك شديدة للغاية ، وعلى نظام لم تعهده ميادين الثورة . وكنا نتراجع من موضع الى آخر ، والفرنسيون يتكبدون خسائر فادحة . وقد تضايقت من قلة العتاد ، وأخذت أستصرخ الفوطة ، التي تم فيها تشكيل مجلس وطني يرأسه نسيب البكري . أما الامور العسكرية فكان يستلمها مصطفى وصفي . ولكن ذهبت نداءاتي بلا فائدة، في الوقت الذي كان في الفوطة آلاف مسلحة عاطلة عن العمل بسبب عدم خروج الافرنسيين للقتال فيها . وقد اثر ما وصل الى الفوطة من أخبار تنظيمنا ، ومعاركنا في نفوس رجالها ، فبدأوا

يثورون على الوضع عندهم . واضطربنا بعد معارك لامعة خالدة الى اخلاء الجبل ، وانسحبنا الى الفوطة لنفاد العتاد ، ولتفوق العدو بعدده وعدده بصورة هائلة .

وما كدت استقر فترة ، حتى حدث في الفوطة ما يشبه الثورة . وتهددت حياة بعض القادة والزعماء . وكان بطلا هذا الانقلاب الشهيد المرحوم شوكت العائدي والدكتور امين رويحة . اذ ختما المضابط وأتياني طالبين مني استلام القيادة في الفوطة . وعلى الاثر حضر نسيب البكري يرجوني التمهّل الى أن يعقد المجلس الوطني جلسة يقرر فيها ما طلبه الثوار من إسناد القيادة اليّ ، فيكون الامر قد تم برضى الجميع . وتم ذلك وقرر المجلس في جلسة فوق العادة إسناد قيادة الفوطة وشمال سورية اليّ مع اعطائي صلاحية المجلس نفسه ، وتعطيل المجلس السابق مؤقتا ، وإخبار سلطان باشا بالامر وطلب الموافقة منه .

عقدت على اثر قرارهم جلسة حضرها اكثر الزعماء، واشترطت لقبول القيادة امرا واحدا هو الطاعة ، ما دمت عاملا للمصلحة ، وفي سبيل إنجاح الثورة . وانتهت الجلسة بمظاهرة حماسية . وهكذا أصبح هذا الجندي البسيط ، الذي بدأ جهاده ، ولم يكن يملك سلاحا ولا نفوذا ، قائد ثورة الفوطة المطاع عن رضى وثقة .

كان اول عمل قمت به بعد استلامي القيادة ، اقامة خط دفاعي مقابل خط الافرنسيين الدفاعي ، ثم قسمت الفوطة الى مناطق ، وفي كل منطقة قوة وقائد. وألفت هيئات ادارية مستقلة عن الاعمال العسكرية تقوم بجمع الضرائب والاعاشة التي تؤخذ من القرى كلّ حسب طاقتها ، ثم توضع في مستودعات حريزة خلف الجبهة . وألفت هيئة لجمع الأعشار ، وجباية الرسوم على كل ما يصدر من الفوطة او يردها من دمشق . وجعلت من المرج الذي قسمته الى منطقتين منابع احتياطية . فتحسنت الحالة ، وزادت الموارد . وأخذ الفرنسيون ينظرون الى ما يصلهم عنا من اخبار بقلق عظيم . وكان قد وصل الكونت «جوفنيل» الذي اراد اولا التفاهم ثم أعلن كلمته المشهورة (الحرب لمن اراد الحرب والسلم لمن اراد السلم) . وقد قال هذه الكلمة لما اخذت الفرق الفرنسية تأتي الى سورية ، بعد ان لاح للفرنسيين النصر في الريف المغربي . ويظهر تقرير نشرته (المجلة الفرنسية للمشاة) أن الوحدات التي جلبوها الى سورية يتجاوز عددها العشرين الفا . ساقوها الى المراكز المخصصة لها بشكل سري دون أن تمر بالمدن ، في الوقت الذي كان رجالهم الاداريون يتظاهرون برغبتهم في السلم والتفاهم معنا .

حشد الافرنسيون قواهم في مراكز تحيط بجناحي الفوطة لعزلها . فاتخذنا الترتيبات اللازمة ، وبعثنا المفارز الى الاطراف البعيدة حتى لا نفاجأ . وكانت

حاجتنا الماسة الى ضباط مدربين يتقنون اعمال الرصد هذه . وبرغم وجود الكثيرين في دمشق الا ان قلة اشتركوا معنا، ومنهم ، وهم لا يتجاوزون العشرة، سعيد العاص وشوكت العائدي ، وفؤاد سليم وعبد القادر مليشو وزكي الحلبي (وجميعهم استشهدوا) وصادق الداغستاني وصبحي العمري ، وزكي الدروبي وغيرهم . وكانت كلما ازدادت اخبار تحشدات الفرنسيين ، ينسلّ بعض الثوار من الفوطة الى جبل الدروز بحجج مختلفة . فضعفت قواتنا في الفوطة كثيرا . ولم اكن متشائما ، وأخذت التقارير ترد عليّ من كل الانحاء عن تنقلات الجيش الفرنسي ونشاطه . وشعرت أن مركز الثقل واقع على جناحنا الايمن . فضاعفت الجهود لمجابهة الخطر المقبل . وأرسلت مفرزة قوية مجهزة بالرشاشات بقيادة ممدوح العظم الى الهضاب القريبة من القطيفة في الشمال ، والى الطرق الآتية من جهة ازرق . اكملنا استعدادنا ، وكنت أتوقع الهجوم على شكل احاطة واسعة تفصل المرج عن الفوطة . وكنت مؤمنا بأن الصدمة لا تواجه الا بعد ان تكون وطأتها قد خفت ، فنتحرى النقاط الضعيفة في صفوف العدو لننقضّ عليها .

وفي صباح ١٦ تموز ١٩٢٦ كنت في دوما قلقلنا افكر ، واذا بأحد المجاهدين يصل صارخا : ها ان الفرنسيين في بساتين دوما . فقفزت لاياف الخطر ، اذ لم يكن لدينا متسع من الوقت ، وهرعت مع فريق من اخواني وجماعة من دوما لصد العدو . ولحسن حظنا وصلنا البساتين التي تفصل المنطقة المكشوفة من المنطقة المشجرة قبل الفرنسيين . وكانت معركة حامية سريعة قضينا فيها على الفصائل المتقدمة ، التي ولّت الادبار . واضطر الفرنسيون الى التراجع وإقامة خط دفاعي يبعد عنا كيلومترا واحدا . وزحف بعضهم نحو القرية التي فيها جرحانا ، وعبثا حاولنا افهامهم ان فيها مستشفى ، اذ رفعنا الاعلام وشارات الهلال الاحمر . وشرع من في المستشفى ، وعلى رأسهم الدكتور امين رويحة ، بالدفاع زهاء ساعة الى ان تمكنّا من رد الفرنسيين . وقد أصبت بجرح فسي خاصرتي ، وأصيب الحاج مصطفى ديب في ركبته وهو يحاول سحبي الى الخلف . وهدأت المعركة وقت الظهر . وقد أبدى الدكتور رويحة بطولة وشجاعة نادرتين في علاج جرحانا وفي قتال الافرنسيين على السواء . وكانت حاجتنا ماسة الى الاطباء ، وهم كثيرون قابعون في دمشق .

وتمكن شوكت العائدي والامير عز الدين الجزائري من صد الافرنسيين في الجبهة الجنوبية ايضا . كذلك نجحت مفرزتنا في جبهة برزة في تعطيل قوة الجيش في مضيق منين وتأخيره . وقد ظهر من اوراق الافرنسيين ، التي حصلنا عليها من أسراهم وقتلاهم ، انهم كانوا يهدفون اولا الى الاستيلاء على الخط الذي يمر من برزة - دوما - كفرطنا - حبرين ، حيث مقر القيادة العامة للثوار . فيحصرن الثوار داخل هلال يستند رأساه على تحكيمات دمشق من الشمال والجنوب . اما المدفعية فتمركزت في دمشق ، تقصف بسهولة مواقع الثوار .

كذلك كانت الطائرات تسهل مهمة الجيش وتستكشف ، وتلقي بقنابلها ايضا .

كانت خسارتنا في هذا اليوم جسيمة ، لكنها لم تكن كما كنا نتوقع . وهدف الجيش الفرنسي الى التقدم الى خط : القابون - جوبر - عين ترما - ببيلا - القدم - الاقصر ، فيحصر الثوار ويساقون الى افواه حصون دمشق ، ولا يبقى لهم الا الموت او الاستسلام . وبرغم توقيفنا للفرنسيين خارج الفوطة ، فإننا اصبحنا الآن داخل هذا النطاق المضروب ، الذي سيستحيل أضيق غدا . ولم يكن أمامنا الا القيام بمغامرة للإفلات من هذا النطاق الليلة . وبعد الاستطلاع تبين لي ان افضل نقطة للاجتيار من بيت نايم حيث توجد فيها قوة من المراكشة . وفعلنا تمكنا من الإفلات بعد مناوشة بسيطة عن طريق اقنية الماء المجاورة للقرية . ثم وصلنا العتبية وصرنا محاصرين بعد ان كنا محاصرين . وقررت مهاجمة مؤخرة الجيش . وفي الصباح اخذت الطائرات والمدفعية تقصف مشكلة سدا ناريا يتقدم خلفه الجيش ببطء، وتحولت الفوطة الى ساحة لمعركة رهيبة . ووصلوا الى هدفهم بدون مقاومة . وظنوا ان الثوار قضى عليهم بالمدفعية والطائرات . وصلنا مع غروب الشمس اطراف الفوطة قريبا من حبرين . فوجدنا جموعا من الفرنسيين بأحمالهم وآلياتهم يستريحون ، فداهمناهم ، فذهلوا ، وسرت الفوضى فيهم ، وتعقبنا فلولهم، وسقط منهم الكثيرون ، ومن بينهم الكومندان (ونك) قائد الخيالة، وهو صديق لي قديم . دعر الجيش الفرنسي ، واشتد حماس الثوار ، فارتموا على الجيش من كل جانب . وحاصرنا كفرنطنا ودخلناها بعد اشعال الحرائق وانفجار العتاد . وكانت مجزرة لم تدر في خلد الفرنسيين . وما ان بزغت الشمس حتى اخذت الطائرات تلقي قنابلها بدون وعي ، وعلى غير هدى .

وبدأت النجادات القوية تصل لانقاذ الفرنسيين ، فتقدمت وشوكت العائدي لنحول دون تقدمها . وظلت المعركة حتى عصر اليوم ، حيث تمكن الفرنسيون من انقاذ من نجا من سيوفنا من محصورى كفرنطنا ، ثم تراجعوا الى دمشق ، التي كان مقررا ان يدخلوها منتصرين ، ولكن الاقدار ابت الا ان يدخلوها مدحورين . وبهذا فشل (هجوم تطهير الفوطة) بعد معارك دامية استمرت ثلاثة ايام ، هي في الحقيقة اكبر معارك الثورة . ظل الثوار بعدها يحتلون الفوطة ، ويصدون حملات الفرنسيين اكثر من شهرين .

واعاد الفرنسيون الكرة ، ونظموا حملات جديدة ، تتبع أسلوبا جديدا ، وتمشط منطقة الفوطة وتأسر او تقتل من يقع في طريقها . واثرت هذه الحملات في الثوار ، فقابلناها بطرق قتال جديدة ، تعتمد على الكمائن التي نصبها في الاطراف بعيدا عن مركز الفوطة . ونفعت هذه الخطة ، وتوقفت حملات الفرنسيين . وكانت المشكلة الخطيرة ، التي تهدد الثورة ، وتفوق خطر العدو هي مشكلة العتاد المتناقص . وقد دفعنا هذا الى تجنب خوض المعارك الكثيرة . واخذنا نسعى لتلافي

هذا النقص ما أمكن . وإني أذكر باحترام أسماء الأبطال الذين ثبتوا نفوسهم ، وهم الشهداء شوكت العائدي ، والأمير عز الدين ، والأبطال الدكتور أمين رويحة وعادل الحامدي ، ومن زعماء الثورة المخلصين أبو عجاج الشيخ وأبو محي الدين شعبان . وأعدنا تنظيم أنفسنا ما أمكن ، وأخذت محكمتنا تنشط في محاكمة الجواسيس ، وكنا لا نضنّ بالأعداء .

وقد أخذت جرائد الفرنسيين ودعاياتهم تنشر أخبار القضاء التام على الثورة بدليل الهدوء المخيم على ميادينها . فأردنا تكذيبها بوقائع مدوية . اتخذنا خطاً دفاعياً موازياً لطريق دوما - دمشق . وأرسلنا كتاباً مع ركاب سيارة السى المستشار نتحدى فيها قواته . انتظرناها من الصباح الى ما بعد الظهر ، ثم قررنا الانسحاب . لكن قوات الفرنسيين فاجأتنا ، ونحن منسحبون . وحاولت أن امنع اتصال القوات الفرنسية الخارجة من دوما وحرسنا ودمشق . وسرت مع من بقي معي وعددهم تسعة نحو (مديرة) . وفاجأتنا القوات الفرنسية المتحصنة في مقبرة البلدة . ودارت معركة ، تكاثرت فيها القوات من ثلاث جهات ، ولم ينقذنا أخيراً إلا شوكت العائدي وعادل الحامدي ومفرزتهما . اتصلنا بمجاهدين المنسحبين وجمعنا قواتنا وارتددنا بهجوم على رتلين للعدو ، وانقلبت الآلة الى صالحنا بأعظم مما كنا نتوقعه . وكبدنا العدو خسائر كبيرة ، ونجونا من موت محقق . وكان لهذه المعركة اثر كبير في اضرام نار الحماسة في المجاهدين وأهل القرى ، وأثبتت ان الثورة لم تنته .

حاول الفرنسيون بعد ذلك تأمين الهدوء في الفوطة بوسيلة أخرى . فأرسلوا إلينا رسولا يعلمنا بأن القائد الفرنسي يطلب مفاوضات . فحددنا قرية (مسابا) مكاناً للاجتماع . وبثت رجال استخباراتنا في اطراف القرية وعلى الطرق المؤدية إليها . ولما تأكدت من وصول الوفد الفرنسي برئاسة الليوتان (الكسندر) ذهب بصحبة الدكتور رويحة وعادل وشوكت العائدي . وأخذ الوفد يعرض علينا رغبة الجنرال (غوامه) في الاجتماع بنا في دوما مع كتاب بخطه يؤمننا فيه على حياتنا وعودتنا سالمين . وعرفت من أعضاء الوفد ، أن تعليمات اتت من (بوانكريه) نفسه ، بأنه يود التفاهم مع المجاهدين الشجعان لا مع اصحاب الاقلام المشاغبيين ، وأن الحكومة الفرنسية مستعدة لاقامة مجلس تأسيسي في سورية يسنّ دستور البلاد . وانها تعفو عن المجاهدين . أما عني وعن سلطان باشا الاطرش فلا بد لنا من لقاء السلاح والاستسلام الى السلطة ريثما تتم الاجراءات الجديدة . فرفضت ذلك وقلت : ان ليس بوسع من حمل بندقية طيلة سنتين أن يرميها ويستسلم لرحمة من قاتلهم ، ومع ذلك فلا بد من الرجوع الى رأي سلطان باشا الاطرش وهو القائد العام للثورة . وأعلمتهم ان هذا امر سهل سريع اذا هيأوا لنا سيارتين وبزينا كافيا . وكنت في الحقيقة أخدعهم وأطمعهم بأسرنا والقضاء علينا ، لأنني كنت محتاجاً حقاً الى الاتصال بسلطان باشا لاستطلاع حالة الجبل ، وأطلب قسماً

من المجاهدين بسرعة . وطلب مني المستشار الكسندر ، جمع جثث قتلى المارك السابقة في كفرنطنا . وقد أرسل فعلا سيارة واحدة الى (المحمدية) مساء اليوم نفسه ، فأخليت القرية وكنمت في البساتين المجاورة ، وجعلت مفرزة في قرية قريبة . ودعوت مفرزة أخرى الى ملاقاتنا الليلة في المحمدية . وقررت الانتظار حتى الثانية عشرة . وإلا فانا في حلّ من وعدي ، وسأقوم بهجوم على دمشق لاثبت قوة الثوار ، وتحديهم السلطة .

ولكن الافرنسيين قرروا الغدر ومباغتتنا في المحمدية . فأخرجوا حملة خفيفة دخلت القرية . وكانت المفرزتان اللتان أعدناهما او دعونا قد حضرتا ودخلتا القرية من جهتين ، وكنا نحن من الجهة الجنوبية ، فجعلت الصدف الفرنسيين في وضع لا يحسدون عليه ونحن نحيط بهم من جهات ثلاث ، وبدأ اطلاق النار، وتأكد الفرنسيون انهم محاصرون ، قد وقعوا في كمين متقن ، فانسحبوا بسرعة الى دوما تاركين بعض احمال العتاد ، وانسحبنا نحن من المنطقة كلها بدون خسائر. وأرسلت الى المستشار كتابا مؤثرا أؤنبه فيه على غدره . وبعد ايام اتانا رسوله يؤكد أسفه لحادثة المحمدية ، وأن هذا حدث بدون اذنه ، وأنه قد أعفى قائد موقع دوما واستبدله بآخر . وأظهر ثانية رغبته في التفاهم ، فتظاهرت بتصديق كلامه وباستعدادنا للمفاوضة ، وعينت له قرية (مسابا) مكانا للاجتماع . وكنت أقصد من هذه المفاوضات كسب الوقت وإراحة المجاهدين وإكمال النواقص . وكنت كعادتي بثت الجواسيس من الاطفال والنساء حول القرية وعلى الطرق المؤدية اليها. وفي الوقت المعين سرت مع شوكت العائدي والدكتور امين رويحة وما يقرب من العشرين خيالا . وكنا مسترسلين بأحاديثنا ، لما وصلنا مفترق الطرق المؤدية احداها الى مسابا ، فألحانا الحديث ، وسرنا في طريق أخرى . وكانت هذه الصدفة مثنى القدر لانقاذنا مرة أخرى من فخ نصبه الافرنسيون لنا بحشود كثيرة طوقت مسابا في الساعة العاشرة فلم تجدنا . فأرسلت رسالة شديدة الى قيادتهم . وكانت هذه آخر محاولات غدرهم .

كان الخريف قد جاء ببرده ، وخلت الغوطة من سكانها الذين نزحوا الى دمشق ، ونضبت الموارد التي كنا نعتاش منها ، وبدأ عدد المجاهدين يتناقص من العناء ، ومرض (الدوسنطاريا) . وفي هذه الاثناء وردت كتب من جبل الزاوية يدعوني اهله اليهم لاجعله قاعدة أجدد فيها حياة الثورة . راقبت لي الفكرة ، فقررت الجلاء عن الغوطة والذهاب الى جبل الدروز لاعداد الحملة . ولما تركنا الغوطة بعد ثلاثة اشهر من هجوم التطويق ، كان عددنا لا يتجاوز الستة عشر مجاهدا .

اقمنا في اطراف وعرة (اللجا) . وكان كثير من المجاهدين قد نزح الى الاردن. وكتبت تقارير عما يجب عمله ، وما نطلبه . وتمكنت في عشرين يوما من جمع قوة

لا بأس بها ضمنت اليها مفرزة نظامية من الجنود المغاربة . وكان الاخوان المرحوم شوكت العائدي والامير عز الدين ، وعبد القادر مليشو ومظهر السباعي من أبرز المجاهدين في هذه الحملة . وتركنا في ١٩ تشرين الاول ١٩٢٦ الى الفوطة ثانية . فوصلنا قرية (زغب) جنوبي الكسوة . فوجدنا هناك بطيارتين ، ثم بمفرزة من الخيالة . فأسرعنا بالكمون ، ثم اصليناهم نارا حامية مباغتة ، فولسوا تاركين قتلاهم . ثم مر قطار من جهة الجبل الى دمشق ، فأطلقنا عليه الرصاص ، لينقل الركاب خبرنا الى الشام . وما كنا نعلم ساعتها أن القطار يحمل المندوب السامي، وأن الطائرتين والخيالة لحراسته .

انتقلنا الى بساتين داريا ، ومنها الى كفسوسة . وقررنا أن نداعب دمشق بعد طول غياب ، فهاجمنا في ٢٢ تشرين الاول ١٩٢٦ القطار الخارج ليلا من دمشق الى بيروت عند عقبة المزة ، حيث لا يمكن اجتيازها بسرعة ، فتحول القطار الى مستشفى سيار يحمل الجرحى والقتلى . وما كنا ندري ايضا بوجود المندوب السامي فيه . وافلت منا بأعجوبة هذه المرة ايضا . وفي الوقت نفسه هاجمت مفرزة أخرى الثكنة الحميدية . ثم انسحبنا نحو حي الميدان ، ونزلنا في بستان باكير الملاصق للحي ، وأمضينا ليلة ٢٣-١٠-١٩٢٦ بهدوء . وكنا كامنين بينما كان الافرنسيون يفتشون في كل انحاء الفوطة البعيدة . واتخذنا كل اسباب الحيطة ليلا ونهارا . ثم تابعنا سيرنا ليلة ٢٤-١٠ الى (عين ترما) في قلب الفوطة . ورتبنا أمورنا في بساتينها كل في موضع دفاعه استعدادا لاي طارئ . وطلع الصباح ولم يحدث شيء . فأخذت أبحث في تأمين اعاشة المجاهدين . وكان هذا الامر صعبا لان نفوذ الفرنسيين كان قد امتد على انحاء الفوطة ، التي خلت الا من القليل من اهلها .

ورأى بعض خفرائنا قبل الظهر حميرا محملة بالخبز يسوقها الاهلون ووراءهم جنود السنغال ، فأطلقوا النار ، وبدأت معركة اشتعل معها خط النار من جهات معسكراتنا الثلاثة ، فانسحبنا الى الورا تاركين احمالنا وبعض امتعتنا . وكانت معركة رهبة . فالقوى غير متكافئة ، والمسافات قريبة ، والشجاعة التي أبداها مجاهدونا لا توصف ، كذلك أظهر الجنود المغاربة المنضمون لنا شجاعة فائقة . وقد نتج عن المعركة خسائر فادحة في الفرنسيين وفينا ، وتركنا شهداءنا في ارض المعركة، وكان من بينهم عدد من خيرة رجالنا منهم مظهر السباعي وعبد القادر مليشو وكثير من المغاربة . وقتل من الفرنسيين خمسة قواد بينهم عثمان شركس الذي غدر بالمرحوم احمد مريود ، وكان قد وعد اهالي ضمير وجبل القلمون الذين يحبونني بأن يوزع اعضاء من جسمي عليهم . وكان عدد من بقي حيا من الثوار الذين قاتلوا قتال الأبطال ثلاثة غيري هم شوكت العائدي وعبد الرحمن الصالحاني، ومحي الدين ابو شعبان .

هدت معركة عين ترما قوانا ؛ وخف عددنا ، اذ فقدنا قسما من اخواننا في

المركة ، كما انسحب قسم آخر الى دمشق . ولم يبق لدينا من العتاد الا القليل . فعزمت على الانسحاب من الفوطة الى ملجأ ناوي اليه ، ونعيد تنظيم انفسنا . واخترت وعرة زاكية ، ووصلناها صباح ٢٥-١٠-٢٦ بمشقة . واتخذنا مسن حدودها المشرفة على السهل خطا للدفاع . وبعد منتصف النهار ظهرت الطائرات ، ثم تبعها المصفحات ، وبعد قليل وصلت كتائب الخيالة . ولما اقتربت فتحنا نيراننا المؤثرة فأسقطنا الكثير من الخيالة ، وتراجع الآخرون . لكن الكتائب ظلت تتوارد ، ترافقها السيارات المسلحة . وبدأت قوات آتية من قطنة والقنيطرة تحاول تطويقنا ، فقابلتها مفرزة بقيادة صادق المغربي . ووردتني انباء نفاذ ذخيرة بعض أقسام الجبهة ، فقررت الانسحاب ، وبدأت مغازنا تنسحب واحدة اثر الاخرى . ولما أدرك العدو ذلك ، بدأ يطاردنا بعنف وقوة . وأصيب صادق المغربي في فخذه ، فساعده على السير ، وأردفته وراء مجاهد على فرسه . وبقيت وحدي ، فأسرعت للحاق برفاقي . لكن المطاردين لحقوا بي . وغفلوا عني لانني كنت أرتدي ملابس عسكرية ، وظنوني من جنودهم المتقدمين . واخذت الطائرات تفعل فعلها ، بشظايا قنابلها ، وبشظايا الحجارة ، فأصيب عدد كبير من جنودنا .

ووصلنا اخيرا الى طرف الوعة الجنوبي ، حيث يبدأ السهل . وكان المجاهدون قد توسطوا السهل في طريقهم الى تل أبي عيابة . فأخذت الطائرات تطاردتهم . وأسرعت مع جماعة من الخيالة لإشغال التلال المحاذية ، لنحتمي تراجع جنودنا . وظل القتال ملتها حتى غابت الشمس . واخذ السكون يشمل المنطقة تدريجيا . وكان شوكت العائدي قد وصل التل مع جماعة لا يزيد عددهم عن سبعة ، ومعهم صادق المغربي . وبعد أن استراحوا واطمأنوا قليلا فاجأهم هجوم جديد ، فاستشهدوا جميعا ، بعد أن فتكوا بالعدو . وأصبح التل قبرا لمن كان عليه .

وانطوت بذلك آخر صفحة من صفحات ميدان الفوطة المجيد ، وتم جلاء المجاهدين عنها نهائيا . وانسحبنا باتجاه جبل الدروز ، ونفوسنا يحزها الالم .



وصلنا اللجا ٢٧-١٠-٢٦ ، وقد مضت علينا ايام خمسة بلا نوم ولا غذاء . وجابهنا حملة الفرنسيين الخارجة من الشهباء ، ودام القتال يومين ، ولم يستطع العدو دخول (لاهثه) ، واسقطنا له طائرة في (الخالدية) ، فارتد على أعقابها . وقد انسانا نصرنا في هذين اليومين شيئا من الحزن ، وملأ نفوسنا ارتياحا . كانت السويداء والشهباء وصلخد قد سقطت في ايدي الافرنسيين ، وانتشر نفوذهم في الجبل كله . ولم يبق الا الاستيلاء على اللجا حتى يتم لهم انتهاء الثورة . وكان كثير من اهل القرى ، الذين أصابتهم الثورة بكثير من النكبات والآلام ، قد مالوا الى السلم ، ونزح كثير من مجاهدي الدروز الى الاردن وعلى رأسهم قائد الثورة سلطان باشا الاطرش والامير عادل .

ولما تأكدت انه لا يمكن القيام بعمل في الجبل ، قررت الذهاب الى الاردن لاتصل باللجان ، واستعين بأموالها في جمع المجاهدين الذين يملأون الاردن . وصلت الاردن في ٢-١١-٢٦ ، وذهبت الى عمان متخفياً ثم الى القدس ، وعدت ثانية الى عمان في ١٢-١١-٢٦ . كان الازرق يعج بمخيمات الثوار ، واكثرهم من الجبل . وكانت عمان مركزاً آخر يغص بمجاهدي الفوطة ودمشق ، والزعماء مثل نسيب البكري وسعيد العاص وزكي الدروبي . وكان كل من المركزين يطالب بالمال لتجهيز المجاهدين ، والكل يشكو وغير راضٍ . وانقسم المجاهدون الى احزاب وجماعات متخالفة . وتطور الخلاف الى نفور ، فعداء . وبدأت فكرة الثورة تضعف وتتقلص ، وأصبح من المتعذر اقناع المجاهدين بالعودة الى ساحة القتال بدون رواتب تؤمن حاجاتهم . وفي رأيي ان المجاهد الثائر اذا حارب براتب وأجر، فقد الصفات التي يتفوق بها على الجندي العدو . وتزايدت أخطار الفوضى كل يوم . ولما عجزت اللجان عن تأمين اعاشة المجاهدين ، بدأ بعضهم يبيع سلاحه وتجهيزاته ليؤمن معيشته . ومع كل سلاح يخرج من يد الثائر تنهار دعامة من دعائم الثورة .

ورأيت ان الواجب يدعوني الى العمل ثانية في ميادين الثورة مهما كلف الامر . وعبثاً حاولت ان أقنع اللجان بالألا يعتبروا الثائر الا من كان ضمن حدود الثورة السورية ، فلا ينفقوا على احد خارجها . ولما لم أفلح اتفقت مع خمسين فارساً للعودة الى الجهاد . وقد كلفني تجهيزهم مبالغ طائلة . تحركت من الاردن في ٣٠ تشرين ، وكانت الامطار الغزيرة تتساقط . فأعاقمت مسيرتنا وتأمين الإعاشة وعلف الدواب . واتجهنا على الرغم من هذا الى الصفاء لاجعل منه قاعدة جديدة ، بمساعدة صديقي الشيخ خلف النعير . والصفاء ارض بركانية صعبة المسالك بمحاذاة جبل الدروز من الشرق ، تتصل جنوباً بالاردن وشمالاً بجبل قلمون ، وتحدها الصحراء شرقاً . فهي أفضل ملجأ ومقل . ولم يتحمل الفرسان صعوبة الطريق ، فرجعوا قبل ان نصل ، ولم يبق معي سوى ثمانية خيالة منهم الدكتور امين رويحة ، وأولاد النبواني من اشراف عائلات دروز الجبل ، ومراسلي المخلصين .

وصلنا الصفاء ونزلنا في ضيافة الشيخ خلف النعير . ولم يكن معنا مال يؤثر به على عربان النعير ، فأخذت اعده بالمواعيد الذهبية وأحاول دفعه الى التأثير على بعض عربانه لتأمين فريق منهم يشترك معنا . ولما تيقنت افلاسنا من هذه المنطقة، أخذت أفكر فيما آلت اليه الثورة التي كلفتنا آلاف الشهداء ، والاموال الكثيرة ، والدمار فعزمت ان أغامر بمباغطة مراكز دمشق نفسها ، مصمماً على الا أعود من هذه الغامرة . وحجب الى نفسي الاستشهاد على ابواب دمشق الشرقية . ففاتحت اخواني الثمانية بما يجول بخاطري . فوافقوني ، واكبرت فيهم هذه الروح العظيمة . وبمعنا دمشق مع غروب الشمس . ولما وصلنا اطراف المرج الى

خربة الدير شرقي (عتيبة) ، ترجلنا ودفنا أوراقنا هناك ، وتواعدنا على أن من يعود حيا منا يأخذ الاوراق ، ويوصلها الى اهلنا ، ومما كتبه في دفتر مذكراتي موصيا بتاريخ ٢١-١٢-١٩٢٦ : «... فنحن الآن سائرون الى هذه الطريق التي توصلنا الى ذروة الشرف ، وفيها آخر المفاداة ، ونهاية التضحية . فلتحيّ بلادتي ، ولتحيّ أمتي ، وليعيش مجدي (ابني) مجيدا من بعدي» .

كانت الامطار الكثيرة قد احوالت المرج الى بحيرة . اما الافرنسيون فقد اطمأنوا لاستتباب الامر لهم ، واقاموا في قرى الفوطة حرسا مسلحا من اهلها ، وأوصلوا اسلاك البرق الى كل المراكز . فلجأنا الى الحيلة بعد عبورنا المرج بسلام ، فرتبت جماعتي ترتيب دورية افرنسية ، واخذت اكلّم كل من أمرّ به بالفرنسية بفظاظة، وكان الدكتور رويحة ترجمانا لي . وانظلت الحيلة على الجميع الى أن وصلنا (جوبر) ومنها الى (القابون) حيث تركنا خيلنا ، وتقدمنا الى مركز (جسر تورا) ، وكانت الليلة ليلة عيد ميلاد ، والافرنسيون في مرح ونشوة . ثم اطلقنا نيرانا حامية ، فأذهلت المفاجأة من في المركز ، فاندفعوا يطلقون النار على غير هدى . وانطلقت بعدها النيران من بقية المراكز ، واستولى الذعر على دمشق ، واشتعلت الفوطة من جديد .

انسحبنا على الاثر ، وامتطينا جيانا متجهين نحو جوبر ، وقمنا بالحيلة السابقة نفسها . ووصلنا اخيرا الى قرية (عربين) ، فطلبت رئيس الحرس وأمرته بجمع عناصره . واخذت أوبخهم واشتمهم . وكان في نيتي أن أجردهم من سلاحهم ، لكن وصول المصفحات حال دون ذلك . فانسلبنا من عربين الى غيرها من القرى نفعل ما فعلناه فيها . ثم خضنا سهل المرج ، ومنه الى (الدير) ، فأرحنا خيولنا ، واسترجعنا أوراقنا . وكانت الطائرات تملأ سماء الفوطة بحثا عن معكري السكون . وكان لهذا الحادث دوي كبير ، ولما وصلنا خلف النعير ، كانت الاشاعات المضخمة قد سبقتنا ، فاستقبلنا بفرح وترحاب ، ووجدت في رجاله رغبة صادقة في العمل معنا .

أرسلت رسولي هزاع الى حمص وحلب وجبل الزاوية استطلع الحالة فيها . وأعطيته كتابا ختمته بسبعة أختام زورت فيه رسالة من مصطفى كمال يعلن فيه استعداداه لمساعدتنا وأنه بدأ يشحن الاسلحة ، ويعلمنا فيه ان الدول السبع قررت محاكمة فرنسة في الربيع المقبل . وطلبت من هزاع عند رجوعه ان يطلق عبارات نارية اعلانا لفرحته بما يحمل من البشارة العظيمة لنا . وقد اتاني رسول من هزاع يعلمني باستعداد الشمال استعدادا تاما . ويعلمني بأنه اتصل بزعماء جبل الزاوية النازحين الى تركيا ، وانهم مستعدون . وأنه ليس لي الا ان احدد الزمان والمكان . فأرسلت لهم حالا أن موعدا صباح عيد الفطر في ٤ نيسان ١٩٢٧ ، منتظرا نهاية الشتاء . واخذت أعمل على تكوين مفرزة كبيرة من خيالة عرب النعير

لغزوة الشمال ، مستفيدا مما اثارته الغنائم السابقة ، ومن الكتاب الزور الذي جاء به هزاع بعد ايام .

تركت الصفاء ، بعد ان امنت من رجالها مفرزة قوية برئاسة خلف النعير نفسه ، واتجهت الى الازرق لتأمين عدد من المجاهدين وتجهيزاتهم . فوصلنا الازرق ثم عمان . وكانت الاحوال هناك تزداد سوءا . فالاموال قليلة ، واكثر المجاهدين باعوا اسلحتهم ، ولم يعد احد يفكر بالثورة . ولم يكن لديّ متسع من الوقت ، فعليّ ان اقطع مسافة ٥٠٠ كم الى ان اصل جبل الزاوية في الوقت المحدد . لذلك ذهبت بنفسى الى القرى متنكرا ، احاول جمع التجهيزات ، ثم عدت الى عمان واجتمعت مع الدكتور الشهبندر وعدد من الزعماء ، وكان موضوع الاجتماع يدور حول المحافظة على حقوق ثوار الغوطة ودمشق . ولما صارحت المجتمعين بعزمي على الذهاب الى جبل الزاوية سخرؤا مني ، وتحذوني ، في مثل هذه الظروف التي سيطر فيها الافرنسيون على البلاد ، وخلت من الثوار ، تحذوني ان اصل الى النبك . وراوا في مغامرتي ضربا من الجنون . لكنني بقيت مصرا . وتمكنت من جمع خمسة واربعين مجاهدا ، دسوا بينهم ثلاثة اقساموا اليمين على اغتياالي اذا بدأت بالغامرة ، لان فيها خروجا على المجموع ، ومجازفة بأرواح دون فائدة .

سرنا الازرق مساء ٩ آذار ١٩٢٧ الى الصفاء ، يودعنا خوف وقلق بعض اخواننا وسخرية بعضهم الآخر وحقدهم . وكنا جميعا عالمين بالاطار والمهالك . وكنت آمل ان اضيف الى قوتنا القليلة فريقا من عرب النعير . وقد كانت ميادين سورية قد هدأت كلها ، عدا منطقة اللجا المنيعه ، التي اخذ الفرنسيون يحاصرونها بجذ ، وحشدوا لها جيشا ضخما ، لا يشغله شيء عن هدفه . وفرضت السلطة على اهالي مناطق الثورة تقديم الاسلحة والاموال ، ووكل امر جبايتها الى الوحدات الشركسية . سرنا نحو الشمال والموقف العام على ما ذكرت ، وليس معنا من العتاد الا ما نحمله ، ومن الاعاشة الا ما سنحصل عليه ، ولا شيء من المال . وكنت أقصد من مغامرتي هذه ان استفز نفوس الآلاف من المجاهدين المحتشدين في الاردن ، للعمل . فإما ان نعيد الحياة للثورة ، وإما ان يقضى علينا فنلحق بمن سبقنا من الشهداء .

وصلنا بعد اربعة ايام منازل خلف النعير ، لكننا وجدناه للأسف قد خضع للفرنسيين . وتفاهموا معه واطمعوه بالوعود ، بعد ان اوقعت الطائرات في بدوه الرعب والخسارة . وقد احسن خلف وفادتنا . وأملت عليه كتابا الى المستشار الافرنسي في الضمير (تبريه) : ان فوزي القاوقجي اتى ومعه ٥٠٠ خيال ومدفعان وعشرة رشاشات ... وانه توجه الى الغوطة ليخرب سكة حديد دمشق - درعا ثم دمشق - بيروت . واتجهنا بعد ذلك الى الشمال في الحادي والعشرين من شهر آذار . والتقينا شمال شرق جيروود بجماعة من حمص على رأسهم نظير

النشواتي ، كانت متجهة الى الاردن ، فاقنعناهم بمرافقتنا ، فأصبح عددنا ٧٤ مقاتلا منهم ٢٧ فارسا . وكنا نسير ليلا ، ونكمن طول النهار . وكان الفرنسيون يفتشون عنا باتجاه الجنوب والغوطة .

اضطربنا بسبب قلة الاعاشة الى دخول قرية الفنطر ، وباغتنا أهلها ، وجردنا الدرك من اسلحتهم وخيلهم ، وكمنّا فيها الى الصباح حيث قدمت خيالة درك مع الجابي ، فاستولينا على اسلحتهم وجيادهم . ووصل الخبر الى حمص ، فقامت القيامة واخذت الطائرات تجول وتبحث . وكنت أوهمت سكان القرية اني متجه الى القريتين جنوبا ، ثم سرت شمالا . وصلنا صباح ٢٦-٣ جبل بلعاس ، وكان يفص بقبائل حمص وحماه ، وكلهم يعرفني ، ولم أستطع الاختفاء ، فقررت الظهور ، واستقبلني العربان بالترحيب . ولكنهم للأسف كانوا قد خضعوا للسلطة الفرنسية ، فكان طبيعيا أن يخبروها عن قدومي . فأعلنت ، لتضليلهم ، انني سائر الى السلمية لتأديب أهلها الذين انضم كثير منهم الى الافرنسيين . ثم اتجهت في ٢٨ آذار نحو الشمال تاركا القوات الفرنسية تتحشد في حماة والسلمية .

كان الجو لا يزال باردا ، وقد انهكت قوى المجاهدين ، وتقطعت أحذيتهم من المسير المتواصل بمعدل ٤٠ كم كل يوم . ولم يكن لديهم الا الصبر والايمان . وكنا الآن في ارض منبسطة تملأها منازل عشيرة الحديدية الموالية للفرنسيين . ومن الصعب اجتياز هذه البقعة ليلا دون أن يحسّوا بنا . فقررنا السير نهارا وتنكرت في زي ضابط افرنسي ، ومثلت مع من معي دور سرية متطوعة في الجيش الفرنسي . ونزلت في منازل القبيلة . ولم يشك احد بأمرنا . وعلمت منهم أن هناك قوة تنحدر من حلب وتتحدّد في المعرة وجوارها . ولما أمسى المساء طلبت دليلا لإيصالي الى محل التجمع . وسرنا الى أن قطعنا السكة الحديدية شمال الحمداية . وبقيت لنا حتى سفوح جبل الزاوية الشرقية ارض منبسطة بمسافة ٢٥ كم . واعملنا الحيلة ، وأخذنا نجتاز القرية تلو القرية والمسكر تلو المسكر ، والجميع يظننا جزءا من القوة الفرنسية المحتشدة . ثم نزلنا خربة تبعد ٧ كم عن المعرة . وأرسلت هزاعا الى دار حكمة الحراكي في المعرة ، وهو احد من راسلني طالبا قدومي الى الشمال . فصعق لخبر وصولي في هذا الوقت الذي تفص فيه المعرة بالجنّد . وأمّن لنا بعض الاحذية والإعاشة . كذلك أمّن لنا الامير شايش امير الموالي بعض الذبائح .

تركنا الخربة بعد الغياب ، وسرنا الليل بطوله نحو الجبل . ووصلنا صباح عيد الفطر ٣ نيسان ١٩٢٧ الى قرية جدار . واتخذت قرية حاسة مركزا لي . وأرسلت رسلي ليعلموا من طلبني بحضوري ، وليستنفروا الناس . ولكن كانت اول طلقة أطلقت علينا من قرية (كفرنبة) التي ذهبنا نأتي منها بالإعاشة . فتأكدت

ان الامر صعب ، وانا مقبلون على أحداث جسام . وصلت اخبارنا الى الافرنسيين ، فبدأت الطائرات تحوم فوق رؤوسنا . ف شعرنا هناك بالضيق والغربة ، وأن الاعداء يحيطون بنا من كل جانب ؛ ولم يكن أمامنا الا أن نستمد المعونة من مناعة الارض ، فاتجهت شمالا نحو الجبل الوسطاني ، واتخذت من الجبال المجاورة لباسا موزعا للدفاع . وزاد وقع الامر سوءا في نفسي لما عاد مراسلي هزاع ليخبرني أن الاهلين لن يقدموا المساعدة او يشهروا الثورة ما لم يأت الزعماء الموجودون في تركيا . فأيقنت الا مفر لي الا الصبر والاستبسال ، خاصة في المعركة الاولى حتى أخيف العدو أولا ، وندفع الاهالي الى احترامنا والاشتراك معنا ثانيا .

جمع العدو قواته من حلب والمرة وإدلب وحارم وغيرها ، وزحف على مواقعنا صباح ٥ نيسان . وحاول الإحاطة بنا . ونشبت المعركة ، واحتدمت . وتمكن العدو من التقدم ، وضغط على جناحنا الايمن المنيع فأفرزت قوة لمساعدته وتمكن من دحر القوة المهاجمة ، كذلك فعلنا في جناحنا الايسر . وعبثا حاول الفرنسيون . ولما مالت الشمس الى المغيب ، وأيقن الفرنسيون ان لا طاقة لهم علينا ، انقلبوا مدافعين . واستمرت المناوشات المحدودة حتى ما بعد العشاء . ثم انسحب آخر جندي . وقد كان اثر هذه المعركة عظيما . اذ تأكد الاهالي من قوتنا وصدقنا ، وامتلات نفوسهم اعجابا بنا واحتراما لنا . وقد سقط في هذه المعركة اولاد النبواني ، وأصيب كذلك الدكتور رويحة . وقد جرت هذه المعركة تحت المطر الغزير والبرد الشديد ، ونحن لم نرتج بعد ، وما كنا نملك الكساء او الفداء الكافيين .

أخذ العدو ، بعد هذه المعركة يحسب لوجودنا ألف حساب ، ويخشى من نشر الثورة في هذه الانحاء الخطرة . لذلك أسرع الى جلب الوحدات من كل انحاء سورية ، ولاسيما منطقة اللجا ، التي انقلب فيها مدافعا ، وتمكننا بذلك من انقاذها . قررت الانسحاب الى الجنوب ، وترك الجبل بعد ان تأكدت من عدم امكان الحصول على المساعدة من اهله . وكان علينا أن نفكر في طريقة سليمة للانسحاب ، نضل بها الفرنسيين . لان المنطقة بعد جبل الزاوية سهلة منبسطة . وتظاهرونا بالاتجاه الى أريحا لاحتلالها . حتى أجعل الفرنسيين يحشدون قواتهم هناك ، وفي نيتنا أن ننحرف بسرعة نحو الجنوب . وسرنا في جو قارص البرودة ، وماطر . بعد أن أودعنا جرحانا عند اهل قرية (بالس) . ووصلنا سفوح جبل أريحا مع شروق الشمس ، ففوجئنا بحملات العدو المربطة في سفحه الشمالي . حاولت اجتناب المعركة ، لقلّة العتاد ، والتعب والمرض الذي أصاب رجالنا ، ولكن اضطررت الى دخول المعركة . وصلت أولا فرسان العدو ، فرددناها ، ثم وصلت المشاة تتقدم بحماية المدفعية . ولم يستطع العدو الاقتراب منا ، وجاء الليل ، وتوقفت المعركة ، وكانت خسارتنا ثلاثة جرحى .

تابعنا الانسحاب الى جوار قرية (كفرسنجة) ومنها الى الجنوب . ثم انعطفنا فجأة في الليل نحو الغرب مقابل جبل (شخشييو) ، فأضاع العدو اثرنا . وكنا قد وصلنا المنطقة السهلية ، أي سهول حماة وحمص . وجمعت اخواني وقلت لهم ان من الاسلم لنا أن ننقسم هنا قسمين ، المشاة ومعهم الدليل هزاع ، وأنا مع الخيالة نتحرش بالعدو ، ونلفت نظره الينا فينجو المشاة . وكان المطر الشديد والضباب الستار الوحيد لنا ، يحجبنا عن أعين العدو ، الذي عاد الى الشمال باتجاه جبل شخشييو . فاجتزنا سهل حماة جنوبا باتجاه قرية الطيبة ، ثم تابعنا السير الى حماة . ولما اقتربنا من المستشفى الاهلي ، الهاني حديثي مع الدكتور رويحة عن ذكريات ثورة حماة ، فلم أسمع الا صوت جندي فرنسي يندرنا ، ثم يطلق النار ، وتبعه في اطلاق النار مخفر الحاضر الشرقي . فحنت نفسي لمداعبة حماة ، فأطلقنا الرصاص على المخافر والمستشفى وفي سماء البلدة تحية للبلدة ، ثم اسرعنا بالسير جنوبا الى ان وصلنا مشارف حمص ، فدخلنا احد منازلها المتطرفة ليلا . وبعد استراحة قصيرة تابعنا مسيرنا ، حتى جبال (حسية) . وما كدنا نشرع في تناول فطورنا حتى كان الجند على مقربة كيلومترين منا . فتسلقنا المرتفعات ، ثم سرنا حتى العصر باتجاه الجنوب نحو قرية (الحميرة) . لكنها كانت خالية من اهلها . وهنا لم تعد قوتنا المنهكة قادرة على مواصلة السير . واستولى عليّ النوم . ثم تابعنا السير وأشرفنا على سهل جيروود من الجبل الشرقي . وكان طريق تدمر - القريتين - دمشق يمر بهذا السهل . ورأينا حملة فرنسية تهبط الى السهل ، ولو كان العتاد معنا كافيا لما نجا واحد منهم .

ظللنا في اماكننا نرقب الى ان تحركت قوات العدو نحو جيروود فانحدرنا اثرها . وكانت حاجتنا الى الماء شديدة . ولما وصلنا اول الصفاء اخذنا نفتش عن منازل الأعراب او عن قطرة ماء ، فلم نجدها الا في العشاء . وكانت بركة ماء آسن مليء بالديدان . فمرضنا جميعا . ثم تابعنا المسير ووصلنا منازل الأعراب في ١٤ نيسان . وكان الى جوارها منازل الدروز الذين نزحوا من اللجا . فاستقبلونا وأطعمونا لأول مرة منذ اربعة ايام عشناها بلا طعام ، وبعد مسير ثمان وعشرين ليلة مضنية مخيفة . وحدثني النازحون عن اخبار معارك اللجا ، وكيف كان لحركتنا في جبل الزاوية فضل تخفيف الضغط عن المدافعين ، بعد ان كاد عتادهم ينفد . حتى ان السلطة الفرنسية اصدرت بلاغا بينت فيه أن حركة جبل الزاوية قد تمت بعد اتفاق بيني وبين سلطان باشا الاطرش .

كان في الصفاء عدد عظيم من الثوار . فوجدت الفرصة سانحة لاتخذ من هذا المعقل قاعدة نعاود منها الاعمال في مختلف الميادين . فأرسلت تقريراً مع الدكتور رويحة وعادل الحامدي ، الى اللجان في الاردن أشرح فيه ما تم معي ، واقترح عليهم ارسال المجاهدين الموجودين في الازرق وعمان . وكنت أخشى ايضا أن يتدخل الإنكليز فيضغطوا على الثوار في شرق الاردن بعد أن يروا الثورة قد ماتت

واثبت لهم ان الثورة الان تلفظ أنفاسها ، لكن هناك امكانية للعمل في الصفاء وفي الشمال . وعليهم تأمين أسلحة لثلاثمائة او اربعمائة ثائر من الذين نزحوا الى الحدود التركية ، اما برضاء الحكومة التركية او سرا عنها . فالحكومة التركية كانت تستغل هؤلاء على شكل عصابات من اجل مصالحها الخاصة . وقلت لهم اني على استعداد ان اكون على رأس القسم الشمالي . وبذلك نجعل سورية ميدانا لثورة جديدة، توزع قوى الفرنسيين، ويكون جبل الزاوية ومنطقة الصفاء قاعدتين لهذه الاعمال .

وصلت في هذه الاثناء مشاتنا مع هزاع بحالة احسن منا ، ووصل معهم جرحانا . وانتعشت احوالنا قليلا في الصفاء بما يقدمه لنا خلف النصير وقومه . لكن الافرنسيين بدأوا يهتمون من جديد بالمنطقة ، ويرسلون الطائرات لقصفنا . وفي أول ايار ١٩٢٧ باغتتنا طائرات العدو العديدة قبل طلوع الشمس . ثم ظهرت في الافق الغربي قوات العدو ، فاشتبكنا معهم في ملحمة دامت حتى الظهر ، حيث ارتدوا صوب جبل الدروز تاركين كثيرا من الخيل والقتلى ، وسقطت ثلاث طائرات . وكانت هذه المعركة آخر معركة خضتها في الثورة السورية ، اذ ورد في كتاب من الدكتور رويحة يعلمني فيه طلب الاخوان حضوري للمداولة بأسرع ما يمكن ، فتركت الصفاء في السادس من ايار . وقد استوففني وانا على حدود الصفاء شعور غريب وتمثلت ارواح الشهداء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل حياة سورية ومجدها وقد انتصبت اعمدة من نور . وتسألت : اتذهب هذه الضحايا سدى وبدون ثمن ؟ واجبت نفسي : كلا ، ان هذه الارواح ستوحي الى شبيبة الاجيال المقبلة روح الثورة والتضحية .

وتابعت المسير نحو عمان في التاسع من شهر ايار . والتقيت في الطريق بالامير عادل وسلطان باشا الاطرش ومعهما سرية من الفرسان المجهزين . فاقترحت عليهما اتخاذ الصفاء قاعدة للمركز ، فرفضا اقتراحي بعد تداولهما مع بقيقة زعماء الدروز . وكان هذان الزعيما قد رحلا عن الازرق لان الانكليز ما عادوا يرضون بوجود الثوار اكراما لفرنسا ، وبعد ان كادت الثورة تخمد أنفاسها . حتى انهم استضعفوا أمرهم ومنعوهم ورود ماء الازرق وهم عطشى .

اما ثوار الفوطة ودمشق ، فقد اثرت في نفوسهم اعمالنا في جبل الزاوية ، فاندفعوا يؤلفون حملة بقيادة الامير عز الدين وسعيد العاص . وتوجهوا الى الفوطة . لكنهم مع الاسف لم يتخذوا الحيطة الكافية ، فقد اصطدموا عند دخولهم الفوطة مع قوات العدو في معركة عنيفة استبسلوا فيها وجرح سعيد العاص ، وأسر بعض المجاهدين لأول مرة في تاريخ الثورة . وانسحب الامير عز الدين مع عدد قليل من جماعته الى وادي منين ، حيث لاحقتهم القوات الفرنسية ، وسقطوا جميعا شهداء ، وكانوا آخر شهداء الثورة السورية .

دخلت عمان متنكرا في مساء العاشر من ايار . وكان كثير من الزعماء والثوار قد نرح عنها الى القدس ومصر . والتجأ عدد منهم الى قرايا الملح التابعة لابسن سعود . فغدت هذه معقلا لهم . وقد اودع هناك السلاح الذي ابتاعته الثورة امانة ، على أمل استلامه عند اللزوم . وقد فرض عليهم ابن سعود شروطا قاسية للاقامة ، وحاول تجريدهم من السلاح لولا تدخل الوطنيين في الامر . اجتمعت مع الاخوان ، فأخبروني بأن التدابير قد اتخذت لسفري الى تركيا ، لاقتناعها بمساعدتنا ، ولنجعل حدودها ملجأ نلتجىء اليه عند الحاجة . واذا لم نحصل على معونة رسمية ، فعلينا العمل سرا لشراء مائتي بندقية وما تحتاجه من العتاد . وكان لا بد من التكتم في هذه السفرة . وصعب علينا اخراج جواز سفر من حكومة فلسطين او شرقي الاردن . وبعد عناء وحيلة وتنكر ، ومساعدة بعض الاخوان تمكنت من الحصول على جواز سفر من القدس باسم : عمر فوزي عبد المجيد . وكان لهذا الجواز فضل كبير في تسهيل سفراتي كلها .

اخفيت امر سفري عن كثير من اخواني الذين صادفتهم في القدس وفي مصر ، مما سبب ملامتهم فيما بعد . ووصلت استنبول في نفس اليوم والساعة التي كان فيه كمال اتاتورك يصلها لأول مرة قادما من انقره بعد انتصاراته . وقد اثر في نفسي مشهد الاحتفال ، واخذت اوازن بين حالنا وحال الاتراك وقدراتنا وقدراتهم . وما توافر لاتاتورك من ظروف هيأت نجاحه ، وما جابهنا من مشكلات ، لولاها لكان نصرنا المؤكد ، يفوق نصر الاتراك . مكثت في المدينة بصفة تاجر مهتم بإقامة معمل للنسيج . وكان ذلك ستارا لي يمنع عني اعين مخابرات الحكومة . وزرت ارضنة حيث اتصلت بالسيد عمر البيطار زعيم ثورة جبيل صهيون . ثم انتقلت الى مرعش فعينتاب فعكس ثم الى قرية الحاج فاتح المرعشلي على الحدود السورية . وكنت أسعى الى التعرف على الثوار المتجئين هناك ومحاولة تدارك الامر وتأمين السلاح ... وكان هؤلاء الثوار لا يملكون سلاحا ، وقد شددت عليهم الحكومة التركية ، حتى تعذر عليهم الاجتماع ببعضهم .

وفي اثناء عودتي قبض عليّ ، واتهمت بالتجسس ، ثم اخذت الى ازمير على أن اغادر على اول باخرة . واخيرا طلبت أن يعلموا توفيق رشدي بك بأمرى . فورد جواب بعد مدة بلزوم ارسالي الى انقره . قابلت توفيق رشدي فأظهر لي احترامه وعطفه على القضية السورية ، واستعداده في الفرصة المناسبة للمساعدة ، حتى لا تتأزم علاقات تركية بفرنسة . وطلب مني أن أواجه فوزي باشا رئيس الاركان للاتفاق معه على الخطة .

اجتمعت بفوزي باشا، وشرح لي اهتمامه بالقضية العربية، وتبعه لخبارنا. وسألني رأيي في الخطة الواجب اتباعها ، فشرحت له الامر . ثم طلب مني تقريرا مفصلا .. فوضعت بعد ايام . فعرضها على الفايزي وعصمت ، وقال انهما وافقا

عليها بدون تبديل فيها ، وأعجبا بإحكام وضعها . وستظل هذه الخطة في طي الكتمان الى أن تسنح الفرصة لتنفيذها . وكان الدور التمهيدي فيها أن أقوم متنكرا بجولة على الحدود التركية السورية لتنظيم المجاهدين . فحصلت على اوراق رسمية باسم (فورد نجدت) . وذهبت الى الحدود ، واطمئنت هذه التشكيلات ، دون أن تشعر الحكومة المحلية بالامر . ثم رجعت الى انقرة .

لكن بعض الاخوان في القاهرة أشاع امر سفري الى انقرة ، وتناقلته الصحف ، ووصل مسامع الحكومة الفرنسية ، فاهتمت بالامر ، وتقصت اخباري بواسطة جواسيسها ، ثم ارسلت احتجاجا عن طريق سفيرها (دي شامبيرون) ، وطالبت بتسليمي لها لانني محكوم من محاكمها . واطلعتني توفيق رشدي بك على ذلك ، وعلى رد الحكومة التركية الذي ينفي وجودي في تركيا .

اما ما دار بيني وبين الاتراك عسكريين ومدنيين خلال هذه الرحلة فيتلخص بما يلي :

- أن تركيا تريد ان يكون شكل الحكومة في سوريا ملكيا .
- انهم يخشون فرنسا وجيوشها المحتشدة في سوريا على حدودهم ، ولو كان الامر بيد السوريين لما خافوا شيئا .
- ان قضية الاسكندرون وانطاكية تتخذها تركيا ذريعة لتعجيز فرنسا ، ولولا ذلك لما ذكروا هذه القضية .

وكان وضع الاتراك السياسي صعبا حرجا . فإيطاليا تستعد في الجزر المقابلة لأزمير . وكانت هناك مشكلات حدود معقدة مع ايران ومع فرنسا فسي سورية . لذلك كان وجودي خير وسيلة لتهديد فرنسا . وهكذا تظاهر الاتراك من جهة بالاستعداد لمساعدتنا ، واخذوا يسامون الافرنسيين من جهة أخرى . وبالرغم من تثبتي من هذه الحقيقة ، فقد تظاهرت بتصديق وعودهم . اذ كان يهمني الحصول على بعض المعونة التي تقرر بيني وبين فوزي باشا ، ثم الانطلاق الى سوريا لاشعال الثورة من جديد ، غير مكترث بالاتراك ، حتى ولو سدوا الحدود في وجوهنا .

ضاعفت السعي ، وتوقفت لاعداد التشكيلات وتعيين امكنة الاستلام . لكن ، بينما نحن في هذا ، اخذت ترد الينا اخبار صحف القاهرة وسورية وفلسطين عن خلافات اخواننا المجاهدين ، والتهم التي يكيلها بعضهم للآخر . حتى صار اسم ثورة او ثائر او مجاهد وصمة عار ، لكثرة ما نشر من فضائح مدعومة بصور الزنكوغراف . ومعظم هذه الفضائح اساسها المال للاسف الشديد . وصارحني توفيق رشدي بالامر ، وحاولت الدفاع والتبرير . لكن الاتراك اخذوا يماطلون كلما ازددت إلحاحا . فقد وفقوا في مساومة فرنسا الى الحصول على معظم ما

يطلبون . وتعددت زيارة مندوب فرنسا السامي الى أنقرة ، وعقدت اتفاقيات الجمارك والحدود لصالح الاتراك .

ولما يئست من الاستفادة من الاتراك ، ومن حالة الثورة وزعمائها ، استأذنت من الاتراك للسفر الى مصر ، فأذنوا لي . وصلت القاهرة ، فوجدت حالة اخواننا سيئة ، وعداءهم لبعض أشد من عدائهم لفرنسا . وقد انقسموا الى أحزاب وهيئات وشيع . وكان أبرز معسكرين متخاصمين معسكر حزب الاستقلال ومن أعضائه الأمير شكيب والأمير عادل وأسعد داغر وعادل العظمة والشيخ رشيد رضا وشكري القوتلي ، وحزب الشعب ، وعلى رأسه ميشيل لطف الله وأخوانه، والدكتور شهنندر ، وحسن الحكيم وتوفيق اليازجي والمرحوم الدكتور خالد الخطيب . وكنت حائزا لثقة الطرفين ، فأخذت اتصل بهما محاولا ازالة ما أمكن من أسباب الاختلاف ، وإيجاد قواعد جديدة للتفاهم . وكان أساس الاختلاف حب الظهور والتزعم ، والاستئثار بمقاومة الفرنسيين ، واتهام بعضهم بعضا بالتلاعب بأموال الثورة .

ثم اقترحت بعد دراسة ، عقد مؤتمر تمثل فيه الاحزاب والثوار للعمل على اعادة الثورة ، قبل أن تستثمر فرنسا الاختلافات وخلقو البلاد من الثوار فتتخذ تدابير يصعب معها العمل . فحشد الجميع منفردين هذه الفكرة . ففقدت اجتماعا مع الاستقلاليين أولا فحشدوا الفكرة . ثم عقدت اجتماعا مع اللجنة التنفيذية فدار حديث طويل مع أفراد اللجنة أساسه ان اللجنة هي صاحبة الحق في تزعم امر الثورة والثوار . وكانوا يعدّون الاستقلاليين منشقين . ولما أيقنت الفشل اقترحت انتخاب واحد من كل فريق ، ثم نجتمع نحن الثلاثة لنبحث الامر بهدوء . فكان الدكتور شهنندر عن الشعبيين والحاج اديب خير عن الاستقلاليين . واجتمعنا في داري . وبعد جدال ومناقشات توصلنا الى النتيجة التالية :

تشكيل هيئة عليا تتكون من ثلاث لجان مختصة مستقلة : سياسية ومالية وعسكرية ، وتنتخب من خيرة الرجال . ويكون الاقدام على امر خطير باتفاق اللجان الثلاث . ثم قررنا ابلاغ الطرفين قرارنا . وقد قبل الاستقلاليون فكرتنا على الفور . أما الشعبيون فقد قامت قيامتهم ، على الدكتور شهنندر لقبوله مقترحاتنا . وتطور الامر الى خصام بينهم . فخرجت من هذا الاجتماع موقنا ان صفحة الثورة قد انتهت ، وأنه لم يعد في وجه الفرنسيين اي عقبة تحول دون تنفيذ خططهم في البلاد . ولقد أيدت الحوادث ما كنت المسه وأشعر به ، من ان الخير كله في طبقة الشعب الساذجة ، وأن البلاء كل البلاء من المتزعمين من رجالنا المتفانين في حب الظهور . وجزمت ان الثورات الحقيقية التي سوف تضطرننا أعمال المستعمرين لخوضها يجب ان تركز على طبقة الشعب الشريفة وحدها .

أما أسباب فشل ثورتنا التي وصلت يوما إلى حد إلجاء الحكومة الفرنسية لمفاوضة رجالنا في لوزان والقاهرة وفي ميادين الثورة ... فتتلخص في نقطتين:

أولاهما : اختلاف زعمائنا ، الذي بدا بينهم ، ثم انتقل وانتشر في ميادين الثورة ففرق الثوار .

ثانيتهما : استسلام الأمير عبد الكريم في الريف المغربي ، مما مكّن الفرنسيين من إرسال النجيدات الكبيرة إلى سورية حتى بلغ مجموع القوات ٩٥ ألفا .

وأنني أكتفي بسرّ أسباب فشل الثورة باختصار، تحاشيا لإظهار مساوئ أخرى قد يكون ذكرها ماسّا بكرامتنا القومية .



أخذت أبحث عن ملجأ ، فلم أجد سوى الدولة السعودية النجدية الفتية ، التي تحتاج إلى خدماتنا ، والتي عليها كانت تعقد الآمال في تكوين الكيان العربي الكبير .

الفصل الخامس

اقامتي في نجد

١٩٢٨ - ١٩٣٢

انا الآن اتمشى على ظهر احدى بواخر الشركة الخديوية ، التي تشق عباب البحر الاحمر متجهة الى جدة . الشمس محرقة ، والبحر هادىء ، والباخرة تحمل القافلة الاخيرة من الحجاج ، لتدرك الجمع الذي لم يبق له الا ايام معدودة . وتمركز نظري في افق هذا البحر ، واخذت الافكار تتوارد على مخيلتي ، فأتصور الدولة السعودية الناشئة ، والتي بسطت نفوذها على ربوع الحجاز وعسير ونجد . وكنت اشعر بغبطة وابتهاج وأنا افكر في ان اكون جنديا يخدم في هذه الدولة . وكنت كلما تقدمت الباخرة من (جدة) ازداد شغفي وعظمت آمالي وأحلامي .

كنت قرأت ما كتبه الخبراء العسكريون الاجانب عن الحركات الحربية التي قام بها جيش ابن سعود ، وهو يفزو العراق وشرقي الاردن والحجاز في آن واحد مقتحما الصحاري الممتدة من الرياض الى تلك الاماكن . وقارنت بين المعارك التي قضت جيوش الفتح الاسلامي بها على جيوش الفرس والرومان والمعارك التي قامت بها جيوش ابن سعود في (تربة) ، ومعارك (جدة) الدفاعية .

نزلنا (جدة) محرمين ، واتصلت عند نزولي بالأخ فؤاد حمزة حيث كان على علم بقدومي ومكثنا قليلا في جدة . توجهت بصحبته بسيارته الى (مكة) . ولم

يثر منظر مكة المكرمة ، التي تعج بالحجاج من كل فج في نفسي شعورا جديدا لأنني كنت شاهدت هذه المناظر في حجة سابقة ، ولكن المنظر الذي استولى على مشاعري كان منظر الجندي العربي الباسل ، بلباسه البدوي وبجهيزاته الكاملة .

نزلنا دار فؤاد حمزة ، وكان الاخ الامير شكيب نازلا فيها وهو الذي مهد لي سبيل قدومي الى الحجاز ، وكان قد دعي اليها من قبل الملك ابن سعود . وتعرفت بالسيد يوسف ياسين ، مستشار الملك ابن سعود ، والسيد خالد الحكيم والدكتور شيخ الارض طبيب الملك الخاص ، والدكتور محمود حمودة رئيس الصحة ، والسيد رشدي ملحس محرر جريدة (أم القرى) . وكانت احاديث هؤلاء تدعّم ما في نفسي من الآمال وتقويها . ثم اتصلت بسمو الامير فيصل نائب الملك في الحجاز ، والسيد عبد الله سليمان وزير المالية ، وعبد الله الفيصل رئيس ديوان الشورى ، وكثيرين غيرهم ممن كبار النجديين والحجازيين . ثم سنحت الفرصة فاجتمعت بالملك في (مكة) . جلسنا على سباط قد مدّ للعشاء ، وكان يتصدره الملك والامير شكيب عن يمينه ، وكنت على مقربة من يساره ومشايخ نجد ، وكبار رجالات الحجاز يحيطون بهذا السباط . ثم انتقلنا بعد العشاء الى مجلس الملك الخاص ، حيث لم يكن فيه سوى الامير شكيب وسواي وفؤاد حمزة والشيخ يوسف ياسين . فبدأ الملك يتدفق بالاحاديث بلهجته النجدية البدوية الى ان قال : «اني والله لا أنام الليل من الخوف ، والخائف حذر . واني لا أتمن احدا على ملكي ، حتى اخي او ولدي هذا ، مشيرا الى سعود ، واني احتفظ بمفاتيح مستودعات السلاح والمدافع والعتاد بجيبي هذا ، ولا أسلمها لاحد الا عند الحاجة» . وكان الامير شكيب يصفني وأنا متأكد انه لم يفهم مما قاله الملك شيئا . ولقد اثار حديث الملك في نفسي من عدم ائتمانه لاحد ، حتى اخيه او ابنه ، وإبقاء المهمات في مستودع ، ومفاتيحها في جيبه ، اثار في نفسي شيئا من الريبة والقلق في امكان تحقيق اي امل من آمالي بهذه العقلية .

وبعد القهوة عاد الملك الى الحديث من جديد وكان الآن سياسيا محضا . قال الملك : « شكيب شف سلّمك الله . اني اعلم بسياسة الدول ، وأنا اللي اعلمك . شف سلمك الله : أمّا أمريكا فهي أمة تجارية لا تقدر على الحرب وما هي الا صوت وبطن خال . والله كأنها مربوطة أوصالها بخيطان من عنكبوت ، ان انقطع خيط منها انفككت كلها عن بعضها . وأما فرنسا فهي قوية ضعيفة . قوية بمعدّاتها الحربية ، وضعيفة لان الانكليز منوخين عليها من كثير ، والالمان باركين عليها من كثير ثاني . وأما الالمان ، والله ، انها أمة قوية ولكنها معدومة من معدات الحرب . وأما ايطاليا ما قدامها غير الهلاك واللي على راسها هذا هللي يسمونه موسوليني سايقها للهلاك ، كانه حامل على راسه قدرته ، ويموت ما يدري وين متجه والله ان وقع الجدر غير يطيره ويطير معاها ايطاليا . وبارك الانكليز على رقبة ايطاليا مثل ما تبرك بحملة الشمنديف على الريل . وأما الانكليز

والله انهم اقوى دولة وامن دولة . والله ما عاهدوني وخانوا ولا أوعدوني وأخلفوا ، وهم اهل كتاب . والله اني ما اقدمت على عمل الا استشرتهم به قبل الاقدام ، والله ما غشوني يوم وهم ينصحونني في كل يوم . واما (يحيى) ، سلمك الله ، ويش أقول عنه ؟ هو شيطان صامت . و(الحسين) شيطان متكلم . أما نحنا ، سلمك الله ، والله سالكين مسلك السلف الصالح ؛ المصاحف برقابنا والسيوف بيدينا » .

وهنا ينتهي تصوير مجمل الموقف السياسي العالمي في نظر (جلالته) . وهذا الانطباع السياسي في فكر جلالته الملك كان اشد وقعا على آمالي واحلامي من طراز استعماله المهمات الحربية . فاصطدمت آمالي واحلامي بحديث جلالته في هذه الجلسة فزعزعتها وحطمتها . والامير شكيب مصغر بكليته . وأنا أعتقد انه لم يفقه شيئا من احاديث جلالته . واخيرا التفت الملك الي سائلا : «وانت ايش تقول» . فقلت : طول الله عمرك . انت أعلم منا بكل شيء ونحن ما اتينا الا لنخدمك بما تأمر وتستنسب» . قال : «بارك الله فيك . وعندك فؤاد ويوسف اتصل بهم» .



نحن الآن نسير من مكة الى عرفة . وكان الوادي الذي تمر الطريق منه يغص بالحجاج ، والعجاج يتصاعد الى السماء . وكان موكب الملك يسير بسيطة وتؤدة وهو ممتطر ذلولا ، تحيط به حاشيته ورجاله على هجن ، منحسري الرؤوس ، محزمين . وكان الخشوع ظاهرا على وجه فيلبي اكثر من وجوه من كان في الركب . وكان للملك كظله ، لا يفارقه الا عندما يستنسب موقفا لأخذ صورته . والمسبحة وآلة التصوير هما الشيطان الملازمان لفيلبي التقي الورع !

كان فيصل الرويش شيخ قبائل مطير ، الذي كان ساعد الملك ابن سعود الأيمن في فتوحاته بنجد ، وفاتح مكة ، قد اشتد الخلاف بينه وبين الملك ، ولم يعد بالإمكان معالجة هذا وإزالته . فخرج على الملك فجمع قبائله . واخذ يشن الغارات على العراق ويسلب قبائلها ويهدد الامن فيها . مما دعا حكومة العراق والانكليز معا ، الى اتخاذ التدابير . وقد استفحل أمر الرويش ولم يكن للملك ابن سعود بد من قتاله . فأخذ يجمع بدوره الجموع ويرسلها الى نجد . أما وجهة الخلاف فترجع الى اسباب عديدة : أهمها ان فيصل الرويش الذي يعتقد ان له أكبر حق ، لبذله أعظم مجهود ، لم يستطع تحمل معاملة الملك لبقية الرؤساء ، الذين كانوا بالامس أعداءه وأصبحوا اليوم من المقربين لديه . وما يبذله من الاموال والعطايا لهؤلاء اكثر مما يبذله لفيصل ورجاله ، والقصور التي اخذ يبنئها جلالته لنفسه وللأمراء ، والسيارات التي اقتناها والتي أهداها لسواه دون تخصيصه

بالعدد الاوفر منها . وعدّ ذلك اجحافا بحقه من جهة ، وإسرافا في أموال بيت المسلمين من جهة ثانية . ولما لم يكن بالإمكان تسوية الامور استطار شر الخلاف فانقلب فيصل عاصيا على ابن سعود .

وبعد ان اتم الملك استعداداه ، وحشد جيوشه ، عزم على السفر ليتولى قيادة هذه الجيوش بنفسه ، ومقاتلة الرويش . ولقد اعتبرت هذه الفرصة ملائمة لتقديم خدماتي لجلالته ، فطلب الامير شكيب منه ان يأذن لي بالاشتراك في هذه الحركات ، لكنه لم يقبل لان لون وجهي في نظره يشبه لون الانكليز ، وهو يخشى ان يتهمة الرويش والعرب باستعانتهم بالانكليز على قتاله . مع انه قد اشترك ضباط عديدون من الانكليز في قتاله مع ابن رشيد ، وقد قتل احد هؤلاء الضباط المدعو الملازم شيكسبير في ميدان المعركة .

وقررت امانة العاصمة في مكة اقامة حفلة لتوديع جلالة الملك حضرها الاعيان والوجهاء ، ثم اتجه بركبه لاحقا بجيوشه حيث واعدتهم الاجتماع . وكان الرويش من جهة اخرى قد سمع بهذا الحشد العظيم ، فجمع قواه واتجه لاطراف قرية (السبيلة) فحصّن مركزه ، وحفر الخنادق وأقام المتاريس وأخذ ينتظر قدوم جيوش الملك اليه . ومن هنا يتضح لنا ان الامر جد للغاية . وان المؤتمر ينعقد لامر خطير ، قد شطر نجداً الى قسمين ، وأصبح الملك مهددا . وتابع المسير مع جيوشه الى (السبيلة) امام مواقع الرويش . فأخذ يرأسل الرويش ، ويحاول اقناعه ليصرفه عن القتال . ولكن لم يتفقا واصبح القتال امرا واقعا . وسار الملك ومن معه نحو مواقع الرويش . وكان التفاوت في القوة عظيما ؛ اذ كان جيش الملك ٣٠ الفا بينما كان جيش الرويش لا يتجاوز ٨ آلاف ، فكانت ملحمة عظمى قضت على جيش الرويش بجرح في هذه الموقعة ، وتمكن من الفرار ومكنته من الجزيرة مرة اخرى ، وانتشر نفوذه فيها بدون معارض .

عاد الملك الى الحجاز منتصرا ، ودخل المدينة المنورة ، ومكة المكرمة دخول الفاتح الظافر تحت اقواس النصر ولم يبق في الجزيرة معارض ، او من يخشى الملك امره . فجعلت هذه المعركة في نفس الملك نشوة عظيمة وغرورا كبيرا .

وكان الامير فيصل السعود تمكن بدهائه وحنكته من ادارة الحجاز وعسير بطريقة لم يدع معها مجالا لمن تخامر نفسه في استسناح الفرصة للانقضاض على الملك ابن سعود . وكان فيصل قد تمكن كذلك من ان يؤمن لجيش الملك كل ما يحتاجه من المؤونة والتجهيزات والعتاد والبززين من تجار الحجاز ، دون ان يدع احدا منهم يرفع صوته بشكاة . وبهذا يكون فيصل قد حمل العبء الثقيل في اقرار الامن من جهة وتموين الجيش ، مما يصعب بدونهما نجاح حركات الملك .

وكان فيلبي يلعب دوراً خطيراً في مقدرات البلاد في موضوع السيارات التي حُبِّبَ اقتناءها الى الملك . ولكن المئات من السيارات التي كانت ترد للملك سنوياً كانت لا يدور الحول عليها الا وهي هرمة ، وذلك لفقدان الطرق ، وصعوبة الاراضي الرملية من الحجاز ونجد ، وقلة اهل الخبرة من ميكانيكيين وسواقين .

استقرت سياسة الدولة وانتشر نفوذ الملك في الحاضرة والبادية .

كان الملك يجلس جلسة عامة ، يأتيها من يشاء ، وكنا نتردد لحضور جلساته هذه .

وكنا كثيراً ما نساق الى هذه المجالس الخاصة ، حيث تدور فيها بعض الابحاث السياسية وكثيرا الابحاث الفرامية . فكان كل منا يذكر موضوعاً او يقترح اقتراحاً فخطر لي يوما ان اذكر لجلالته مزايا الجيش النظامي الذي يستعمل الاسلحة الحديثة ، عدا البنادق ، فيكون هذا خير عون للجيش الباسل في تسهيل واجباته الحربية ، ويخفف من وطأة المعدات الفتاكة اذا ما اضطر يوما للاشتباك مع جيش نظامي ، فأجاب الملك بشيء من الشدة : «اني والله لا اترك رجالي تحت رحمة اعدائهم لا يقاتلون ولا يتقدمون الا بأمر ضابط يتأمر عليهم . واني لا أرغب ان اراهم مصفوفين يتقدمون ذبائح لاعدائهم» . وأخذ يشرح لي ما عمله جنوده في المعارك النظامية في وقائع حربية مع الجيش الشريف النظامي ووقائع ابن الرشيد الذي اشرك الجيش التركي النظامي فيها . فأدركت وقتئذ ان الوقت لم يحن بعد لفهام الملك قيمة الجيش النظامي ولزوم وجوده . ودار الحديث نحو السياسة ، فذكر احد الحضور ما قالته بعض جرائد مصر عما تعمله الاحزاب المصرية فسي نضالهم مع الانكليز فتدفق الملك يخطب غاضباً: ان الاحزاب كلها بلاء وضرر للبلاد، ولولا حكمة البرلمان الانكليزي لذبحت جنود الانكليز في مصر مليون او مليونين او ثلاثة من اهل مصر ولذبحت عشرات الملايين من الهند فماذا عساه يصنعون ؟ ولكن كل البلاء من اهل التحارير (وهي الجرائد) الذين يكون احدهم في الليل خمار رقاص زمار . ولما يصبح الصباح يكثر الوسائد وراء ظهره ، ويلف رجلاً على رجل ثم ... العب يا قلم ... فيكتب ما يشاء من الفساد ويحرك ما يشاء من العباد ويكون سبباً للشر والبلاء . فهو يرى ان هذه الاحزاب التي لا فائدة منها يجب ان تُلغى ويجب ان يتفاهم رجالها مع السلطات المحتلة التي تحتل بلادهم ويرضخون . ثم يجمعون المال سرا ، ويرسلونه للحجاز ليتقوى به واذا ارادت ان تقوم البلاد العربية بعدئذ قومة رجل واحد لطرد عدوهم فالملك يقسم ان يمشي عندئذ من ورائهم لمعونتهم . وبغير هذه الطريقة لا يأمن العرب . ثم قال : ان العرب خرجوا من دينهم فحق قتالهم . والانكليز اهل كتاب . والله لو تقع حرب في هذه الجزيرة بين العرب والانكليز ، فاني اقف في صف الانكليز ، وليغضب من يغضب من العرب وليرضى من يرضى منهم . وكان يسمع هذه التصريحات نبيه بك العظم وخالد الحكيم وفؤاد حمزه ويوسف ياسين .

اما سياسته الخارجية ، فتركز على صداقة بريطانيا العظمى التي يرى فيها وحدها الضمان الكافي لسلامة حدوده . فهو حريص جد الحرص على عدم ايجاد اي حادثة او ظروف تمس بهذه الصداقة . اما ايطاليا التي لم تكن لتعترف به بعد كملك على عسير ، بالرغم مما يظهر من نواياها السيئة تجاه عسير ، فهو لم يكن ليخشها ويحسب لها حسابا كبيرا ، بناء على متانة صداقته لبريطانيا ، التي هي في نظره اقوى الدول ، وكلمتها نافذة على كل الدول . ولم يكن لايطاليا وقتئذ جيش مهم في الاترييا على الساحل المقابل لسواحل عسير . واما علاقته مع اليمن فكانت ممزوجة بشيء من المطامع يفذيها (فيلبي) دوما . وكان للملك صلات قوية مع رؤساء قبائل الشوافعة في اليمن ومع بعض قبائل أخرى ، ممن لم يكونوا على صفاء مع الإمام يحيى ، فكانت هذه الروابط ورسائل مشايخ القبائل اليمانية المذكورة ، الذين كانوا يحثونه فيها دوما على الاقدام على احتلال اليمن وانقاذهم من الحكم الزيدي . كما كان تحريض فيلبي وتهوين امر فتح اليمن ، بما يديه لابن السعود من الآراء والخطط التي لم يسر الترك عليها وبتقديمه المعدات اللازمة لهذه الغزوة ، كانت هذه الامور كلها تملأ نفس الملك بالاحلام والمطامع .

اما العراق فقد كان ابن سعود يخشى وجود الملك فيصل فيه حيث يعتقد فيه الدهاء والمقدرة والكياسة والحنكة الكافية لايجاد المشاكل المهمة لتعجيز ابن سعود في بلاده . ولكن هذه المخاوف كانت تتلاشى امام ثقته ببريطانيا التي لها الكلمة العليا في العراق . وكان يكره الامير عبد الله ويخشى طيشه ولكن كان يستضعف عمله ويطمئن من وجود بريطانيا الحاكمة في شرقي الاردن للقضاء على ما يحتمل ان يقوم به من الدسائس . فليس لابن سعود بالاجمال ما يشغل باله او يخيفه على سلامة حدوده . اما علاقته بمصر فكانت سيئة جدا ، وذلك لعوامل تاريخية . اولها فهو لم ينس بعد غزوة مصر بقيادة محمد علي وابراهيم باشا وطردهم سعود الكبير منها ، ثم مطاردتهم لابن سعود في نجد واحتلالهم اياها ، ودخولهم الرياض ، التي لا تزال احدى ثكناتهم قائمة فيها حتى اليوم . كما كان لقطع مصر مخصصات الحرمين الشريفين من الاموال والارزاق ، وعدم ثقتهم بالسعودية بتسلمهم اموال الحرمين ، التي يخشون تصرفهم بها على غير وجوها ، ولما حدث في الشهر الاول من حكم السعودية في قضية المحمل التي كان لها الاثر السيء في توتر العلاقة بين البلدين . وعدم اعترافهم بالملكة السعودية وما يلزمه ابن سعود من ميل الشعب الحجازي وعطفه على المصريين . كل ذلك جعل علاقة ابن سعود بمصر متوترة وفي اضطراب مستمر . ولقد سعى الملك كثيرا للتفاهم مع مصر على اساس استلام المخصصات ليصرفها على الحرمين ، فلم يثمر مسعاها . وكان لغنى مصر التي تستطيع معه تجهيز الجيوش ، ولما تتمتع به من عطف ونفوذ معنوي في الشعب الحجازي خاصة اثر في جملة في قلق وريبة مستمرين .

اما السياسة الداخلية فتركز على ما اوجده من النفور والعداء بين القبائل

النجدية والحجازية ، ثم على قوة اهل العارض ، وبعض القبائل الموالية له وجيشه الصغير . ولقد تمكن من تسليح سيارات واقام في كل مراكز الدولة الاسلكي التي سهلت له الاطلاع على اي حادث يقع في حينه ، وسرعة القضاء عليه قبيل استفحاله . ولقد قطعت المعاهدات التي عقدها مع العراق وشرقي الاردن والكويت كل أمل من نفوس من ينوي القيام عليه . فخيّم الامن بذلك ، وخلدت القبائل الى السكينة ، وارتفعت الثقة من بين القبائل ، حتى اصبحت تنظر كل قبيلة الى الاخرى بعين الريبة والحذر . وقد بث الملك بين جميع هذه القبائل عيونا له تخبره بالكبيرة والصغيرة من اعمال هذه القبائل .

اما الحجاز فما كان ابن السعود ليخشاه ؛ اذ وطد نفوذه فيه على نفس الطريقة التي اتبعها في نجد وزيادة على ذلك بما اقامه فيها من الجيش النجدي وبما لحق الحجاز من فقر .

وكان ابن سعود في بادئ الامر لا يهتم بشأن الجرائد ، ولا بسلاح دعايتها ، وكان يعتقد انه باستطاعته الاستغناء عن العرب كافة ، ولكن العرب لا يستطيعون الاستغناء عنه فهم مجبرون على التمسك به ومجاراته لافتقارهم لمعونه بينما هو في غنى عن معونتهم ، التي لا يحسب لها حسابا ، ولا يقيم لها وزنا ، طالما هو حاصل على صداقة بريطانيا العظمى ومودتها . واما منشأ هذا الغرور فكان مما تنشره الجرائد من الفصول الطوال عنه ، وبما تعلق عليه الامة العربية من آمال لانقاذها من الاستعباد والاستعمار . وكان كل من يخرج من زجالات العرب من الحجاز يعطون الاحاديث للصحف ، ويبالغون جدا في تعظيم اعماله . ولم يلمحوا ولو مرة واحدة عن اعمال انتقدوها فيه انفسهم . مما جعله يعتقد بنفسه ما تقول الصحف عنه ، والرجال ايضا . فهذا ما حمل اليه الغرور ، وجعله يستصغر شأن العرب ، ورجالاتهم الخارجين عن حدود سلطانه .

كان نبيه بك العظمة جاء الحجاز ، كما ان الامير شكيب غادرها . وكانت احوال الدولة تسير من سيء الى اسوأ ، وتمشي الى الانحطاط بسرعة . وكان للضائقة المالية العالمية اثرها القوي في الحجاز . الحجاز الذي يستورد كل حاجياته من الخارج ، وليس فيه ما يصدره للخارج . واحتياجات الدولة والبلاد تدفع اثمناتها من موارد الحج . وقد اخذ يتناقص هذا المورد ويضال لدرجة انه لم يتجاوز في عام ١٩٣١ المائتي ألف دينار ، وهو مبلغ لا يكفي لسد حاجيات العائلة المالكة وحدها . وتناقصت اعطاءات الملك للقبائل والرؤساء ، مع تناقص الواردات . وكانت هذه الاعطاءات مصدرا للمعيشة للبعض ، وضمانا لاستكانة الآخرين . واخذت القبائل تطالب بمخصصاتها بالحاج . واتخذت الاخرى مواقف اثارَت الريبة والمخاوف في نفس الملك . وراجت فكرة تأسيس جيش نظامي تحت هذه العوامل والظروف ، وذلك ليكون الجيش سببا في إعالة كثيرين من النجديين ،

وقوة احتياطية تطمئن مخاوف الملك من مواقف القبائل المريبة . فتقرر أن يعهد الى نبيه بك العظمة تأليف هذا الجيش ، وأن اكون معاونا له . فأخذنا نضع منهاجا مفصلا ، وأردفناه بتقرير شامل قدمناهما لنائب الملك الامير فيصل وطلبنا ان نقوم بجولة تفتيشية لفحص ما هو موجود في المستودعات من الاسلحة والعتاد والتجهيزات . فوافق النائب على هذه الفكرة . بدانا أولا من مكة . وكانت هذه المستودعات تحت سلطة ابن سليمان مباشرة . وكان مستحيلا معرفة ما يحويه هذا المستودع مما بهما ، ففيه كل شيء ، وضائع فيه كل شيء . ولا يدري احد عما فيه من محتويات .

وذهبنا الى جدة . فكان الصدا والعفونة حرس هذه المستودعات . وذهبنا الى بقية المراكز الى ان وصلنا المدينة . وهناك حضر امير المدينة علينا رؤيصة المستودعات ، لانه سر من اسرار الدولة . منعنا من الدوام على التفتيش ، وطلب منا العودة حيث قدمنا تقريرنا الى نائب الملك مفصلا ، فقبله بارتياح . ولكن الموافقة الوجيهة لا تعني الموافقة على التنفيذ . وأخذت الماطلة تسود الموقف . وبعد ايام زارنا فيلبي وكان يظهر اهتمامه بأعمالنا المفيدة الى هذه الدولة العربية . وأخذ فيلبي يشرح لنا سياسة انكلترا ، ويؤكد لنا انه ليس لها أدنى منفعة من كل مستعمراتها ، ويتمنى لو تخرج هذه المستعمرات من يدها . مكثت بالتعامل التجاري معها . وانتقل الحديث الى التحدث عن الملك فذكر فيلبي عدله وعبقريته وذكاءه ومزايه النادرة . وقال : يجب ان يكون هو وريث العباسيين . وانه ساع الآن لحمل الملك على تحقيق هذه الفكرة . فيجب ان تكون العراق والسعودية واليمن وشرقي الاردن ممزوجة في هذه المملكة . ولما سألته عن فلسطين وعدن ، قال : بالطبع يتفاهم ابن سعود مع بريطانيا من اجلهما . واحتدم بيننا الحديث ، فصارحته عن حقيقة امره ، وأمر بريطانيا ، وأنا لسنا بالبلهاء ولنسأ بفراقي العقل ، حتى نقبل مثل هذا الهذيان . فبريطانيا بمعاملتها العرب ، وبقطعها العهود لها وقطعها عهودا أخرى عليها ، في الوقت نفسه . ونكثها بما عاهدت عليه العرب ، وتنفيذها بما عاهدت عليه اليهود بالسلح ، تكون أسفل عدو عرفه التاريخ . فتدخل فؤاد حمزة ، وقال : انه لا يحق لك وأنت تتمتع بصفة رسمية ، أن تتكلم مع فيلبي بمثل هذا الكلام . ثم انقلب الحديث اخيرا الى مواضيع أخرى ، وبرودة الدم الانكليزي مهيمنة على أعصاب فيلبي التي أثبتتها بدعوته ايانا لتتناول الشاي عنده .

ذهبت انا ونبيه بك الى منزله قبل الموعد ، ودخلنا غرفته ، واذا بنا امام منظر جد غريب : اذ رأينا فيلبي جالسا وامامه عدة وسائد ، موضوع عليها عدة اكياس من الذهب . وامامه من شيوخ نجد الذين يتلثمون عندما يرون أمثالنا كي لا يشموا رائحة الشرك فينا ، جالسين يتفاهمون مع فيلبي على امر الذهب بكله . ولما رأنا فيلبي ، قام ، فحيانا ، وقال : ان هؤلاء يحبون المعاملة مع البنك ، وأنا

وسيطهم . فجمع الاكياس ، واوما للجماعة ، فخرجوا . وقلت له وهو خارج للاجتماع : انك يا فيليبي واسطة خير في هذه البلاد ! وبعد ان اتم أعماله مع المشايخ ، وصرفهم ، حضر لعندنا . واحتسينا الشاي معا . وكان يدلي بأفكاره في سهولة عن غزوة اليمن والخيرات التي فيها ؛ اذا استحوذ عليها الملك تخفف عنه الضائقة . ومما قاله ان الاتراك اذا لم ينجحوا في استيلائهم على اليمن واستقرارهم فيها فذلك لانهم كانوا يفزونها دوما من السواحل . ولكن اذا توجهت الغزوة من الشمال فهذا طريق يتوقعه اليمنيون ، ويتم النصر فيه لابن سعود ، ويسهل عليه تأمين استقراره في اليمن لعلمه وسعة اطلاعه على عوائد واخلاق اليمنيين مما كان الاتراك يجهلونه . ومما قاله ايضا انه لا فائدة من بناء السكك الحديدية التي اصبحت من الوسائل القديمة ، والتي صرفت عنها أوربا اليوم ، واستعاضت عنها بالسيارات ؛ فهي خير وسيلة في هذه البلاد .

خرجنا من عند فيليبي وأنا أفكر بما يحمله من هذه الافكار الغريبة . والغريب ان عباراته هذه كان جلالة الملك يرددها عينا في تبيان آرائه لنا في مجالسته الخاصة . وفيليبي في نظري اعظم من لورنس ولا شك ؛ لان لورنس كانت مهمته حمل القبائل العربية لقتال الاتراك في جانب الملك فيصل ، وكان المرحوم حليفا للجيش البريطاني ، وكان في متناول يد لورنس كل ما يحتاجه من الذهب ، والسلطات التي يتمتع بحق استعمالها والتصرف بها دون استئذان . ولكن فيليبي لوحده يقوم بإرشاد الملك الى اهداف معينة ، ويدافع عن الملك في لندن ، وينشر من الدعاية في الخارج كذلك ، ويرشد دائرة الاستخبارات البريطانية الى الطرق التي يجب اتباعها مع الملك . كما انه يحمل حكومة بريطانيا على تعقيب السياسة الصالحة لتأمين نفوذها في الجزيرة . فهو يمثل شركات السيارات التي تدر عليه الارباح الطائلة ، ويمثل مستشارية ابن سعود ويمثل دائرة الاستخبارات ، ويمثل الحكومة البريطانية . فهو يكتب تقاريره يوميا ويرسل نسخا منها الى السفير في جدة ، والى الانتلجنس سرفيس في لندن ، ويحتفظ بنسخة منها في خزائنه . وله محاضرات قيّمة ومقالات مهمة ينشرها بصورة علنية في الصحف من وقت الى آخر ، ويلقيها في مجتمعات لندن .

وتقرر اخيرا ذهابنا الى مكة لاستلام امور الجيش ، فوصلناها بصحبة نبيه بك . وكانت كل أعمالنا لا تتجاوز القرطاس . وفي كل مطلب من مطالبنا ، كبيرا او صغيرا نجد انفسنا في تحقيق امام ابن سليمان وزير المالية وغير مرتبطين بنائب الملك . فلم نتقدم خطوة واحدة في أعمالنا خلال الاشهر الاولى من وجودنا في الحجاز . وابقنا اخيرا انه لا فائدة ولا امكان للعمل . فلم يسع نبيه بك الا ان قدم استقالته . وبحكم هذه الاستقالة اكون كذلك مستقيلا . غادر نبيه بك البلاد وراجت الشائعات كالعادة عندما يغادرها اي شخص ما ، فلم يأت شخص من

الخارج من رجال العرب المعروفين الا وخرج غير راضٍ وآسف ، كما كان الرجال المسؤولون غير راضين وغير آسفين على مغادرته البلاد .

كلف باستلام الجيش . ولكني أعلمتهم انه لا فائدة من استلامي انا او اي شخص آخر على الطريقة السالفة الذكر . ولما ألحوا عليّ أعلمتهم بما ارتأيتـه لانهاض الجيش وإصلاحه ، فقبلوا . واستلمت الجيش وكان من مقترحاتي أن يجتمع الجيش كله في جدة ، ما عدا مفارز صغيرة تترك في المراكز اللازمة . ثم تجمع الجيش واخذ بتوحيد اسلحته ، وبدأت بتنفيذ برنامج لتدريبه . واخذت حالته تتحسن تدريجيا . وقد أبدى الجندي النجدي استعدادا عظيما في تلقي العلوم العسكرية والتدريب المنظم . فلم تمض بضعة اشهر حتى كان الجيش بجميع اسلحته في مستوى يعادل مستوى الجيوش النظامية في الشرق . وتوسعت في التمرينات والتطبيقات والمناورات حتى جلبت الانظار . واخذت تدور عني بعض الاشاعات عن سر هذا الاستعداد والنشاط الذي ظهر في الجيش . وكانت صلتني اخذت تقوى بسمو الامير فيصل ، وتأسست بيننا صداقة متينة . ولكني كنت اشعر من ابن سليمان بمجاملة غريبة بنسبة تقدم هذه الصداقة بيننا . وكان يسمى لارضائي وجذبي نحوه ما استطاع بتأمين كل مطالبتي عامة وخاصة . حتى قرب يوم جلوس جلالة الملك ، فقررنا القيام باستعراض نظامي باهر ، بالرغم من بعض النواقص الموجودة ؛ فلم يكن لدينا مثلا حيوانات لجر المدافع ، فاستأجرنا بغال رواة الماء في جدة ، وتدبرنا الحبال وغيرها من الوسائل واخذنا نمرنها يوميا على سحب المدافع . حتى اذا كان يوم الاستعراض تمكنت من اظهار الجيش امام جلالة الملك والسفراء والاعيان بمظهر تجلّى فيه النظام الذي لم يعهده احد في الحجاز ، حتى في دور الحكومة العثمانية . وعندما كانت تمر المدافع امام الجمهور فسي الاراضي الرملية ، وانا عالم بهوانة البغال المجروحة ، وهوانة الحبال ، كان يزداد خفقان قلبي ، خوف انقطاع حبل ، او تعثر بغل ، فتفوص عجلات المدافع فسي الرمل ، ويتوقف المهرجان ، حيث يستلزم سحب هذه المدافع لافساح الطريق جهود الجنود كلها وربما بعض المتفرجين . فتم الاستعراض بدون حادث وعلى غاية ما يرام . وبعد هذا قمنا باستعراض آخر على الطريقة النجدية بلباسنا العسكري امام الملك والسفراء ، الذين باركوا لي وللملك . وقد أهداني الملك على اثر هذا الاستعراض سيفاً قيماً تاريخياً لآل الرشيد ، كما أعلمني جلالته انه أهداني سيارة وفرنسا كريمة .

وكان الابتهاج عاما شاملا لمناسبة الاحتفالات في عيد الجلوس الا عند علماء الدين الوهابيين ، الذين اعتبروها كبدة ، وطلبوا الغاءها ، وانه يجب ان يستغفر من الآثام التي لحقته لرضائه بإقامتها . فنشر جلالة الملك كتابا استغفر فيه ذنبه وأعلن الغاءها معترفا بخطيئته . وهكذا كانت سلطة رجال الدين ظاهرة بارزة لا يعارضها احد .

كانت الضائقة المالية آخذة بالاشتداد ؛ فكان الجند لم تصرف لهم رواتب منذ ستة أشهر ، وكانوا يؤمنون معيشتهم بما يستقرضونه من اصحاب الدكاكين . ولكن هؤلاء لم يعد بوسعهم دوام قرض الجند ، فأصبحت حالتهم حرجة . وعبثا راجعت وكتبت بوجوب صرف شيء من الرواتب . واخيرا قررت ان اذهب بنفسي لحل هذه المشكلة مع الامير فيصل . وقبل ان اغادر جدة الى مكة فاجاني عبد الله ابن سليمان بزيارة نصحني فيها بلهجة التهديد بترك الامر كله ... كان نفوذ ابن سليمان قد امتد الى فروع الحجاز كافة من حضر وبادية . وكان أخصاؤه ، وبقية المنتسبين اليه من حزبه ، يتمتعون بأنواع الخيرات ، وهم في حصانة تامة من ان ينالهم عقاب . وكان للامير فيصل حزب الصداقة فقط تربطه به ، ولكن هذا الحزب كان ضعيفا مهضوم الحقوق . فالكل يخشى سيطرة ابن سليمان ، ويأمل نيل الخير منه ، وذلك لما له من النفوذ المطلق عند الملك ، ولما اعطاه من الصلاحيات . وهذه الصلاحية خولته السيطرة على كافة رؤساء القبائل الاحرار ، حتى على العائلة المالكة نفسها .

غادرت جدة الى مكة ، وواجهت الامير فيصل ، وأعلمته بما جرى بيني وبين ابن سليمان بالحرف الواحد ، وطلبت منه اعفائي من الخدمة . فقال لي : لا تفعل يا فوزي ، واذا احد يجب ان يطلب اعفاءه من الخدمة ، فهو انا ، وهذا مقدّر ، ويجب علينا احتمالاه وانها فرصة تخير الملك بما جرى بكتاب عنها . وسأكون حاضرا عنده لمعاضدتك . فكتبت للملك مبينا حالة الجيش قبل استلامي له ، وما صار اليه بعد استلامي له . أعلمته ان المشاريع التي وافق عليها سمو الامير ، وأمر جلالته بتنفيذها ، قد عرقلها ابن سليمان جميعها . ثم ذكرت له ما جرى بيني وبين ابن سليمان بالحرف ، وطلبت اخيرا اذا لم يكن في الامكان تنفيذ المشاريع التي صدرت ارادته به ان يعفيني من الخدمة . وحملت الكتاب بنفسي الى الملك ثم صاح اين ابن سليمان ؟ فحضر ابن سليمان ، والتفت اليه الملك قائلا بجذ : « ايش وراك مع فوزي » (سنّعه) ، اي : دبّر امره . وناولته كتابي فأخذه ابن سليمان بدوره قائلا : سمعا وطاعة . ثم تناول الملك مواضيع أخرى . وبعد برهة انصرفت ، واذا بفيصل ينتظرني بسيارته . ولما سألته عن سبب خروجه قال كي لا يشك الملك في اتفاقنا على هذا الامر ، وأعلمته بما جرى فقال : والله ما هني بشارة . فتوقعت مكيدة يحكيها ابن سليمان ، كما توقع ذلك الامير فيصل .



عدت الى جدة وتابعت اعمالني في الجيش . ولكن الحالة كانت تزداد سوءا . واخذ طيارو الانكليز يرفعون أصواتهم بالشكاوي ، وطلب مرتباتهم ، حتى انتهى الامر بمراجعة سفيرهم والطائرات والادوات الاحتياطية وبقية الاسلحة يأكلها الصدا وفي حالة سيئة . وعبثا حاولت إفهام هذه الحقيقة . ففي كل مرة كان ابن

سليمان في وجهي ، ولم يدعني مرة لاصلاح وإيقاظ هذه المهمات . ولما أيقنت انه يستحيل اي عمل مفيد وتقديم اية خدمة مع هذا الوضع، صممت ان افاتح فيصل في امر اعفائي من الخدمة ثانية . وكان قد زارني ابن سليمان مرة اخرى واظهر لي اخلاصه ومحبته وتقديره اليّ ، ونصحتني بأن أقدم استقالتني ، اذ بها الخير لي . فأعلمته بما كنت عزمت عليه قبل مجيئه ، وبينت له بأنني ذاهب لمفاتحة الامير بهذا الموضوع ، وانصرف . وكان الملك والامير في الطائف ، فذهبت اليها بحجة تفتيش وتفقد شؤون حاميتهما . فصارحت الامير بما عزمت عليه وأصر عليّ بأن لا افعل ، واقنعني بوجود التريث الى ان نجد طريقة نتخلص فيها من ابن سليمان .

ولم تكن في الحقيقة حاشية جلالتة من العنصر الصالح ، من السوريين ، فهم اولا غير مثقفين ، وليس لهم اي ماضٍ مجيد ، وقد اصابوا نعمة لم يكونوا ليحلموا بها ، واصبحوا بفضل جلالتة من الاغنياء واصحاب المقامات الرفيعة . فكان طبيعيا على امثال هؤلاء ان لا يدعوا مجالا لتقرب غيرهم من الصالحين المخلصين لخدمة العرب ، وخدمة جلالة الملك . فكانوا يختلفون دوما على هؤلاء شتى التهم ، ويحذرون جلالتة منهم . وهكذا حرم جلالة الملك من خدمة خيرة رجال العرب ، الذين ثبت اخلاصهم وتفانيهم في سبيل الامة العربية . وكانت هذه الحاشية من جهة اخرى ، تحذر الملك وتصور من المشكلات الجسيمة من مداخلاته في امور الاقطار العربية التي تحتاج الى مساندة الملك الادبية . ففي نظري اذا كان جلالتة معذورا بعض العذر في اتباعه سياسة حيادية ، فان المسؤولية التاريخية ترجع بالدرجة الاولى الى هذه البطانة السيئة . وكان من جراء هذه السياسة التي زينوها لجلالتة وموقفه من فلسطين في ثورتها عام ١٩٢٩ عندما استفحل امرها . ولقد صرحت الجرائد الانكليزية على لسان اكثر ساستها ان قضية فلسطين تابعة لموقف جلالة الملك ابن سعود منها ، اي كلمة واحدة من جلالتة تكفي لحلها ، اما لمصلحة العرب ، او لمصلحة الانكليز واليهود . فكانت كلمة جلالتة التي اذاعها حافظ وهبة سفيره في لندن وقتئذٍ : «ان جلالة الملك يثق بعديل بريطانيا» . وهكذا ذهبت الجهود والدماء في فلسطين هدرا . كما كان موقفه من قضية عمر المختار ، الذي احتجت كافة الامم العربية والاسلامية وأخفضا شأننا مستفظة عمل ايطاليا في اعدامها البطل المجاهد عمر المختار .

ولقد حرمت الاقطار العربية في محنتها من عطف ومساندة اعظم قوة عربية تخشاها الدول الاوروبية . ولم يكن موقفه من الاقطار العربية مثل هذا الموقف قبل اكتساب هذه الحاشية نفوذها لديه ومكانتها عنده . اذ انه لم يبخل بمعاونته لسورية في بدء حكمه بالمال والعطف والتدخل المؤثر . اذ انه لما احتج سفير فرنسة عما وصل اليه من اخبار معاونة جلالتة المالية قال له : «انهم مني (السوريون) واذا اردت معاونتهم فلست اكوني ببضعة آلاف من الدنانير ، بل أعينهم بعدة آلاف

من المقاتلين» . ولكنه مع الاسف بتأثير هؤلاء ، وبتأثير فيلبي تبدل موقفه وتطور لدرجة انه لم يسمح بإعادة ما كنا أودعنا عنده من الاسلحة ، التي اشتريناها بأموال الثورة السورية ، عندما طالبناه بها مرارا بواسطة خيرة من يعتمد عليهم من رجال العرب . وكانت هذه الاسلحة وحدها تكفي لاعادة ثورة او لإحياء ثورة وإنجاحها في سورية وفلسطين . ولكننا حرمانا هذا الركن العظيم مع الاسف بفضل وسوسة حاشيته الكريمة !!!.

ولما وصلت جدة ، وأخذت الاشاعات تسري في المدينة عن نوايا الملك نحوي من عزل وعقاب وغيرهما . فلم يكن مني الا ان ارسلت له كتابا وطلبت منه ان يرخص لي للحضور لاعلمه بما جرى . ولما لم يرد عليّ جوابا منه خلال أسبوع ، أبرقت له طالبا المقابلة لازالة سوء التفاهم . ولما لم يجبني لم يسعني الا ان أقدم استقالتي ، أبين فيها ان الخدمة في جيش يحكمه ابن سليمان حرام . فكان الجواب هذه المرة ما معناه : انني معزول من مقام أنا فيه منصوب وقضي الامر .

فعدت الى مكة ، وعزمت ان ارسل كتابا للملك ، أبين له فيه حقيقة ما جئت من اجله ، وحقيقة امره ، وحقيقة ما شاهدته في بلاده . وأردت بذلك ان أعلمه انني لا أغادر البلاد حتى أتأكد من استلامه كتابي ، كي لا اكون كالجبنة الذين ينافقون له بحضوره ويشتمونه بعد خروجهم من بلاده في غيابه . فأرسلت كتابا طافحا بالحقائق المرة التي اقول فيها : انني اتحمل مسؤولية كل كلمة فيه غير صحيحة ، كما على جلالته ان يتحمل مرارة كل حقيقة فيه . ثم أعدت السيف الذي أهده الملك اليّ سابقا . وكان اول هدية تعاد اليه . وبعد وصول كتابي اليه أتاني فؤاد حمزة مهيدا بقوله : ماذا يمكنك ان تفعل مع الملك وباستطاعته ان يفعل فيك ما يشاء . فأجبت انني استطيع ان أعلم العرب الذين علقوا عليه الامسال الجسيمة بحقيقة امره . والآن يعلمون انهم اذا أرادوا خلاصهم فلا يعتمدوا الا على انفسهم . فهذا كل ما استطيعه ، وللملك ان يفعل ما يشاء . ولما رأى فؤاد حمزة عنادي وإصراري اخذ بلاطفني ، ويكيل لي بوعود ذهبية فيما اذا اردت البقاء . فأعلمته عن عزيمتي على السفر . وعبثا حاول . وبعد هذا اتاني يوسف ياسين فأوسع عليّ الاماني والوعود ، فلم تفلح . واتاني الدكتور مدحت شيخ الارض كذلك ، فلم يفلح . وكان قد جاء الحجاز في هذه الايام الامير عادل ارسلان ، وبعد ان اجتمعنا ، نصحني بالبقاء ، فلم اترجع عن عزمي . وأخيرا طلبني الامير فيصل اليه ، وكان صديقي الحميم . قال لي لا تكن احق وابله . فهذه الحادثة هي خير فرصة تستثمرها ضد ابن سليمان . وأصر عليّ بالبقاء . فطلبت منه امهالي . وكان الملك بدوره قد ارسل اليّ كتابا يعلمني فيه انني محسوب عليه وان عليّ ، وعلى امثالي ان أتحملة ، وهو قد امر لي بما يرضيني . فعاد الامير عادل وقال : ان مغادرتك البلاد بعد هذا الكتاب غير لائقة ، كما ان الامير فيصل أصرّ عليّ بالبقاء ، واقنعني بذلك . ولما علم فؤاد حمزة برضائي على البقاء اتاني فرحا

واستكتبني كتابا اقول فيه : انني رضيت بالبقاء في الحجاز باختياري . وانتهى الامر ، وسافر الملك الى الرياض ولم احضر لوداعه . ولازمت بعدئذ الامر فيصل ، حيث اصبحت مستشارا خاصا له ، فلم افارقه في اقامة او سفر او اجتماع خصوصا كان او رسميا .



بدأت القلاقل في فلسطين عام ١٩٢٩ ، وأخذت تتطور حتى وصلت الى حد خطر شمل البلاد المقدسة بأسرها تقريبا . وقد كتب اليّ احد اخواني المخلصين عن الحالة المتفاقمة فيها ، فكتبت له انه ما دامت الهجرة الصهيونية مستمرة وما دامت لليهود المطامع الكبيرة ، وما دام الانكليز يفسحون المجال لهذه الهجرة والمطامع بأسنة حراهم ، وبالقوانين الصارمة التي يستحيل معها ان يحافظ العرب على ارضهم ، فيجب ان تتوقع تكرر امثال هذه الحوادث والتعدييات الصهيونية بصورة اوسع . بينما اليهود يقومون بالتشكيلات العسكرية والاقتصادية الواسعة ، ويسلحون انفسهم بما يجلبونه من انواع الاسلحة ، سرا وعلانية . وينظمون كتلا من شبابهم على نمط تنظيم الجيوش ، ويأتون بالضباط من اليهود المطرودين من المانيا ومن بولونيا . سكّون العرب واستكانتهم ، وعدم استعدادهم ، سوف يزيد من مطامع اليهود ، ويدفعهم الى استعجال تنفيذ خططهم . واني أخشى ان يصبح العرب ، وهم على غير استعداد مكثفين بثقتهم واستكانتهم على وعود الانكليز ، في فلسطين يوما من الايام وجها لوجه مع اليهود المنظمين والمسلحين ، فلا تستطيع مجابهتهم ، فتقع كارثة تودي بحياة العرب في فلسطين ، وتحل قضيتها بالامر الواقع . لذلك يجب ان لا يأسف العرب اذا لم تحصل من اعمالها الآن على نتيجة ، بشرط ان تبدأ استعدادها منذ الساعة ، بطريقة تضمن لها ايجاد قاعدة خارج فلسطين تشن منها الغارة حين الدفاع ، وتقلب القضية الفلسطينية الى قضية عربية عامة . ورسمت ما يجب لذلك من الخطط . وبالطبع لا يمكن الآن ذكر اي شيء عن ماهية هذه الخطط التي تصبح بيد الانكليز واليهود خير سلاح يقاتلوننا به ، ويسدون به علينا الطريق . فكان لكتابي هذا الوقع المؤثر في نفوس اخواني في فلسطين ، فطلبوا اليّ الحضور للتفاهم على الخطة مهما كلف الامر . ففاتحت الامر فيصل بما انويه ، وطلبت منه ان يساعدنا ببعض (التعديلات) يقوم بها . ثم استرخصته بالذهاب الى مصر ، ورجوت ان يبقي سفرتي مكتومة ، ففعل . ثم تظاهرت بأنني ذاهب للمدينة بقصد الزيارة ، فاتجهت شمالا نحوها ، ثم عطفت جنوبا الى جدة . وركبت الباخرة ووصلت العريش وكان احد اخواني في انتظاري ، حيث ركبت منها راسا الى احدى العزب دون ان اعلم احدا من اصدقائي في مصر عن قدومي . ولشد ما كانت دهشتي حينما بلغني سؤال الشرطة في مصر عني من القاهرة . اتصلت حالا بكل من يجب الاتصال به من رجال فلسطين وشرقي

الاردن . وببرهة قليلة تم التفاهم والاتفاق وبدأت الاستعدادات للعمل . ولكن الانكليز الذين كان موقفهم في العراق وفي الهند وفي مصر وفي فلسطين سيئا ، اخذوا يطلبون الوفود الى لندن للتفاهم . فبينما كانت الوفود تسافر الى لندن ، وتتفاوض فيها ، كانت رجالهم تعمل في البلدان لبث التفرقة والفساد ، وحمل الشعب على التقاتل مع بعضهم بعضا . وبهذا يكونون قد اكتسبوا الوقت اللازم ، وشلوا نفوذ ونشاط الزعماء عندما يعودون مخفقين .

مر الوفد الفلسطيني حين ذهابه الى لندن بمصر ، فاجتمعت مع من يجب منهم . وكانت الفكرة أن لا نأتي بأي عمل ما يشتم منه رائحة سوء نيتنا ، ما دام الانكليز انفسهم يظهرون حسن النية . فقلت : انه لا بأس من أن نستعد وننتظر نتيجة المفاوضات فان كانت شرا ليكون جوابنا حاضرا . ولكن عبثا حاولت حمل اخواني على تحقيق فكري . وكانت النتيجة كما توقعت . اذ بعد ان تمكن الانكليز من تفريق الكلمة في فلسطين ، رفضوا كل شيء ، وعاد الوفد دون ان يتمكن من عمل اي شيء . فقلت راجعا الى الحجاز والالم يحز في نفسي والاسف يملأها .



وفي ذات يوم استلمت كتابا من الامير شكيب ، يعلمني فيه ان الملك فيصل بلغه ما حدث بيني وبين الملك ابن سعود من سوء التفاهم ، وانه آسف جدا . ويقول انه اذا لم يكن في الامكان رتق الفتق فاترك الحجاز ، واحضر الى العراق على الرحب والسعة ، واعلمني تاريخ حركتك . ولكي لا يكون هذا الكتاب موضع مؤامرات جديدة ضدي اطلعت الامير فيصل عليه كما اطلعت فؤاد حمزة ، ثم كتبت كتابا الى الملك ابن سعود أعلمته فيه مضمون هذا الكتاب ، وطلبت منه ان يأذن لي بالذهاب اذا لم يكن لديه عمل أخدمه فيه . فأجاب عليه بأنه اطلع على كتابي ، وانني محسوب عليه ، وانه سوف يقوم بأعمال تسرني ، وان انتظر عودته من الرياض ، ويدعو لي وللمسلمين بالتوفيق ، فانتظرت .

كانت الازمة الاقتصادية وصلت الى أقصى حدودها في اوروبة ، واخذ يظهر تأثيرها في الحجاز على شكل مخيف . اذ لم يكن لدى الدولة اي مال احتياطي فحسب ، بل كانت غارقة بالديون الخارجية والداخلية . وكان مورد الحج ، هو المورد الوحيد للدولة ، يكاد ان ينضب معينه ، حتى ان ابن سليمان عجز عن تأمين ما يلزم من البنزين لسفارات الملك . ولأجل الخروج من هذه الضائقة الخطرة ، كان التحسب يدور بأن يقوم الامير فيصل برحلة الى اوروبا ، يدور فيها على عواصمها ، ويحاول الحصول على قرض بفائدة مناسبة . فصارحني سمو الامير بهذه الفكرة ، ورسمت له خطة للسفر تبدأ من مكة ، تمر على العواصم كافة وتنتهي في بغداد وبعدها في الرياض . وطلبت منه ان اكون معه في هذه الرحلة ،

واستكتبني كتابا اقول فيه : انني رضيت بالبقاء في الحجاز باختياري . وانتهى الامر ، وسافر الملك الى الرياض ولم احضر لوداعه . ولازمت بعدئذ الامير فيصل ، حيث اصبحت مستشارا خاصا له ، فلم افارقه في اقامة او سفر او اجتماع خصوصا كان او رسميا .



بدأت القلاقل في فلسطين عام ١٩٢٩ ، واخذت تتطور حتى وصلت الى حد خطر شمل البلاد المقدسة بأسرها تقريبا . وقد كتب اليّ احد اخواني المخلصين عن الحالة المتفاقمة فيها ، فكتبت له انه ما دامت الهجرة الصهيونية مستمرة وما دامت لليهود المطامع الكبيرة ، وما دام الانكليز يفسحون المجال لهذه الهجرة والمطامع بأسنة حراهم ، وبالقوانين الصارمة التي يستحيل معها ان يحافظ العرب على ارضهم ، فيجب ان تتوقع تكرر امثال هذه الحوادث والتعدييات الصهيونية بصورة اوسع . بينما اليهود يقومون بالتشكيلات العسكرية والاقتصادية الواسعة ، ويسلحون انفسهم بما يجلبونه من انواع الاسلحة ، سرا وعلانية . وينظمون كتلا من شبابهم على نمط تنظيم الجيوش ، ويأتون بالضباط من اليهود المطرودين من المانيا ومن بولونيا . سكّون العرب واستكانتهم ، وعدم استعدادهم ، سوف يزيد من مطامع اليهود ، ويدفعهم الى استعجال تنفيذ خططهم . واني أخشى ان يصبح العرب ، وهم على غير استعداد مكتفين بثقتهم واستكانتهم على وعود الانكليز ، في فلسطين يوما من الايام وجها لوجه مع اليهود المنظمين والمسلحين ، فلا تستطيع مجابهتهم ، فتقع كارثة تودي بحياة العرب في فلسطين ، وتحل قضيتها بالامر الواقع . لذلك يجب ان لا يأسف العرب اذا لم تحصل من اعمالها الآن على نتيجة ، بشرط ان تبدأ استعدادها منذ الساعة ، بطريقة تضمن لها ايجاد قاعدة خارج فلسطين تشن منها الفارة حين الدفاع ، وتقلب القضية الفلسطينية الى قضية عربية عامة . ورسمت ما يجب لذلك من الخطط . وبالطبع لا يمكن الآن ذكر اي شيء عن ماهية هذه الخطط التي تصبح بيد الانكليز واليهود خير سلاح يقاتلوننا به ، ويسدون به علينا الطريق . فكان لكتابي هذا الوقع المؤثر في نفوس اخواني في فلسطين ، فطلبوا اليّ الحضور للتفاهم على الخطة مهما كلف الامر . ففاتحت الامير فيصل بما اتو به ، وطلبت منه ان يساعدنا ببعض (التعديلات) يقوم بها . ثم استرخصته بالذهاب الى مصر ، ورجوت ان يبقي سفرتي مكتومة ، ففعل . ثم تظاهرت بأني ذاهب للمدينة بقصد الزيارة ، فاتجهت شمالا نحوها ، ثم عطفت جنوبا الى جدة . وركبت الباخرة ووصلت العريش وكان احد اخواني في انتظاري ، حيث ركبت منها راسا الى احدى العزب دون ان اعلم احدا من اصدقائي في مصر عن قدومي . ولشد ما كانت دهشتي حينما بلغني سؤال الشرطة في مصر عني من القاهرة . اتصلت حالا بكل من يجب الاتصال به من رجال فلسطين وشرقي

الاردن . وببرهة قليلة تم التفاهم والاتفاق وبدأت الاستعدادات للعمل . ولكن الانكليز الذين كان موقفهم في العراق وفي الهند وفي مصر وفي فلسطين سيئا ، اخذوا يطلبون الوفود الى لندن للتفاهم . فبينما كانت الوفود تسافر الى لندن ، وتتفاوض فيها ، كانت رجالهم تعمل في البلدان لبث التفرقة والفساد ، وحمل الشعب على التقاتل مع بعضهم بعضا . وبهذا يكونون قد اكتسبوا الوقت اللازم ، وشلوا نفوذ ونشاط الزعماء عندما يعودون مخفقين .

مر الوفد الفلسطيني حين ذهابه الى لندن بمصر ، فاجتمعت مع من يجب منهم . وكانت الفكرة أن لا نأتي بأي عمل ما يشتم منه رائحة سوء نيتنا ، ما دام الانكليز انفسهم يظهرون حسن النية . فقلت : انه لا بأس من أن نستعد وننتظر نتيجة المفاوضات فان كانت شرا ليكون جوابنا حاضرا . ولكن عبثا حاولت حمل اخواني على تحقيق فكري . وكانت النتيجة كما توقعت . اذ بعد ان تمكن الانكليز من تفريق الكلمة في فلسطين ، رفضوا كل شيء ، وعاد الوفد دون ان يتمكن من عمل اي شيء . ففقلت راجعا الى الحجاز والالم يحز في نفسي والاسف يملأها .



وفي ذات يوم استلمت كتابا من الامير شكيب ، يعلمني فيه ان الملك فيصل بلغه ما حدث بيني وبين الملك ابن سعود من سوء التفاهم ، وانه آسف جدا . ويقول انه اذا لم يكن في الامكان رتق الفتق فاترك الحجاز ، واحضر الى العراق على الرحب والسعة ، واعلمني تاريخ حركتك . ولكي لا يكون هذا الكتاب موضع مؤامرات جديدة ضدي اطلعت الامير فيصل عليه كما اطلعت فؤاد حمزة ، ثم كتبت كتابا الى الملك ابن سعود أعلمته فيه مضمون هذا الكتاب ، وطلبت منه ان يأذن لي بالذهاب اذا لم يكن لديه عمل أخدمه فيه . فأجاب عليه بأنه اطلع على كتابي ، وانني محسوب عليه ، وانه سوف يقوم بأعمال تسرني ، وان انتظر عودته من الرياض ، ويدعو لي وللمسلمين بالتوفيق ، فانتظرت .

كانت الازمة الاقتصادية وصلت الى اقصى حدودها في اوروبة ، واخذ يظهر تأثيرها في الحجاز على شكل مخيف . اذ لم يكن لدى الدولة اي مال احتياطي فحسب ، بل كانت غارقة بالديون الخارجية والداخلية . وكان مورد الحج ، هو المورد الوحيد للدولة ، يكاد ان ينضب معينه ، حتى ان ابن سليمان عجز عن تأمين ما يلزم من البنزين لسفارات الملك . ولأجل الخروج من هذه الضائقة الخطرة ، كان التحسب يدور بأن يقوم الامير فيصل برحلة الى اوروبا ، يدور فيها على عواصمها ، ويحاول الحصول على قرض بفائدة مناسبة . فصارحني سمو الامير بهذه الفكرة ، ورسمت له خطة للسفر تبدأ من مكة ، تمر على العواصم كافة وتنتهي في بغداد وبعدها في الرياض . وطلبت منه ان اكون معه في هذه الرحلة ،

فوعد خيرا . وفاتح جلالة الملك فلم يرفض ولكن ابن سليمان أفسد عليّ السفارة بحجة انني لا يمكن مرافقة الامير الى باريس ويدي لا تزال تقطر من دم الافرنسيين .

قام الامير برحلته يرافقه فؤاد حمزة ، الذي كان له اصبع في عدم رفقتي للامير ، وكان من عادة هذه الحاشية ان يأكل بعضها بعضا بابتداع الوشايات والنميمة والدسائس التي يتقنونها . حتى اذا ما ظهر في افقهم شبح اعلى منهم ، هادنوا بعضهم بعضا ، وتعاقدوا وكوتوا من انفسهم صنعا واحدا في وجهه ، كي لا ينفذ الى قلب الملك .

اتاني يوسف ياسين ومعه خالد الحكيم ، يبلغني ان جلالة الملك يعتبرني من الآن فصاعدا من حاشيته الخاصة ، وقد امر لي بالعطايا وخصص لي راتبا جديدا . ولما صارحته انني غير واثق من اي شيء ما دام ابن سليمان موجودا في الوجود ، وانني لا بد وان اكون هدفا لمكيدة جديدة يدبرها هذا لي . وبعد يومين أعلمني يوسف ياسين ان جلالة الملك امر ان يكون راتبي من احد ابواب الميزانية التي لا يصلها تبديل او تأخير ، وان الملك امر لي بسيارة فورد .

اخذت الشائعات السيئة تنتشر عن جلالة الملك في خارج المملكة وفي داخلها ، واخذ يظهر تأثيرها جليا ، خاصة في الهند . فأخذ يهتم بالصحف اهتماما كبيرا ، لاستخدامها في الدعاية . وكان قبلا ، كما أسلفت ، يسخر من هذا السلاح . واخذ شبح جلالة الملك فيصل المخيف يظهر في افق العالم العربي ، فاتجه العالم اليه بكلية ، وأصبح ابن سعود كأنه في عزلة وشعر الآن ان الامة العربية يمكنها ان تعيش بدونه ، وتأكد ان لا غنى له عن الرأي العربي العام . فأخذ يسعى السعي الحثيث ، ولكن الوقت كان قد فات .

كان موسم الحج قد انتهى ، وكان من المقرر ان يقضي جلالة الملك ردحا من الزمن كعادته في الطائف . وبعد ان بلغني يوسف ياسين عن لسان جلالته تخصيص راتب دون ان يكون لي اتصال بابن سليمان وزير المالية ، وانني اصبحت من حاشية جلالته الخاصة ، ابلغني عن رغبة جلالته بالسفر مع ركبته الى الطائف ، وقد خصص لي منزلا لائقا في الطائف .

ولقد تأخرت في مكة يوما لاستلام ادوات السيارة الجديدة ، وفي الطائف . ولقد اقام المرحوم عبد القادر الشبيبي حفلة عشاء لي دعا اليها الكثيرين مسن حاشية الملك ، وبعض الوجهاء . وهناك أخبرني احد خدم الشبيبي ، ان رجلا بالباب يريد مواجعتك، نزلت، فوجدت احد عبيد الملك، فسألته عما يريد فأخبرني بوجود مدير الامن العام السيد مهدي في انتظارني في الخليج، واحاطتني شرمة من الشرطة ، قادتني الى سيارة قريبة ، فيها السيد مهدي وشرطيين مسلحين .

ووجدت حقائبي وأغراضي في السيارة ، فتأكدت ان في الامر مكيدة جديدة . وأخبرني السيد مهدي ان جلالة الملك يريد مقابلتي . ولما وصلنا قصر شبرا حيث ينزل جلالته ، اذا بعبد الملك الخاص يقترب ، فيهمس في اذن السيد مهدي همسات لم اسمعها . فاذا بالسيارة تسرع صوب مكة . ولما ايقنت انني مساق لامر اكون فيه ضحية مكيدة ، لم اشأ ان افاتح السيد مهدي طيلة الطريق ، بل اخذت أحدثه احاديث طريفة ونكات مستظرفة ، حتى وصلنا مكة أمام دار الحكومة . فاذا بثلة من الشرطة المسلحة في انتظاري . ودخلت السراية والشرطة تحفّ بي من كل جانب . حتى اذا دخلنا احدى غرف السراي أخبرني السيد مهدي اني موقوف بأمر من جلالته ، وانه سيوجه لي اسئلته في الغد .

وفي اليوم الثاني ، قدم لي السيد مهدي خطيا هذا السؤال : «انه تحقق لدى الحكومة انكم قائمون بمؤامرة لقلب الحكومة ، فاعلمونا مع من كنتم تجتمعون وما هي مقرراتكم والاسباب التي حملتكم على ذلك ؟» .

فأجبتّه تحريريا وباختصار : «انني لم اجتمع الا بالامير فيصل ، واقترب حاشية جلالة الملك وسموه وكبار موظفي الدولة ، ولم اتعرف بعد الى غير هؤلاء الذين اقضي كل اوقاتي معهم . ومع ذلك اذا كانت الحكومة قد تحقق لديها قيامي بما تدعيه من المؤامرة، فلتظهر من الادلة دليلا واحدا ، وانا اكفيها مؤونة التحقيق، وارضى بأقصى عقاب يستطيعون تنفيذه» . وبقيت خمسة عشر يوما في محبسي هذا ، قام خلالها السيد مهدي بالتحقيق مع كل من اشتبهوا به . وقبضوا كذلك على آخرين ممن اساؤوا الظن بهم ، فسجنوهم وعذبوهم بغية اقرارهم بشيء يثبت ما اسند اليّ من التهم . ولما خابوا اتاني السيد مهدي وقال لي : أبشرك بأنه قد تحققت براءتك بما قمت به من التحقيقات الجدية ، وانه قد فتش جميع اوراقى وأغراضي فلم يعثر فيها على ما يشير اية شبهة . وكان من جملة اوراقى دفتسر مذكراتي ، وفيه صورة الكتاب الذي ارسلته الى الملك ، والذي يحوي على انتقادات مرة لتصرفات فيلبي خاصة وابن سليمان والحاشية . وفجأة تبدلت المعاملة معي، واخذت أشعر بأنني اصبحت حرا . وزادت صداقتي مع السيد مهدي ارتباطا . ثم ذهب الى جدة بمهمة كلفه بها ابن سليمان ، ولم تمض ساعتان على ذهابه حتى وجدت نفسي أمام ابن سليمان يدعوني للذهاب معه ، وشعرت انه استسنع الفرصة للانتقام . فتبعته الى قصر وزارة المالية ، حيث وجدت سيارة قد أعدت من السيارات الجديدة الفخمة . فركبت فيها ، وركب هو مع عبيد وحاشية خاصة في سيارات اخرى ، حتى وصلنا الى منى ، فنزلت من السيارة ، فاذا بسيارة لوري يحيط بها حرس ابن سليمان الخاص ، وطلب مني ابن سليمان ركوب السيارة وانصرف ، وعاد مقبلا ويده (زنجر الخاص بتحديد الخيل) بخلاء ، ودفعه الى احد عبيده طالبا تحديدي . اتجهنا صوب الرياض ، حيث وصلناها بعد اربعة ايام .

فك العبد الحديد من رجليّ قبل أن ندخل قصر ابن سعود ، حيث فيه ولي العهد الامير سعود . فدخلت عليه ، وكان مجلسه غاصا بشيوخ نجد . وبمجرد وقوع نظرهم علي تلموا وغطوا لحاهم . فخاطبني الامير بقوله : «أهكذا تفعل يا فوزي؟! نحن الذين قدرناك اكثر من قدرك واکرمناك اكثر مما تستحق واخيرا تخوننا؟!» فأجبتة بجدّ : «بماذا يا طويل العمر» ؟ قال : «بمخابرتك السبع دول علينا» . فقلت : «وكيف كانت هذه المخابرة اتحريريا ام شفاهيا ؟» قال : «بل بالكاتيب» . واردف قائلا : «يقول الشيوخ» (يعني الملك) (وهذا اللقب يطلقه كافة عربان نجد على الملك واولاده) والله لو سبق ان قتل العرب ضيفهم لقتلك على فعلتك هذه» . فأجبتة غاضبا : «يا طويل العمر ليأت الملك بكتاب مني الى السبع دول ، او من السبع دول اليّ ومشية الملك مردودة» . ولم أكد أنفوه بكلمة مردودة حتى سلت سيوف الشيوخ دفعة واحدة . ولكن الامير هدا من روعهم ، والتفت اليّ اخيرا . «اذن ماذا جرى حتى حل بك ما حل ؟» فقلت له : «يا طويل العمر ، أما تعرف دسائس ابن سليمان ومكائده ؟» فأطرق هنيهة ثم لعن ابن سليمان ، والايام التي سلطت ابن سليمان . واخذ يهون عليّ ، وأمر لي بدار أنزلها وخدم وعبيد ، وأجرى لي الارزاق ومرتبيا ، وأعطاني حرية في التنقل والتنزه في الرياض وخارجها . ولقد أنساني ما لاقيته طيب قلب هؤلاء الامراء الذين لا يزالون على الفطرة ولم يندس طيب محتدم بسفالات الحضارة وبعض رجالها الفاسدين . ولكنني لم آمن وانا في الرياض شر ابن سليمان الذي هو في نظري الملك بدون عرش ، وفيلبي مستشاره المطيع .

ولما كنت أجهل نوايا الملك نحوي وارتاب من دسائس ابن سليمان للملك ، اخذت أدبر امر الفرار ، فاتفقت بعد اختبار مع رجال من قبائل عتبة التابعين للاشراف سابقا ، وقد سئمو الحياة في نجد ، على تدبير خمسة من الهجن الاصيل والاسلحة ، وجمعناها في امكنة حريزة . ثم انتظرت قدوم الملك حتى اذا شعرت منه نية لا تناسبني فررت .

وكانت قد قامت ضجة من اجلي عظيمة في دمشق والقدس والقاهرة ، وارسلت الى الملك عدة رسائل وعرائض اخبرني القرقي عنها بقوله : «انني اشتري نصفها بضعف ما حل فيك لما أظهره فيها قومي من الشعور الحي والعطف النبيل حتى انساني اساءة ابن سليمان . ولقد اغتبطت وافخرت كثيرا لاهتمام اخواني بشائي الذي خلق في نفسي آمالا طيبة لنوايا الملك» .

وصل الملك الى الرياض كمادته ، واوفد ابن معمر رئيس ديوانه اليّ ، وأعلمني بأن الملك قد أفرج عني وهو يود مواجعتك . فذهبت اليه ، ومما قاله لي: «اننا نحن اهلك وعشيرتك ، فان احببت جوارنا فأنت عند اهلك ، وان اردت الخروج من البلاد فالراي لك» . فطلبت منه السماح بمفادرة البلاد . قال : «الي

اين» ؟ قلت : «ل عند فيصل في العراق» . ففقت بإصبعيه وقال : أبوي ، ان فيصل يروج اليوم في وديان فلسطين (يعني يتنقل كالتائه) وكان الملك فيصل وقتئذ في فلسطين ، فمأطنتني . وبعد محاوراة أخبرني انه مرسلني الى ابنه في الحجاز ، وأوسع عليّ العطايا والهدايا ، وخصص لي سيارته وسائقه الخاص لا يصالي الى الطائف . ففرقت هذه الهدايا كلها على من كان عندي من الخدم وعلى اصحابي .

تركت الرياض الى الطائف ، حيث وصلتها بعد تسع عشرة ساعة . فرحب الامير فيصل بي ، وعدت معه الى سابق صداقتي ومودتي . وصرح يوما بحضور السيد مهدي وعبد الله الفيصل رئيس ديوان الشورى ، ان كل ما اصاب فوزي هو بسببي ، وانه يصعب على الرجل الشريف الآتي من خارج هذه البلاد ان يعيش فيها ، وكانت هذه الكلمات لي خير عزاء .

انه بالرغم من كل ما شاهدناه من الادارة الابتدائية في البلاد ، ومن العقلية الساذجة الفطرية عند الملك والامراء والرؤساء ، ومن بعض التصرفات التي لا تتناسب مع النهضة العصرية ومطامع دول الاستعمار في الجزيرة ، فاني ارى ان في الشعب العربي في هذه الدولة من الكفاءة والمقدرة في ادارة الشؤون الحربية والمدنية ما يجعلنا نطمئن على حياتها . وان ما في نفس الملك من الشجاعة والبسالة والعروبة يجعلنا نعتقد ان ما شاهدناه من الشذوذ ان هو الا عارض ، وان الاخطار المحدقة بتراحم الدول الاوربية على بسط نفوذها في الجزيرة ، وما يجري من الحوادث في اوروبا وعلى شواطئ البحر الاحمر القريبة ، لا تلبث ان تلجئ الملك الى التفكير العميق، والقيام بما تستلزم الحالة من اتخاذ التدابير الحازمة والوسائل الضرورية لوقاية حدود البلاد ، ولا بد ان يتلاشى يوما اثر حاشية الملك وفيلبي امام هذه العوامل الخطرة .

كنت عازما هذه المرة العزم الاكيد على ترك البلاد ، وقد ألح سمو الامير فيصل ليصرفني عن عزمي ، ولكنني لم اطأعه خشية وقوعي في مكيدة ثالثة . كما ان فؤاد حمزة سعى كثيرا لاقتناعي بالبقاء في البلاد . وأخيرا جاءني سمو الامير ببرقية من جلالة الملك يقول فيها : «اتفقوا مع فوزي على ابقائه في الحجاز بأي شرط كان» . وكان فيصل فرحا بهذه البرقية . ولكنني سألته : هل تستطيع حمايتي من اهانة او اذى يلحق بي اذا وقعت في مكيدة جديدة الى ان يظهر الحق . قال : والله لو تقع على رأس عبد الله - ويعني ولده - لا استطيع ذلك . فقلت له : اذن يا سمو الامير الاشرف لي ولك ان اترك البلاد ، وان لا أؤخذ مرة ثالثة من بين يديك ، وعينك تنظران فأسجن وأهان وانت لا تستطيع عمل اي شيء . فتأثر كثيرا ، وقال : والله الحق معك ، توكل على الله ، وعسى ان لا يكون هذا آخر العهد بيننا . فتركت الطائف ، وتوجهت الى جدة ، وانا محفوف بكرم الامير

وعطفه . وركبت الباخرة متجها الى مصر . وكانت جدة تبعد عن أنظاري وتبتعد معها الحجاز ، وأخذت تعاودني في هذه اللحظات أحلامي وآمالي التي كنت أتلدذ بها وأنا قادم صوب جدة . واستعرضت كل الحوادث التي توالى عليّ والتي شاهدها خلال مقامي في الحجاز السنتين والنصف . ثم استعرضت من جهة أخرى موقف الامة العربية بأسرها ، وما يحيط بها من اخطار خارجية ، وما يثقل كاهلها من مشاكل داخلية ، فشعرت عندئذٍ ان ما كنت أحمله من الآمال والاحلام في رجال هذه البقعة من الجزيرة ، والثقة بهم لم تنزع بعد ، وانه لا بد وأن ينتهي شذوذ الملك وتصرفات المسؤولين من ذوي السلطة الواسعة في مملكته ، عندما يجابه الملك الاخطار فيقدم على غزو اليمن التي يسوقه اليها فيلبي ويزينها له ، وعندما تصطدم سياسة الامبراطورية البريطانية ومصالحها مع الدولة الايطالية الفاشيستيّة في البحر الاحمر وفي الحبشة . فيشمر عندئذٍ عن ساعد جده ويلتفت الى شؤون مملكته ، ويطهر بلاطه من نفوذ حاشيته السيئة ، ويتجلى له عندئذٍ قيمة الراي العام العربي ، وضرورة ارتباطه بالاقطار العربية ، ويتأكد كذلك أن لا حياة له ولا لبقية الاقطار بدون وحدة وثيقة تتأسس على دعائم الدم العربي والعبقريّة والكفاءة العربية . وغابت جدة عن أنظاري وأنا مستغرق في هذه الاحلام اللذيذة .



وصلت القاهرة ... واجتمعت باخواني الموجودين آنئذٍ فيها : اسعد داغر، الشيخ رشيد رضا ، والدكتور شهبندر . ومن الصدف ان كان المرحوم ياسين الهاشمي فيها . وكان الكل متلهفا لسماع الاخبار عن حقيقة الدولة السعودية . فكنت أقص عليهم ما اراه مناسبا . كما ان كثيرا من ارباب الصحف العربية ارهقني بأسئلته عن الحالة فيها ، فكنت أدلي لهم بالمعلومات المقتضبة عن النواحي الطبية في تلك البلاد . واجتمعت بعد حين بالمرحوم الهاشمي اجتماعا خاصا في فندق الكونتنتال ، وكان قائما بسباحة في الاقطار العربية ، يمهّد فيها السبل لربط هذه الاقطار بعضها مع بعض بشتى الوسائل . وفي اثناء طوافه هذا تألق نجمه في سماء البلاد العربية ، حتى أصبح ينظر اليه كرجل الساعة الذي ستم على يده وحدة العرب . وكان يؤكد انه سيعمل لتحقيق هذه الامنية .

ودار الحديث بيننا في مختلف المواضيع ، ثم انتقلنا الى موضوع سورية الذي كان في نظري الموضوع الاساسي للوحدة العربية . وقلت ان الانقلاب التركي الاخير وما سبقه من الانقلابات انما تم على ايدي الضباط والعسكريين الذين تخرجنا معهم من مدارس واحدة . ولم تكن كفاءتهم ولا نباهتهم اعظم من كفاءة ونباهة اخوانهم العرب . ولكن مع الاسف لم يقم ضباطنا العرب بأي عمل يسجل لهم كما سجل اخوانهم ضباط الترك . وعزوت ذلك الى شعور الضابط التركي

بالسيادة التي يتمتع بها ، والتي يمتاز بها على قرينه الضابط العربي . فأمن الهاشمي على قولي ، وزاد : وانه ليجب العناية والالتفات الى هذه الناحية الحيوية . ولما سألتها بما يجب عمله من اجل سورية وانقاذها من الانتداب ، قال : لدينا وسائل شتى نضبط بها على الافرنسيين ، أهمها البترول . فاذا لم تثمر ، عمدنا الى تشكيلات على الحدود السورية العراقية ، نبعث منها العصابات لإفلاق الافرنسيين . فقلت : ان هذا صعب نظرا لما يفصل الحدود عن المعمورة السورية من المسافات الشاسعة من الصحاري ، حيث يتعذر العمل فيها . ولكن اذا قصدتم الإقدام على امر ، فان هناك طرقا أخرى . فقاطعني قائلا : ماذا عساها تصنع فرنسة ؟ فلتأت بمليون جندي وتحتل العراق . فأيقنت ان ليس في الامر جد . وانتقلنا الى مواضيع أخرى .

وقصدت بغداد ، فوصلتها بعد مخابرات عدة مع الملك فيصل ، فدخلتها اوآخر ١٩٣٢ . وطلبني المرحوم الملك فيصل لمواجهته في بلاطه ، وبادرني بقوله : حيا الله فوزي ، والله انك كنت مجهولا ، وعرفت الناس بأعمالك . وان ما قمت به فخر لنا كلها . فأتت المثال الحي للتضحية يقتدي به ضباطنا على الاخص . ثم دار الحديث حول المملكة السعودية . وأحيانا كان يسألني عن الثورة السورية . وكنت أحدثه بالتفصيل ، فكان يسرّ ويقول : عساك تكون دوت أعمالك هذه ، فهي حقا مذكرات قيّمة . ثم تواتت اجتماعاتي بجلالته ، وكان في كل مرة يستزيدني من مباحث الثورة السورية ، وأخبار المملكة السعودية وكلما زدته تفصيلا ازداد بي الحاحا بوجوب تدوين مذكراتي على ان يقوم هو بكل ما تحتاجه من النفقات . وكنت أعدده وأماطله لان تدوينها في نظري لم يحن حينه بعد . ولقد رغب الملك فيصل في تعييني في الجيش . وكان امر تعييني تحيط به كثير من المشاكل السياسية والقانونية . وقد ارتأى الهاشمي تعييني في شركة النفط العراقية الانكليزية ، وفي الدوائر الملكية . فكان من المتعذر عليّ قبول أمثال هذه المقترحات التي لا تتلاءم مع روحي ومسلكي ، كما انها كانت في الحقيقة غير ممكنة . وأخيرا عينت استاذا للفروسية في المدرسة الحربية العسكرية الملكية برتبة رئيس . وكان لطفه باشا الهاشمي رئيس أركان الجيش وقتئذٍ ، وناجسي الاصيل رئيس الشعبة السياسية في وزارة الهاشمي ، الفضل في ازالة العقبات من سبيلي للوصول الى هذا التعيين .

وكنت أزور الملك علي ، الذي يحنّ كثيرا الى سماع أخبار المملكة السعودية بصورة خاصة ، وكان قد اتخذ له من بغداد مقرا يأوي اليه . وكان كثيرا يتوق الى تبوء عرش سورية . وقد جعل الافرنسيون من رغباته وسيلة لحل قضية سورية ، وإرضاء السوريين بعود عن لسانه . وكان ضعيف النية والارادة ، وقد استغل كثير من السوريين هذا الضعف الذي فيه . فبذل في سبيل الدعاية الى هذا العرش كثيرا من الاموال التي ذهبت سدى وسببت له بعض التقلبات .

وكان العراق مستقرا في سياسته ، ويتقدم من نواحيه كافة تقدما محسوسا . فأصبح بوجود فيصل على عرشه رمزا للعروبة ، وملجأ لمضطهدي العرب السياسيين . وكانت ميول عديدة تتجاذب سياسة العراق منها العربية العامة والاقليمية والشعبوية كذلك . ولكن دفة السياسة ، وهي في يد الملك فيصل ، تتجه دوما باتجاهها العربي العام .

وكثيرا ما حدثت المشاكل الداخلية والاخرى الخارجية مع بريطانيا على جانب من الخطورة . ولكن فيصل كان يتغلب عليها دوما بحنكته ودهائه اللذين لا مثيل لهما بدون اراقة نقطة من الدماء . وفي عام ١٩٣٤ حدثت حوادث الاشوريين المقلقة ، وكانت الاشاعات الكثيرة تدور عن قوتهم العظيمة ، وعن تغذية الانكليز لهم بالسلاح والمال . وعن معاملة الافرنسيين الحسنة لهم عند اختيارهم الحدود السورية التي اتخذوا منها قاعدة لاعمالهم . وشاع كذلك إمداد الافرنسيين هؤلاء بالمال والعتاد ووسائل النقل ايضا ، مما جعل الحكومة العراقية وعلى رأسها فيصل ، تهتم الاهتمام الشديد وتتفرغ لدرء هذا الخطر . وقد تأكد للناس سوء نية الانكليز والافرنسيين واتفاقهما على إثارة الاشوريين ، ليتمكنوا من قطع جزء كبير من شمال العراق وشرقها ، فيجعلوه امارة مستقلة لهؤلاء ، تحت اشراف بريطانيا ، وتكون منابع النفط العراقية ضمن هذه المنطقة المستقلة . اخذ الجيش العراقي يحتشد في شمالي غربي الموصل ، ويترصدها معابر دجلة (وفيش خابور)، واصبح الجيش على أتم الاستعداد . وعم الحماس القبائل العربية ، خاصة شمر والقبائل الكردية ايضا . وذهبت المحاولات لاعادة السلم سدى ، لما كان عليه الاشوريون من الفرور بأنفسهم ، والاعتداد بفرنسة وبريطانيا معا . ولقد تطوعت للاشتراك في قمع هذه الثورة ، ولكن رئيس اركان الجيش شكرني قائلا : ليس ثمة من حاجة لاشتراك الان .

وتقدمت جموع الاشوريين من المعابر ، وتظاهروا بالاستسلام الى الجند المراطيين هناك . ولما وثق الجند من استسلامهم ، وتقربوا اليهم ، بادروهم باطلاق النيران معلنين خيانتهم . ثم هاجم الاشوريون المعسكر العراقي فصدتهم الجنود بقسوة . وما هي الا سويغات حتى قضي الامر ، وتشتت من بقي سالما منهم ، فطاردتهم الجيش والقبائل ، ولم تبق منهم باقية . وبهذا انحلت هذه المشكلة بنصر بهر عيون الانكليز والافرنسيين .

طلبت مواجهة فيصل على اثر هذه الحوادث ، وذكررت له انني تطوعت للاشتراك مع اخواني ، ولم ير رئيس اركان الجيش حاجة لاشتراكسي ، وان الفرصة الآن سانحة للعمل في سورية لقاء ما قامت به فرنسة من الاعمال والنية السيئة تجاه العراق ؛ ووعدت ان اريه دخان دمشق من قصره لو سمح لي بثورة اقوم بها بعشر ما قدمته فرنسة للاشوريين من المساعدات . فسرّ جلالته جدا من

تصريحي هذا ثم قال : ان بيدنا الآن وثائق مهمة جدا ، تثبت تدخل فرنسا في حوادث الاشوريين . ونحن سنرغم على حل القضية السورية في جنيف حلا برضي الجميع . فقلت له : «ان المنتظر من جلالتك هو هذا ، وأنت محط آمال العرب ، ولكن للسياسة اساليب شاذة ، ربما لا يتاح معها حل القضية السورية» . فقاطعتني قائلا : «عندئذ اقول لك استعد . ونحل القضية عن طريق الثورة التي تتطلبها» . واردف قائلا : «هل فكرت في الطريقة التي يجب اتباعها في ثورة جديدة» ؟ قلت له : «نعم» . وكنت في الحقيقة قد درست موقف سوريا درسا عميقا ، واتصلت خلال وجودي في العراق بكثير من الرجال الذين يعتمد عليهم . وكنت على استعداد تام لرسم افضل خطة تلائم الحالة الراهنة في سوريا . وتقوم على تجارب واختبارات الثورة السورية الماضية . وطلبت منه ورقة اشرح له عليها تفصيل الخطة التي اردت اتباعها ، على خريطة رسمتها على هذه الورقة . وكان جلالته يصفي الى ان انتهيت . فقال : «انك اصبحت خبيرا يا فوزي . وسأحتفظ بهذه الورقة في دفتر جيبي عند الحاجة» . وسألته : «هل اشرع بالاتصال مع الشخصيات التي ذكرتها لك ، وابدأ بالاستعداد ؟» قال : «تربص حتى تأتيك مني اشارة» . وانصرفت من لدنه مترقبا اخباره من جنيف ، حتى فاجأتنا الاقدار بانتهاء حياته الدنيا التي تعب بها كثيرا من اجل العرب . ولقد ترك موته فراغا في العالم العربي كان محسوسا بالدرجة الاولى في العراق ؛ اذ اخذت الفتن تنشب ، والاختلافات تتوالى ، ولم يقدر احد على قمعها حتى خيرة رجال العراق الذين يعتقد العرب فيهم الكفاءة كلها . ولقد حدثت في زمن حكومة الهاشمي وحده من الفتن والفتاقل ما جعله يعلن الاحكام العرفية سبع مرات ، خلال السنة والنصف .



اخذت الحالة السياسية في سورية تزداد حراجه وتفاقما ، وكثرت المخابرات والمداولات بين فريق من الاخوان وبينني ، وحضر الكثير منهم الى العراق آملين بالحصول على بعض المساعدات المادية والمعنوية من حكومة العراق ، يستعينون بها في مقاومة السياسة الافرنية ، وللدعاية من اجل سورية والعراق . وقد اجتمعت مع احسان الجابري واسعد داغر وسعد الله الجابري . كما اني اجتمعت بعد حين بالاخوان جميل مردم وفخري البارودي في طريقهما الى الحجاز . وكان يقتنع كل واحد بعد محادثتي معه ، بأن لا طريق لنا لحل القضية السورية الا طريق الثورة ، ويعد بأن يعمل ما يستطيع لتحقيق هذه الفكرة . وكنا نستمزج احيانا اخواننا من رجالات الحكم في العراق . فكان من يكون في الحكم منهم لا يجذ الثورة ، ومن كان خارجه يجذبها ، ويهون علينا امرها بامكان مساعدة العراق سرا . ولكن لم ينجز شيء من هذه المواعيد لا من قبل اخواننا السوريين ولا العراقيين .

واشتدت الازمة السياسية اخيرا في سورية ، وتطورت الى اضراب شديد

لا بد وأن ينتهي بأحد الأمرين : اما بالثورة واما بخضوع الافرنسيين لمطالب السوريين . لذلك كان لا بد من المباشرة في الاستعداد والمجازفة مهما كلف الامر . وكان قد حضر اسعد داغر من القاهرة ، وكان يومئذ الهاشمي في الحكم . ولما فاتح داغر الهاشمي عن حالة سورية ، ووجوب مساعدتها لم يستطع الهاشمي ضبط عواطفه ، فبكى ، ووعده . وكان يلوح لي ان وعد الهاشمي هذه المرة صادق . وكان ما وعد من المعاونة غير المالية يكفي تماما لاضرام نيران الثورة التي نريدها . ولكن الايام مرت ولم يتحقق شيء منها مع الاسف . وربما كانت السياسة في هذه المرة كما كانت سابقا هي التي منعت من البر بوعده .

واخذت الحوادث في سورية تزداد خطورة ، ويزداد معها عدد الضحايا المتظاهرين . واخذت السجون تمتلئ كما انه اخذت تنضب ينابيع البلاد الاقتصادية ، التي لم يبق الافرنسيون عليها . فكان لا بد من العمل ، وكان لا بد لي من ان اعمل . فاستسحت فرصة العيد الاضحى ، وذهبت الى الموصل ، ومنها اتجهت غربا واتصلت بزعماء قبائل شمر والعقيدات وغيرها من القبائل في اراضي سورية . وكوتت حلفا من هؤلاء البدو ، يضمن لي على الاقل اربعمائة مقاتل . وقفلت راجعا الى بغداد ، واتصلت باخواني في عمان ودمشق ، لتكوين قوة اخرى من مجاهدي الدروز والشوام ، بما يعادل هذا العدد . واخذنا نسعى لتجهيزهم وتسليحهم . حتى اذا ما اكملنا استعدادنا تركت الجيش العراقي وانقضت بجموع شرقي الاردن على الصفاء ، وبعد ما اجلب اليها القوة الفرنسية تنطلق القوى الشمالية من الاتحاد البدوي ، الى اتجاه دير الزور ، وجبل الزاوية ، فتشطر القوة الفرنسية شطرين وتعم الثورة مرة اخرى البلاد السورية اجمع ، التي هي اليوم على استعداد اقوى واشد منه في الثورة الاولى . ولكن الافرنسيين الذين شعروا بحراجة موقفهم في سورية وفي اوروبة ، انهوا الاضراب بطلب وفد يؤم باريس للمفاوضة على اساس تحقيق المطالب السورية .



كانت قضية فلسطين تشغل فكري دوما ، وتقلق بالي . فاقترحت لأول مرة عام ١٩٢٩ ، وأنا في الحجاز ، اعداد منهاج للدفاع المسلح عنها ، يكفل سلامة العرب فيها ويجعل لها في خارجها دعائم عربية قوية . طلبت لتنفيذ هذه الخطة ، ولكن حال دون تحقيقها طلب الانكليز لجنة فلسطينية للمفاوضة في لندن .

وكان قلقي يزداد بازدياد حوادث فلسطين ، وطفيان الصهيونية والانكليز فيها . فذهبت وأنا ضابط في الجيش العراقي مأذونا الى فلسطين عام ١٩٣٤ ، واقترحت خطة واسعة النطاق نسعى لاعدادها ، على ان تنفذ عند الحاجة . وتم الاتفاق على كل شيء ، ولكن مع الاسف لم يقدم احد على اعداد ما اتفقنا عليه .

فسافرت الى القدس مرة ثانية في سنة ١٩٣٥ . وكانت يومئذٍ حالة سورية تدعو الى القلق الشديد من اعمال الافرنسيين فيها ، التي وصلت الى حد لا تطاق معه الحياة . فوضعت خطتي لثورتين في سوريا وفي فلسطين على ان تنفذ الواحدة تلو الاخرى ، وعلى أن نتجنب اي حادث يجعلنا نجابه الدولتين في آن واحد . وكان المقرر ان نبدأ بسورية اولاً ، لاسباب كثيرة . حتى اذا انتهينا من مشروع سورية وبقيت حياً ، اتخذنا منها قاعدة لتنفيذ المشروع الثاني في فلسطين على شكل اقوى وأعم . وكان لهذا المشروع ادوار ، أشرع بالدور التمهيدي منه وأنا في بغداد فعدت اليها ، وشرعت في اعداد الدور التمهيدي ، وتقدمت فيه تقديماً محسوساً وبإنجاح تام دون ان نصادف ما يعكر علينا سير الخطة . وبينما انا في اعمال التمهيديّة هذه اقتضى سفري الى القدس مرة اخرى للتفاهم على بعض تفصيلات ضرورية . فذهبت اليها بنيسان ١٩٣٦ . فتم في هذه التفاهم على كل شيء ، وبصورة جدية . ونحن لا نزال على قرارنا الاول بترجيح سورية اولاً ، حيث ان الاضراب في سورية قد بدأ ، وكان خير وسيلة نتدفع بها للثورة . ولم يكن احد مطلعاً على هذه المقررات سوى خمسة اشخاص من سوري وفلسطيني .

اخذت أسارع في اعداد مشروع سورية مع تطور الحالة في دمشق . ولكن لم استقر في بغداد اياماً ، حتى فاجأني حوادث فلسطين في الشهر نفسه ، وأخذت تتطور بسرعة . فحاولت تحديد حوادث فلسطين ، لكي نتمكن من تنفيذ مشروع سورية . ولكن الحوادث التي استفحلت ، جرفت مجهودنا . ولم يعد بإمكان اي رجل الحيلولة دون حوادث فلسطين او تجنبها . ومن حسن الحظ ان اضراب سورية الذي استفحل امره بعد ٥٤ يوماً قد الجأ الافرنسيين الى طلب وفد للمفاوضة في باريس ، على اساس عقد معاهدة تضمن للسوريين امانهم ، فتوقف الاضراب . وكان الفرنسيون قد شعروا من جهة بترتيبات الثورة ، التي اخذت تعم شمالي سورية . ولم يكن موقفهم في اوروبا من جهة اخرى يسمح لهم بإرسال الجيوش من جديد الى سورية لقمع ثورة تقوم فيها مجهولة العواقب . فقررنا عندئذٍ الالتفات الى تنفيذ خطة رقم ٢ وبدأت بالاستعدادات أوائل شهر حزيران . وفي الواحد من شهر آب ١٩٣٦ كانت قوافل المجاهدين من العراق وجبل الدروز وجبل لبنان والشام وحمص وحماة في طريقها الى نقطة التجمع العام الاخيرة ، في ميدان الجهاد في فلسطين . وفي الخامس والعشرين من آب، اطلقت اول عيارات نارية من هذه المفارز على الطائرات الانكليزية في جبل جريش واسقطت منها طائرتين .

الْمَلَأَحَقَّ

الهوية الخاصة بفوزي القاوقجي بصفته أحد افراد الجيش العربي ١٩٢٠

— ١٢ —

الصف	ضابط
الرتبة	رئيس
الاسم وشهرته	السيد فوزي
اسم امه	عبدالمجيد
ولادته	بغداد
تاريخ ولادته	١٢/١٠/١٩٠٠
مكان ولادته	بغداد
مذهبه	اسلام
جنسيته	عربية

من اي مدرسة خرج مدرسة المحمدية في بغداد
متاهل ام لا
مقدار نفوس عائلته
رقه نجله التركي
رقه سجاده العربي ٥٦ - ٦

— ١٣ —

ورقة الهوية الخاصة بمنشئ الجيش العربي



فوزي القاوقجي



فوزي القاوقجي في بغداد وهو يحيي جثمان الملك فيصل الاول باسم الجيش العراقي ١٩٣٣

١٤ - ٤ - ١٩٢٧

الحالة الروحية في جبل الزاوية

الصفحة

١٢١

انه جبل الزاوية الذي قاتل لوجهه السلطه المنتهية - سنة ١٩٠٤ و ١٩٠٥ عندما كان موجودا في بلاد الشام
في سوريا و طليان (١٠٠٠٠) جندي باعتراف بريانه رئيس الوزارة الفرنسية وقتئذ والذي اظهر
فيه البسالة والبطولة مادسه الجيسه الفرنسي الذي كثيرا ما اتخذت صدوره الشهيرة اسم فئة
صفية منه مجاهد في هذا الجبل انه قابلية سكانه لهذا الجبل في القتال تستمد من طبيعة الجبل المنيع
والوعاء المالك ومنه الشجاعة الفطرية الموجودة عند الامم وقومهم الزاوية في الشام
انه جبل الزاوية بوعورة اراضيه لا يشبه لبقية الجبال اذ يخفى على اقسام كثيرة من الجبال وبقاها
عنه بغيرها يستحيل المرور منها الاماميا وتفضل جباله وديانه عظيمه ملائمة مياه غيرة قارة السور
لا صيفا ولا شتاء الا انه بفضله جبالها تجعلها معابر لا يعرفها الا اهليها . وهذا الجبل تالوت الجبل
جبل كميل العسكاري والعلو وجبل سريكا وغيرها من الجبال التي يصعب على اي جيش قادم ان يفتحها بمركات
عسكريه واسعة النظامه حيث لا يستفيد الجيسه المذمومة من كافة مصدات الحديده . والذين فيهم ارباب
الرشاشات نظرا لصدية السور .

واما اهالي هذا الجبل فكلهم - نسيه ما عدا جبل العلم الذي تقطنه عشيرة من الدروز المذنبين كل الانتماء
مع اهالي الجبل والتي ترى قضاها مرغمة على ما اصابها من اهلها عبيد به سقايتهم ولا هم لهذا الجبل مزايا
فصوصيه قل ما توجد عند غيرهم ومن الاطاعة العبياء لزعمائهم الذين يفتقدون اليه كبر على تحركه بالعلم
الذي في هذه الدنيا هو مقاتلة الكفار لذلك كانت زعماء هذا الجبل انشاء صربهم مع الفرنسيين بقرود
رجالهم للاخطار بانقياد لم يرى منهم في الجيوش النظامية وفي قتالهم مع الفرنسيين في الشام
كاملتهم ولم تعلم عن الامم السورية الا ايقاع قتيلا اظهر من المقدرة الحربية في هذا الجبل
انه يكونوا معه العناصر السورية الصالحه للقتال والتي ان تركت في عدة وقايتهم لانتهاج الجبل

خضعهم وانما اذكر الحركات العسكرية التي توخيت ضد اقصه والمعارك التي دارت في جبل الزاوية
تحتاني انه اعترف بانني لم استشهد مثلها الا في الحرب العامه تعرضه الجيحه الفرنسي على [٤٠٠] مقاتل بحملته
فهم الجبال الوسطى من ثلاثة جهات بحمله مؤلفه من [١٥] الف من خيرة القطيعات النظاميه واستمر
بهذه المحركه ١٨ مرفع وكانت الحملات بقيادة الجنرال غوبو والكولونيه فوانه والكولونيه دوي
وبعد قتال دام اربعة ايام انزعت الحملات وغنت المجاهديه ٤٠٠ رأساً من الخيل وكانت تفتيات
الافرنسيه تنزيه عن [٤٠٠] وكذلك تعرضه الجيحه الفرنسي على جبال ريحاً واصه بقدره تزيه
على ٤ الف ولم يتكلمه من الاستيلاء على خطوط المجاهديه الدفاعيه الا بعد عماله دام الزمره اسبوعيه
وكانت مناسه العدو لا تقدر وكانت هذه الورك مظهرأ من مظاهره الخناديه في الحرب العاليه
انه جبل الزاويه الذي وصفته حالته في هذه المقدمه المميزه كانه يألم كل العالم لعدم اشتراكه في دورته الخافه
وعدم اشتراكه يرجع جميعه لوجود زعمائه خارج سوريه وكونه الاضييه كابرهم ففانوه وفيه الى الكي
وتجديده من السلاح تجديداً باتاً ولقد نشبت كثيرأ زعماء هذه الجبل المحصوره على سلاح وعناده الاثراف
كالبنيه فلم يتنجحوا واحيأ تقربوا الى السلم وقتلوه من اخذ ١١٤ سلاح منها الى سوريه ودمر
في قراصم وبعد ما افترق هذا السلاح اسلوه وقراً مؤلفه من الزعماء من الجبل الى القريه اعلمه المرو
والشيخ اسماعيل الى القوطه ليطلبوا الى جبل الزاويه وكانه من نصيبهم في انقاذ الحركات الثوريه في الزوطه
وفي الوقت الذي كانه معظم الثوار منسحباً منها لذلك لم اقمه من اباية طلبهم فوجدتهم المحفوفه الى الجبل
عند ما تكلمتني الوضيفه في القوطه من ذلك وبعد عني صبراً اخيراً اسلوه وقراً كان ويملونه استعدادهم
مناسه الفرصه الساعه ورغبه اهل حلب الذيه اسسوا الجمعيات التي بدات جمع الاعانات
لمقاومة الحركات في الجبل ولا انشبت الحركاته القوطه واكتسبت شكلها الاثريه الى الرباط للنور
شأناً يمد يداً فتخبرت منهم مرة اخرى وطلبت منهم ان يملوا زعمائهم الديوبديم في سدد الاثراف
وارسلت رسولا بكتب فوصل لغتهم واثام بالاجوبه الى كلها تطلبه مني بسرهم وبالاج
والظاهر انه العدو واقف على بعضه نويا هذه الزعماء فكانه يعال اهل جبل الزاويه معاملة خاصه
من اللطف واليه انما وضعهم تحت مراقبه شديده بحيث لا يشعرونه فلما علمت اخيراً الى

[illegible]

سالة من الامير فيصل آل سعود الى فوزي القاوقجي اثناء اقامته في السعودية طالبا منه البقاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

للملك محمد بن عبد العزيز آل سعود

عدد ٣/٢٢/٦

في ١٩ ربيع الثانية ١٣٥٠

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى جناب المكرم فوزي القاوقجي سلمه الله
لسلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فقد تلقينا كتابكم وذكرتم رغبتكم في
لعمل او السفر ونحن نرى ان تستقيموا هذه المدة لانكم محسوبون علينا
سترون ان شاء الله ما يمركم في المستقبل ونسأل الله ان يوفقنا جميعا لما يحبه
ويرضاه والسلام

بعض التدريبات للقوات السعودية التي اشرف فوزي القاوقجي على تدريبها اثناء اقامته في السعودية
(١٩٢٨ - ١٩٣٢) .



• أثناء الثورة السورية الكبرى مع العميد هزاع ايوب •



• الامير فيصل آل سعود يشهد تدريبات الجيش السعودي (١٩٣٠) •

رجله من الجنود وجعل بطريقاً من ارضه فطالت
الطريق وجعلت من جميع الطرق والحقائق والحقائق
على حدة وبما كان فيهم عذاب ما لم يشعروا به الا انهم
بان سوريه فوضعت على الجميع وجعلت سبعة عشر
وهي الآن في المزارع والحقائق والحقائق والحقائق
ما جرت العزبة وما جرت العزبة وما جرت العزبة
والحقائق والحقائق والحقائق والحقائق والحقائق
وهو من عند نومه اجرة ما عسى ان يكون له في الدنيا
وكل من كان في الدنيا ما عسى ان يكون له في الدنيا
وكل من كان في الدنيا ما عسى ان يكون له في الدنيا

[illegible]

٢ - ٦ - ١٩٢٧

الاحتياطي
٢٧/٢٥

الاحتياطي الاصفر والاحتياطي الطبيعي لمركبة الشمال -

جنيه

١ - مصارقات سفرية الرصدية الشخصية

٢٠٠

(سعيد فوزي) الدكتور

نزهة خطية مصر، اقامة سدنة ايام بصرى مصر - انظر
اقامة ونجول مدة شهر بالاناضول (مدة اعضاء المركبة)

٢ - مصارقات المركبات :

٧٠٠

نزهة ... بنديق مع فرطه (٢ جنيه كل بنديق ونصف جنيه عام)

مصرف تجهيزات وراتب الزعماء وعيود (العدد من ١٥٠ الى ٢٠٠)

٢٠٠

مبلغ احتياطي (اعاشه داخل)

١٠٠

١٠٠٠

انه هذه الامور تمام هي الحد الاصفر التي يمكن ان نأخذها الى الاصفى من الاحتياطي
الضروي . واما المقدار اللازم للاحتياطي الطبيعي فهو نصف هذه
الاوراق (باعتبار انهم البناء) . وبنسبة القتاد يكون سدنة اصل ما هو متوقع
بذلك الفاتحة اذا يكونه كما يأتي :

نزهة ... بنديق

٢٠٠

فرطه

٢٠٠

مصرف تجهيزات وراتب الزعماء وعيود

٢٠٠

احتياطي (الاعاشه داخل)

١٠٠

١٠٠٠

يجب ان نراهم هذه التخصيصات لمدة شهر في حالة النجاة واما
الشرا الثالث فكل القالب يمكن تأميمه الاحتياقيات كلها من نفس النظم
الناشئة

انه المقدار الذي يجب تأميمه بالوقت الحاضر هو مصارقات السفر
فقط . اما مصارقات المركبات تكونه جاهزة الى ان نرفع عند الطلب

منه الا ناضول وذلك بعد شهره يوم الحركه منه فديته (تقريرا)

انه النبيه التي فصل عليها عبدي عبيد بندها به المصير نيار على قرار حلبة
١٨ مائة لا يح مع فقا وضائ مع خبرا المحكم المحمور به بصره ومخايرة الاخير مع
مكوسه بانقره له أكبر وصيغه لنا في قبول الحكم المذكور به جربا به المحركات
في شمال سوريا التي سيكون مصرها مع اراضي الاناضول وهذه الحال بمجملنا
في غاية النفع من نجاح تلك المحركات التي ستكون الاكبر النفع للحياة السود
الجنوبية التي تتأخر به عوامل الضف واليأس وتأخر الفاضل الكوميته
الاخير.

الدهير .
انما طلب من حضرات اعضاء اللجنة التحقيق بجلستنا اليوم ، غزيراً ^{١٤} احوال
الجواب القطعي ليكون ، ويقتضينا ان نجيب عن كل سؤال من غير انفساه
التي وافقنا من الجواب ، والاعراف الى اكثر التفتيم فقول هذا
الشهر اني جعلتني معروضاً لعذاب العبدية الا ليم قم من غير مصرعته
الفرصة لنا ، نجيب الكبير .

انفا و حبر

خداوند الحیاں

ان هذا الشرح ينبغي دفعه عنه ثم اوقف مؤلفه في سبيل انما في الوقت الذي
يؤيد به ديام والجمهور صوته الذي صنفه لتأليفه الجليل في خطه رحمه الله تعالى
ارغبه . ولعله لا يستعمله غيره بل يتركه وحده .

جبرائیل - میکائیل - اسرافیل - عزرائیل -
 نیبیط : نیکو اندیشه راست میسر جبهه لغو . روز صاف از خود می فرود آید و از
 میسران و از برین دل و هم عقدا دل خود برین باره دادند . می نهد می می طاعت . و از اندیشه
 ای می همین لذت می اندیشد . می از خود دور شود . و از می می آید که ناچار و از
 قدر را می می

Urkunde.

Im Namen Seiner Majestät des Königs
von Preußen ist dem Oberleutnant

Fri. Bey.

Adjutant d. Militär-Regt. II. Armee
in Königsberg - Fortuna - Militär-
verliehen worden.

Armee-Oberkommando der 5. Armee, den 27. April 1917.



Liman v. Sanders.

كان فوزي القاوقجي واحدا من ابناء الامة العربية الذي اعتلى مسرح الاحداث المعاصرة خلال الفترات المثيرة من انبعاث الشعور بالقومية ، والحربين العالميين وما تخللهما من حركات تحررية ، وقد ظل يقاتل في كل ارض عربية طغى عليها الاستعمار منذ ان وعى الفكرة العربية وهو لا يزال ضابطا في صفوف الجيش العثماني الى بداية الحرب العالمية الاولى وحتى معركة ميسلون ١٩٢٠ حيث عاد ومعه ضباط طيران اسرى من الفرنسيين . وتحت القناع الواقى وهو المركز الرفيع الذي كان يشغله في الجيش الفرنسي بعد الاحتلال كان لاعلانه ثورة حماة التاريخية ١٩٢٥ الفضل في عدم تمكن المستعمر من القضاء على ثورة جبل الدروز وجعلها ثورة عامة تشمل معظم البقاع السورية . وكان آخر من ترك ميادين الثورة ١٩٢٧ وظل مشردا عن سورية حتى ١٩٤٧ حيث ظل يمسك بعنق فرسه كلما سمع صيحة عربية طار اليها . فاقام في المملكة العربية السعودية بضع سنوات ساهم في بناء القوات العسكرية الحديثة فيها ، وعاد الى بغداد ١٩٣٢ ليصبح معلما للفروسية واستازا لتدريس الطوبوغرافيا في الكلية العسكرية . وفي اواسط حزيران ١٩٣٦ قاد حملة من المتطوعين عبرت بادية الشام لتنجذ ثورة فلسطين ضد جحافل الانكليز . وبعد الهدنة عاد الى العراق يترقب مغامرة جديدة ضد المستعمرين ، فقاد فريقا من المتطوعين السوريين والفلسطينيين والعراقيين في حرب العراق ١٩٤٠ ضد بريطانيا وسجل انتصارات لم يسجلها الجيش النظامي . وظل بعيدا عن الوطن العربي حتى عهدت اليه جامعة الدول العربية عام ١٩٤٧ بقيادة فريق من قوات انقاذ فلسطين . وبعد نهاية المرحلة الاخيرة والمؤلة لحرب فلسطين قرر الانسحاب من على مسرح الاحداث .

المذكرات التي دوّتها القاوقجي على مراحل كانت السلاح الذي غنمه من الميدان الحربي وفي الجزء الاول منها يكشف بأمانة الى جانب التضحيات والبطولات اليد الخفية التي تسيّر السياسة والاطعاء التي يمكن ان يستوحى منها العبر والدروس . وسينابع القاوقجي في الجزء الثاني ذكريات الكفاح العربي في فلسطين ونتائج المؤلة . . . والمذكرات ليست بالمعنى الدقيق ترجمة لحياته بل مجموعة ملاحظات اقتطفها من اختبارات طويلة وتجارب عميقة في موضوع القضية العربية ، وقد تتضارب حولها الروايات والآراء وتصطبغ بالآراء الذاتية ، والاحكام السريعة الا انها تصلح مادة للمؤرخين وكل ساعٍ لاقتناص الحقيقة .

دار القدس

٨ ل.ل. ١٠٠٠ فلس
١٠ ل.س. ١١٠٠ درهم لبي

مكتبة مركز - شارع بشارة الخوري
بيروت/لبنان